

رحلة إلى الغرب

أحمد علي أسد الله الكاظمي

أحمد علي أسد الله الكاظمي

رحلة إلى الغرب

مطبوعات نادي الطائف الأدبي

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب المشارق والمغارب، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء، المرسل إلى جميع العالمين من عرب وعجم.

وبعد:

فقد كنت أفكر ــ وأنا بين السماء والأرض، وفوق مياه البحر الأبيض المتوسط، في طائرة سعودية متوجهة من لبنان إلى جدة ليلة ٩/٦/١٣٨٨، مع فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله بن حسن آل الشيخ، ضمن ركب أخيه معالى وزير المعارف والصحة يومئذ، ووزير التعليم العالى اليوم الشيخ حسن بن عبد الله بن حسن آل الشيخ..

كنت أفكر في هذه الرحلة التي قام بها فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله ابن حسن آل الشيخ إلى الغرب، والتي رافقته فيها واستغرقت شهراً تقريباً.. وأنه إذا قدّرني المولى الكريم في يوم من الأيام على نشر ما سجلته عنها في كتاب مستقل... أن أقدمه هدية تقدير وإكبار، وود واحترام، للأخوين الفاضلين الجليلين، أحفاد مجدد الدعوة إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة في القرن الثاني عشر الهجرى، والتي شملت الجزيرة كلها، وامتدت إلى آفاق العالم الإسلامى، والتي مازالت ــ ولله الحمد ــ تضيء وتنير علينا في مسيرتنا ونهضتنا العاملة الشاملة التي أرسى قواعدها، وشيّد أركانها، مؤسس هذه المملكة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله، ثم سهر على تنميتها ودفع عجلتها إلى الأمام خلفاؤه وأبناؤه الغر الميامين، وحفظ الله جلالة الملك فهد بن عبد العزيز قائد مسيرتنا الموفق الملهم وولى عهده الأمير عبد الله بن عبد العزيز وبقية إخوانه ورجال مملكته المخلصين العاملين لرفعة شأن العرب والمسلمين..

وهـأنذا اليوم أحمد الله وأشكره على ما منّ به عليّ، وقدرني على إخراج هذه الرحلة في كتاب مستقل باسم (رحلة إلى الغرب) فليتفضلا مشكورين بقبول هذه الهدية المتواضعة كتذكار حب وإخلاص من:

محبهما المخلص
أحمد على أسد الله الكاظمى

مكة المكرمة ١٣٩٩/٣/٢٠

كلمة شكر وتقدير

لا يسعني وقد ظهرت هذه الرحلة في شكل كتاب إلا أن اتقدم بجزيل الشكر والتقدير لنادي الطائف الأدبي الذي تولى هذه المهمة تحت رعاية أمير الشباب والثقافة والرئيس الأعلى للنوادي الأدبية والرياضية في المملكة العربية السعودية سمو الأمير فيصل بن فهد حفظه الله واهتمام رئيس النادي الأستاذ الفاضل علي العبادي وسكرتير النادي الأستاذ منصور الشقحا ، وبقية الأعضاء حفظهم الله ورعاهم بعنايته .

المؤلف

أحمد علي أسد الله الكاظمي

مكة المكرمة ٢٠/٢/١٤٠٦ هـ



ـ ١ ـ

رحلة إلى الغرب:

عدت فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله بن حسن آل الشيخ مدير عام إدارة التفتيش الديني بالمنطقة الغربية في مستشفى الملك فيصل بالطائف يوم ١٤ / ٣ / ١٣٨٨ هـ ، وقد دخله إثر تعرضه لنزيف أنفي شديد .. وقد وقف النزيف بعد أن قام أطباء المستشفى بإسعافات لازمة ، وعلاج من قبل المختصين في الأنف والحنجرة .. وقال لي الشيخ : لقد توقف النزيف والحمد لله ، وسأغادر المستشفى بعد يومين أوثلاثة .. ولكن الأطباء أشاروا عليَّ بإجراء عملية في الأنف .. ونصحني المحبون أن تكون على طبيب متخصص في الأنف والحنجرة بلندن .. وبناء عليه قد أفكر في السفر إلى لندن ، وأحب أن تكون رفيقي في هذه الرحلة ..

قلت لفضيلته : حباً وكرامة ، ولكن لا كمترجم ، لأني أعرف نفسي وأعرف ضعفي في المحادثة الإنجليزية ..

قال : أما تستطيع أن تأخذ وتعطي ...؟
قلت : وأكثر من ذلك بحول الله .
قال : يكفيني ذلك والمهم في الأمر الرفيق ..
قلت : وذلك يشرفني وسأكون إن شاء الله عند حسن ظنك ..
قال : سأتصل بك إذا أزمعت وأجمعت على السفر .
قلت : ليقدر الله الخير لنا جميعاً وشكراً ...

* * *

ومضى على هذا الكلام مايقرب من خمسة عشر يوماً ، ثم اجتمعت به في مكتبه بالطائف ، فبادرني بالسؤال الآتي : هل أنت على استعداد ؟ فقد يكون السفر قريباً .

فقلت لفضيلته : الاستعداد لا يحتاج إلى وقت .. وهل أنت عازم على أن أكون رفيقك في هذه الرحلة ؟

قال — حفظه الله — : نعم أنا عازم — إن شاء الله — أن تكون رفيقي في هذه الرحلة ، وقد رحب بذلك كل من أعرفهم وفي مقدمة هؤلاء معالى الشيخ حسن وزير الصحة والمعارف ، وهو الذى قرر بصفته وزيراً للصحة أن أسافر إلى لندن وأجرى هناك فحوصاً طبية عامة ، وإذا قرر الأطباء العملية فستكون على يد دكتور أخصائى في هذه الناحية ، وقرر أيضاً أن تكون مرافقي في الرحلة .

فلم يسعنى إزاء ذلك إلا أن أرفع آيات شكرى لمعاليه ، وأشكر فضيلة الشيخ محمد على حسن ظنهما بى ...

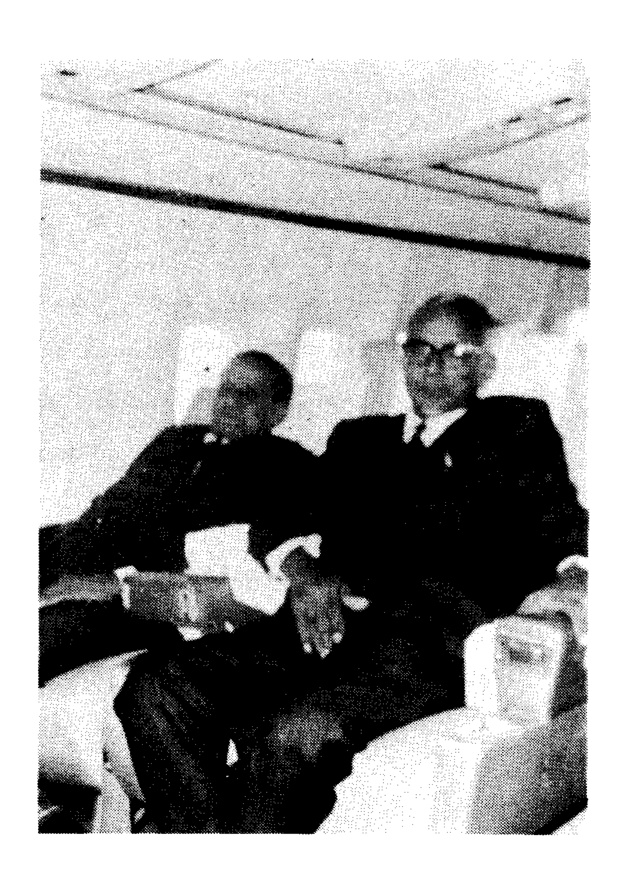
ثم قال فضيلته : وسنقوم بعد الفحوص والعملية إذا قررها الأطباء بجولة في بعض البلاد الغربية ، وذلك للتأكيد من نتيجة الفحوص الطبية والعلاج ، فربما يكون للجهد الفكرى والتعب الجسماني تأثير للتعرض للمرض .. فإن حدث في هذه الأثناء — لا سمح الله — شيء من الألم أوأثر للنزيف رجعت للطبيب المختص من قريب .. ولا نرجع إلى البلاد إلا بعد التأكد والاطمئنان من هذه الناحية .

بداية الرحلة :

وجاء ميعاد السفر من جدة وهو يوم الأحد ١٠ / ٥ / ١٣٨٨ هـ ، وكنا في مطار جدة الدولي قبل ميعاد قيام الطائرة بساعة ، ثم في الوقت المحدد نودى على ركاب الطائرة البوينج المتوجهة إلى لندن للخروج من المطار إلى الطائرة ، فودع الشيخ الحاضرين من أبنائه وأقربائه ، ودخلنا الطائرة متوكلين على الله الحي القيوم قائلين (**باسم الله مُجْرِيها ومُرْساها**) ،

لم يكن معنـا في الـدرجـة الأولى غير سمـو الأمـير عبـد المحسن بن عبـد العـزيـز أمير منطقة المدينة المنورة★، مع بعض أسرته وحفيدته الصغيرة ...

تحركت الطائرة وارتفعت الساعة ٣/٢٥ بالتوقيت الغروبي و١٠/٥٠ بالتوقيت الزوالي، وودعنا بنظراتنا مدينة جدة وعماراتها، واستقبلتنا زرقة البحر الأحمر وأخذت الطائرة ترتفع في الجو حتى بلغ ارتفاعها ـ (١٨٠) متراً، أى أكثر من ٥٠٠ قدم، وذلك حسبما رأيت في ميزان الارتفاعات (الالتيمتر)



★ (رحمه الله وأسكنه فسيح جناته)

ومنذ أن ارتفعت الطائرة، وأخذت طريقها إلى الشمال، بدأ المضيف والمضيفات في القيام بخدماتهن، وأداء واجباتهن على خير مايرام من تقديم بعض الحلوى، ثم مشروب بارد على حسب الطلب، ثم تقديم مقدمات الطعام كالمشهيات الأوربية بمقادير صغيرة، في وسع الرجل الشرقي أن يجعل جميعها ـ لو كان على مائدة شرقية لقمة واحدة.. ولكن هنا لابد وأن نلاحظ (الإتكيت الغربي) وأن نتناول من تلك الكميات القليلة كالطيور شيئاً فشيئاً..

واستغرق تناول الطعام والشاى بهذه الطريقة الغربية مايقرب من ساعتين.

في سماء القاهرة:

وبعد مضى ساعة وأكثر أخبرنا مساعد الطيار (بالميكرفون) أننا الآن في سماء القاهرة .. ورأينا من النوافذ مدينة القاهرة وشوارعها كخطوط مستطيلة، ومربعات ومثلثات، ورأينا شارع الهرم وهو ممتد على استقامة واحدة إلى مسافات طويلة، والنيل ومراكبه النهرية والشراعية كنقط بيضاء، ثم شاهدنا سواحل مصر وبياض «بلاجاتها» على شكل قوس كبير... ثم دخلنا منطقة البحر الأبيض المتوسط. بين السماء والبحر.

بعد دخولنا منطقة البحر الأبيض بأكثر من ساعة، سألت الأخ المضيف عن موقعنا في الجو، وفي سماء أية أرض الآن؟ وكنا رأينا تحتنا أجزاء من اليابسة.. فقال: نحن الآن بين السماء والبحر، ولست أدرى هل كان جوابه هذا من باب المداعبة أوذلك مبلغه من العلم، فقلت له: لاشك أننا الآن تحت السماء وفوق البحر..

وقد تشاغلنا في أثناء تناول الطعام، وفي انتظار مايقدم لنا من أجزائه على دفعات، عن التفكير في بعد المسافة، وكوننا سنبقي فوق طبقات السحب ساعات، وما قد يتركه هذا التفكير من بعض الوساوس والأفكار السود.. وكدنا بعد انتهائنا من دور الأكل والشرب أن نقع في شيء

مما ذكرته، ولكننا لم نشعر إلا والأمير عبدالمحسن بن عبدالعزيز قام من كرسيه وجلس معنا، وأخذ يتحدث عن ذكريات مدرسة الأمراء، وسألني عن الشيخ عبدالله خياط وكيف حاله؟ وعن مواضيع الساعة، وحالة العرب والمسلمين وما هم في حاجة إليه في الوقت الحاضر، وأن التمسك بالدين ومبادئه السامية هو الطريق الوحيد للعرب والمسلمين للوصول إلى شاطىء النجاة من بين الزعازع والأخطار المحدقة بالعالم العربي والإسلامي في هذه الأيام.. وقضينا مع سموه وقتاً طويلاً في مثل هذه الأحاديث اللطيفة، والآراء الإسلامية التى كان لها أحسن الوقع في نفوسنا.. كما أنها أذهبت عنا سأم التفكير في بعد المسافة..

وفي أثناء أحاديثنا مع سموه الكريم، قدمت لنا المضيفة ــ أى لكل راكب ــ بطاقة إثبات الشخصية المعتادة، فملأناها ووضعناها مع الجوازات..

وبعد مايقرب من نصف ساعة سمعنا (الميكرفون) يعلن للركاب قرب نزولنا في مطار لندن. ونظرنا من النوافذ فلم نر غير الغيوم المكفهرّة فوقنا وتحتنا.. وربطنا الأحزمة، وبقينا في انتظار رؤية الأرض ونزول العجلات، وأخيراً رأينا خضرة الأرض والعمارات والمطار وبناياته وبعض أنواره، واستغرق بقاؤنا في الجو بين جدة ولندن سبع ساعات تقريباً.

النزول في لندن:

كانت السفارة الملكية السعودية والمستشار الثقافي السعودى قد أبلغ كل منها بتوجه فضيلة الشيخ محمد، وعن رقم الرحلة لتسهيل أمر وصوله إلى مطار لندن.. وكنا نقول لعل أحداً يأتينا ويساعدنا.. وحامت الطائرة حول المطار مرة أومرتين، ثم نزلت فحمدنا الله على سلامة الوصول، والتصق باب الطائرة ــ للدرجة الأولى ــ بمدخل المطار أو الممر المؤدى إلى مكاتب المطار، فخرجنا من الطائرة إلى الممر دون أن نشعر بأى تغير في الجو، ومشينا مع إحدى مضيفات الطائرة، فأوصلتنا إلى مأمورى الجوازات، حيث ازدحم

ركاب الدرجة الثانية ووقفوا متتابعين في صف طويل «طابور» .. ولم يسعنا غير الوقوف في نهاية الصف وجوازاتنا بأيدينا ..

الأستاذ/ فائز المارديني:

وبينما نحن وقوف في صف «الطابور» تقدم إلينا مسرعاً رجل عرفنا باسمه إنه الأستاذ/ فائز المارديني الموظف بالسفارة السعودية مندوباً من قبل معالي السفير، وسأل الشيخ محمد: سيادتك الشيخ محمد بن حسن آل الشيخ؟ فقال له: نعم وهذا رفيقي.. فأخذ منا الجوازات ودعانا إلى ناحية أخرى حيث اتصل بموظف كبير، وأنهي معه موضوع الجوازات، ثم نزل بنا إلى جناح خاص خصص منذ أيام قريبة لاستراحة الشخصيات البارزة القادمة إلى لندن أوالمسافرة منها.

واجتمعنا هناك بسمو الأمير متعب بن عبدالعزيز، وقد جاء لاستقبال أخيه الأمير عبدالمحسن، وسر برؤيتنا، وجلس يتحدث معنا طويلاً.

وكان الأستاذ/ عبدالعزيز التركي المستشار الثقافي السعودى بلندن أرسل مندوباً من قبله لاستقبال الشيخ محمد بن حسن، ولكنه لما رأى الأستاذ/ فائز الماردينى سلم علينا انصرف معتذراً. وحضر إلى المطار لاستقبال الشيخ محمد صهره الشاب عبدالكريم السعدون..

وبقينا في الاستراحة بعد انصراف الأمراء برهة من الوقت في انتظار وصول الحقائب.

قصيدة قديمة:

وقد تذكرت وأنا في استراحة المطار بلندن قصيدة كنت أحفظها وأنا صغير لشاعر من شعراء «لبنان» رزق الله حسون، كان من رواد اللغة العربية الأوائل، حفظتها من ديوانه «نفثات» المطبوع في أوربا

سنة ١٨٦٧م (١٢٨٨ هـ) وكان الشاعر وصل إلى لندن في باخرة اسمها «بلطيق» .

قال الشاعر:

وقد أتيت بلاد الإنجليز على (بلتيك) إني لهذا أشكر الله .

أما نحن فكنا نشكر الله على وصولنا سالمين، بعد أن بقينا بين الأرض والسماء سبع ساعات، وكنا فوق السحاب تارة، وأخرى تحته أوبين طبقاته أحياناً .

وقال الشاعر أيضاً :

ذرعت دنياى باديها وحاضرها سل مطلع الدب عنى أوثرياها
أبصرت إلا بلاد الإنجليز على دون الذى وصفت لى قبل رؤياها
جزيرة لم تزل خضراء ناضرة خصبا تسامت على الدنيا مزاياها

ولما رأيت الرذاذ المستمر النازل من السماء عندما خرجنا من الاستراحة إلى ركوب السيارة تذكرت قوله :

والسحب كالوالدات الحانيات على أطفالها احتضنت في القيظ أرجاها

إلى أن قال :

قد كنت أحسب قبل اليوم منحصرا في غيد قوقاس حسن الجسم رهراها
واليوم أشهد أن الحسن أجمعه للإنجليز بمعناها ومرآها

وأظن لو أن الشاعر ذهب لإسبانيا لتغير رأيه هذا، وعلى العموم فتعابير الجمال تختلف باختلاف الشعوب والأجناس والألوان والثقافة والأرض .

إلى فندق (كينز نجتون) KENSINGTON

وبعد أن تسلمنا الحقائب أوالحقيبتين بالأصح، أخذنا الأستاذ/ المارديني في سيارته إلى فندق كينز نجتون الذى حجزلنا فيه بأمر من السفارة، ومقره في الجنوب الغربي من لندن بجوار حديقة لندن المشهورة «هايد بارك» من ناحيتها الجنوبية .



وجيه من الوجهاء :

وعند مدخل الفندق رأينا رجلاً عملاقاً في بدلة كحلية فخمة ظننته **في** أول الأمر وجيهاً من الوجهاء.. أوضابطاً كبيراً في الجيش أوالمرور أوالبوليس.. وقد كان في بذلته وشكله وقامته الفارهة وإشاراته البراقة على معطفه يبدو كأنه شخصية بين الموجودين في الشارع، وبين الصاعدين إلى الفندق والنازلين منه..

ولم أعرف حقيقته إلا عندما وقفت السيارة أمام مدخل الفندق، فتقدم إليها وفتح بابها بانحناءة الاحترام والتقدير للركاب..

وهنا عرفت حقيقة هذا الوجيه وعمله..

وحمل الوجيه الحقيبتين كأنهما محفظتان، وأدخلهما إلى الفندق حيث اتصل الأستاذ/ فائز الماريني بمدير الحركة، وأخذ منه مفتاح الغرفة المحجوزة، وصعدنا إليها، وصعد بالحقيبتين خادم آخر أقل وجاهة من الواقف عند مدخل الفندق.

وبعد أن اطمأن الأستاذ/ فائز الماريني بانتهاء مهمته، وأن الشيخ محمد قد ارتاح في غرفته مع رفيقه، استأذن وخرج على أن يراه قريباً..

وبقي معنا الأخ عبد الكريم السعدون، ولوصوله إلى لندن منذ أيام، عرف بعض معالمها وطرقها وشوارعها، واستأذن الشيخ للخروج على أن يعود بعد ساعة مع رفاقه لنقوم جميعاً بجولة في ناحية من نواحي لندن.. وفي هذه الأثناء صلينا ثم ارتحنا، وعندما دنا ميعاد عودة الأخ السعدون تهيأنا ثانية للخروج، وتركنا الراحة والاضطجاع لليل..

حديقة الأفراح:

وجاء الأخ السعدون ومعه ثلاثة من رفاقه من الرياض، جاءوا إلى لندن للتقوية في اللغة الإنجليزية بإحدى المدارس الصيفية..

وقال للشيخ: دعنا نخرج.. فقال له الشيخ محمد: وإلى أين تريد؟ فقال الأخ السعدون: إلى حديقة الأفراح فهي قريبة، وبمناسبة يوم الأحد تكون عامرة بالزوار.. فلم يسعنا إلا الموافقة ــ كما قيل ــ شرط المرافقة الموافقة..

وكنا ستة أفراد لا تسعنا سيارة واحدة من سيارات الأجرة، لأن (التاكسى) لا يركبه إلا خمسة ركاب، فاضطر الإخوان أن يركبوا في سيارتين.

وعند مدخل الحديقة ترجلنا للدخول، فالسيارات لا تدخلها.

وقبل أن ندخل الحديقة أحب أن أبين حقيقتها، فقد يتبادر إلى ذهن بعض الإخوان الذين لم يعرفوها أو لم يسمعوا عنها مفاهيم مختلفة... ولأمثال

هؤلاء أحب أن أقول: إن مدينة الأفراح وتعرف بالإنجليزية أيضاً (Fine Fun) وهي عبارة عن حديقة واسعة، وفي جزء محدود منها وسائل مختلفة للترفيه البرىء، وألاعيب ومراجيح متنوعة، وكلها تدار بالكهرباء، وسيارات صغيرة وعربات على أشكال.. أى أن كل ما فيها لا يخلو عن كونه نوعاً من اللعب يشترك فيه الصغار والشباب والكبار.. أويدخلها الإنسان للمشاهدة والتجوال، ودخلنا الحديقة على أقدامنا وأرضها ــ في غير الممرات ــ مكسوة بالعشب الأخضر المنسق بالقص والتشذيب، وعلي جانبي الممرات أشجار شامخة ضخمة أكسبت الحديقة منظر الغابات.

ثم دخلنا قسم الألاعيب، فإذا هو مزدحم بجموع عظيمة من البشر من كل جنس ولون ولباس ولغات، وكل لعبة عليها ازدحام من الراغبين فيها.. وثم كهوف مظلمة تدخلها سيارات صغيرة كالكراسي تسير علي قضبان، وتصطدم بأبواب حديدية بأصوات مزعجة، كما تسمع داخل الكهوف أصواتاً غريبة.. وركاب هذه العربات لا يتأخرون عن الزعقات والصيحات، وتستمر الرحلة داخل هذه الكهوف خمس دقائق تقريباً. وعربات أخرى تسير على قضبان وترتفع عالياً، ثم تنحدر بسرعة هائلة إلى منخفض عميق، ثم تدخل نفقاً ضيقاً وتخرج منه إلى المكان الذى بدأت السير منه، ويستغرق دقائق معدودات، وعربات تصعد مرتفعاً ثم تنزل بقوة هائلة، وتمر ببركة ماء دون أن يبتل الركاب، وألاعيب أخرى تعد بالمئات، وأصعب هذه الألاعيب أرجوحة تدور بسرعة دورات رأسية، والراكب فيها يجلس داخل غرفة كغرفة القيادة في الطائرة، ويربط نفسه بالحزام، ثم يدور أوتدور به الغرفة دورات رأسية يكون فيها مرة معتدلاً في الجلوس، وعندما تنحدر يكون منكس الرأس ــ أى رأسه أسفل ورجله إلى فوق.. وألاعيب تعلم الرماية وضرب الأهداف، وكلها برسم معين يدفعه اللاعب، وكلما امتلأ الوعاء المغلق بالنقود المعدنية يأتي الموظف المختص ويفتح القفل ويأخذ كل ما تجمع في جردل.. وتتكرر هذه العملية مراراً..

كانت شمس **الأصيل مع وجود السحب تملأ** الكون بنورها .. ونظرت إلى وقت مكة الغروبي في ساعتي، فإذا بالساعة تشير إلى الثانية بعد العشاء ... واكتفينا من هذه الحديقة بهذا القدر، أي بالوقوف على كل مافيها دقائق معدودات بلغ مجموعها أكثر من ساعة ونصف أوساعتين تقريباً .. ثم خرجنا منها إلى الجزء الآخر من الحديقة حيث الهدوء وعشاق الهدوء السابحون في أفلاكهم دون مبالاة لأعين الرقباء ..

ومررنا بنافورات قوية تدفع شآبيب الماء إلى مسافات بعيدة، وإلى جهات مختلفة في أشكال هندسية بديعة .. ولولا تأخر الوقت لقضينا في هذه الحديقة لحظات راحة. ومتعة وهدوء، ولكن دنو وقت الخروج من الحدائق، ونزول قطرات من المطر على شكل رذاذ متقطع جعلنا نستعجل في الخروج ..

خرجنا من الحديقة بالقرب من جسر الأمير (ALBERT B.) ألبرت، ووقفنا عند رتاج الحديقة انتظاراً في مرور سيارة من سيارات الأجرة .. ولما طال الانتظار استدرك الإخوان أن العثور على التاكسي في مثل هذا المكان وخاصة في يوم كيوم الأحد أمر صعب .. فالأولى أن نتقدم على الأقدام إلى موقف أوتوبيس فهو ليس بعيداً .. فعبرنا الجسر، ولولا الرذاذ لجعلناها نزهة مسائية على الأقدام، ولكن خوفنا من أن يتحول الرذاذ إلى صيب وابل جعلنا نجتاز الجسر في شبه هرولة، ووقفنا تحت الرذاذ المستمر مايقرب من نصف ساعة .. ثم وصل الأوتوبيس فهرعنا إلى مقاعده، وسار بنا شمالاً حتى اقترب من منطقة الفندق (كنزنجتون)

إلى مطعم عربي :

وأبى الأخ عبد الكريم السعدون إلا أن يكرم الشيخ محمد ورفيقه بدعوتها إلى العشاء في مطعم عربي، فلم يوافق الشيخ على طلبه إلا بعد إلحاح كبير ..

وعروبة المطعم تتجلى في وجود رجل لبناني أومصرى يتكلم مع العرب بالعربية.. وفي طريقة الإضاءة، فالأضواء كلها عبارة عن شموع داخل قناديل ضئيلة النور، هذه هي عروبة المطعم، ولم يكن ميعاد الطعام قد حل.. فشغلنا الخدم بتقديم مشروبات باردة من عصير البرتقال أوالكوكاكولا أوالبيسي أوالليمون..

ثم قدمت لنا الخادمة قطعاً صغيرة من اللحم المشوى مغروزة في عود كعود الكبريت.. وقد تأكد الأخ السعدون من نوع اللحم وأنه لحم غنم لا حيوان آخر.

ولم ننته من العشاء الذى جمع من الطيبات اللذيذة أنواعاً وأشكالاً وأنماطاً مختلفة إلا بعد ساعتين كاملتين، وخرجنا من المطعم إلى الفندق شاكرين للأخ السعدون ضيافته هذه.

الأستاذ / عبد العزيز التركي المستشار الثقافي السعودي في لندن:

وزارنا في الليل الأستاذ المستشار الثقافي عبد العزيز التركي معتذراً عن تغيبه بالمطار عند وصولنا. وذلك لمرض إحدى بناته المفاجئ بالزائدة، فأجريت لها عملية سريعة للاستئصال في حضوره، واضطر لإنابة ابنه مع أحد موظفي المستشارية في مقابلتنا بالمطار..

وقال أيضاً: إنه اتفق مع طبيب مشهور يدير مستشفي (أمراض المناطق الاستوائية) وحجز غرفة في المستشفي بناء على أمر وزير الصحة والمعارف الشيخ حسن آل الشيخ.. وقد تردد الشيخ في أول الأمر وأراد أن يتريث قليلاً في دخول المستشفي، ولكن الأستاذ التركي شجعه على إنجاز هذه المهمة التي جاء من أجلها، وأن الحجز في المستشفيات ليس سهلاً.. وأخيراً وافق الشيخ محمد على دخول المستشفى من الغد..

ورغب الشيخ أن يتصل الأستاذ التركي بمدير المستشفي ليسمح له ببقاء

رفيقه معه في الغرفة، فقال الأستاذ التركي: الذى أعرفه في مستشفيات لندن أنها لاتسمح لأحد بالبقاء مع المريض مطلقاً، ومع ذلك سأسأل الدكتور مدير المستشفى بصورة خاصة.. ثم استأذن للخروج على أن يأتينا غداً مبكراً..

واستسلمنا للنوم.. وكان الجو بارداً بالنسبة إلينا، ونمنا مدثرين بالأغطية الصوفية.. وأول صباح لنا في لندن هو يوم الاثنين ١١/٥/١٣٨٨هـ ٥/٨/١٩٦٨م، وكنا على أتم استعداد للخروج عندما اتصل بنا الأستاذ التركي من صالة الفندق.. فنزلنا إليه وأنزل الخدم الحقائب، وبعد محاسبة مدير الحركة في الفندق خرجنا مع الأستاذ التركي في سيارته إلى المستشفى..

والمستشفي اسمه مستشفى أمراض المناطق الاستوائية، ويقع في الشمال الشرقى بالنسبة إلى لندن في منطقة معروفة باسم كنيسة القديس بنكراس... وبعض أجزائها تابعة لكلية الطب..

وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات لخروج الناس إلى أعمالهم ومكاتبهم.. وسألنا الأستاذ التركي وهو يقود السيارة: هل وجد صعوبة في قيادة السيارة ذات المقود اليميني والسير على اليمين؟ فقال: نعم في أول الأمر، أما الآن فقد أصبح مألوفاً لدى..

إلي السفارة السعودية:

وكانت السفارة قريبة من منطقة الفندق، فاستحسن الشيخ محمد أن يزور معالي السفير قبل دخوله المستشفى، فوصل إلى السفارة، ولكن السفير كان غير موجود، فجلسنا عند مستشار السفارة لحظات، ثم سجل الشيخ زيارته وسجل أنه سيدخل المستشفى اليوم.

إلي مكتب السيد المستشار الثقافي:

ومر الأستاذ التركي بمكتبه ليشرف على أعماله، ويطلع على البريد ثم

يواصل سيره إلى المستشفي، واجتمعت في مكتبه بالسيد الأخ عمر الجفرى محاسب المركز، والذى أحتفظ له بالذكر الحسن عندما كان يقوم بنفس العمل بالمستشارية الثقافية السعودية بروما..

وطلبت من الأستاذ التركي أن يخبر ولد أخي السيد محمود أسد الله، الطالب بجامعة أدنبرة بوصولي إلى لندن، وعهد الأستاذ التركي بالأمر إلى السيد عمر، فاتصل به في الحال تلفونياً وأخبره بوصولي..

إلى المستشفى :

كان الأستاذ التركي ينتظر ابنه السيد خالد التركي ليرافقنا إلى المستشفى، لأنه خبير بطرق لندن أكثر من أبيه.. ولما طال الانتظار وانتهينا من تناول الشاى والقهوة.. ومطالعة بعض الجرائد السعودية، قام الأستاذ التركي وعزم على أن يأخذ الشيخ محمد بنفسه إلى المستشفى، واستعان على معرفة الطريق بالسؤال عن أقرب طريق يؤدى إلى (منطقة سانت بنكراس) (ST. Pancras) حتى وصل إلى المستشفي.. ووجد أن الميعاد الذى ارتبط به مع الدكتور ــجون والترــ (John Walter) مدير المستشفي لم يزل به فسحة من الوقت، فأوقف السيارة عند باب المستشفى، وقمنا بجولة علي الأقدام حول منطقة المستشفي وعند دنو الميعاد رجعنا..

وسأل الأستاذ التركي مأمور الاستعلامات عن الدكتور (جون) فأرشده إلي سكرتيرته التي ذهبت وأخبرت الدكتور.. فجاء في الميعاد المحدد، وحيانا بوجه باسم، ولإقامته بالكويت يعرف كلمات كثيرة من اللغة العربية.. لاسيا كلمات الترحيب.. ثم قدم له الأستاذ التركي الشيخ محمد بأنه الذى حجز له عنده، فرحب به وتمنى له صحة جيدة.. وأمر في الحال ثلاثاً من الممرضات باتخاذ ما يلزم لتهيئة الغرفة للشيخ، وفي الحال فتحت الغرفة وهيئ السرير وكل ما يتعلق بالسرير والغرفة والأجهزة اللازمة، وخرج الدكتور من الغرفة وأرسل دكتوراً تحت التمرين لأخذ معلومات عامة عن حالة الشيخ محمد الصحية، وعما حدث له، وهل يشكو شيئاً الآن أولا.. ثم

جاءت ممرضة وأخذت ضغط الدم، وجاءت أخرى وأخذت عينات من الدم.. كما أخذت أقسام أخرى بقية ما يحتاج إلى التحليل..

وبعد أن تجمعت كل هذه المعلومات عند الدكتور، جاء بنفسه وفحص الشيخ فحصاً دقيقاً.. وكان الأستاذ التركي يترجم بينهما، ثم عهد إلى ممرضة بأخذ أشعة للوجه والصدر..



وقرر بعد الفحص الدقيق استقدام طبيب مختص بالأنف والحنجرة للكشف على الأنف، وحدد لمجيئه الساعة الخامسة والنصف من اليوم نفسه بتوقيت لندن، أى بعد العشاء بتوقيت مكة..

موضوع الغرفة الثانية أوالسرير الثاني

وسأل الأستاذ التركي (الدكتور والتر) عن بقائي مع الشيخ في الغرفة أوفى غرفة أخرى لأكون قريباً منه، فاعتذر مبدياً بأن نظام المستشفى لا يسمح لغير المريض بالبقاء ليلاً فيه.

وبناء عليه عهد الشيخ محمد إلى الأستاذ التركي بالبحث عن غرفة في أحد الفنادق القريبة من المستشفي، لأكون معه في النهار وآوى إلي الفندق ليلاً للمنام..

الطعام:

وجاءت الممرضة المختصة بالطعام، ومعها قائمة المأكولات للغداء والعشاء والفطور، وطلبت أن يؤشر الشيخ على الذى يرغب فيه من الأطعمة والشاى والقهوة.

والطعام بسيط جداً، وكأنه روعي فيه الجانب الغذائي لا ناحية الكمية والشهية والتوابل.. وكان بعيداً كل البعد عن الأطعمة المألوفة لدينا، وطريقة الإكثار من كل نوع، بل على الطريقة الصحية أوالإسلامية القيمة ألا يأكل الإنسان إلا إذا جاع، وإذا أكل يقوم قبل الشبع..

مكثنا مع الشيخ في غرفته إلى الساعة السادسة أى إلى ما قبل غروب الشمس بقليل..

ثم استأذن الأستاذ التركي ليبحث لي عن غرفة في أحد الفنادق القريبة، وخرجت معه على أن أعود ثانية إذا وجدت محلاً للمنام.. وسأل الأستاذ التركي عدة أشخاص من هذا الحي عن فندق قريب فاتفقت إجابتهم بالنفي عن وجود فندق في منطقة المستشفى.. وعليه تقدمنا إلى ناحية ــ ايستن رود (Euston Road) نحو الجنوب، وكلما وجد فندقاً دخله وسأل مكتب استعلامه عن وجود غرفة.. فسأل أكثر من خمسة عشر فندقاً على اختلاف درجاتها: أولى وثانية وثالثة. ولكنه لم يجد في شيء منها غرفة خالية لكثرة السياح وزوار لندن، وأخيراً تعب الأستاذ التركي من مراجعة الفنادق وهو غائب عن أهله منذ الصباح الباكر، كما أنه لم يتناول شيئاً من الطعام غير الشاى والمبردات.. فأخذني إلى مسكنه وشقته، وهي عبارة عن جناح تام في عمارة كبيرة..

وكان الوقت متأخراً، أى الثامنة بالتوقيت المحلي للندن.. وهيأ لي ــ جزاه الله خيراً ــ غرفة بكل وسائل الراحة والهدوء، واختصاراً نزلت ضيفاً عليه شاكراً له هذه المكرمة واليد الكريمة التي أسجلها له ضمن مكارمه السابقة عليّ وهو في الدمام والأحساء.

واتصلت بعد أن ارتحت تليفونياً بالشيخ محمد في المستشفى معتذراً عن عدم تمكني من الوصول إلي المستشفي في هذا الوقت المتأخر.. فقال حفظه الله ــ: إن عنده الأخ السعدون، وإنه سينام بعد قليل.. وأن أبكر إليه غداً في الصباح قبل مجيء الدكتور..

وبعد تناول العشاء والشاى والاستماع إلي إذاعة لندن العربية نمت مرتاحاً والحمد لله..

وبمناسبة استماعي لإذاعة لندن العربية، أدركت أن أهل لندن لا يمكنهم الاستماع إلى هذه الإذاعة العربية إلا باتفاق مع محطة الإذاعة (بي بي سى) على مد خط سلكي من المحطة إلي الراغب في الاستماع إليها مقابل رسم معين شهرياً، أما بغير هذه الطريقة فمن المستحيل أن يستمع إلي المذيع العربي.

— ٢ —

المعيشة في بلاد الغرب وأحوالها

القبلة أو البوصلة :

كانت البوصلة الخاصة بضبط القبلة التي وضعها السيد عباس بالسرور التونسي، لمعرفة القبلة لبلاد القارات الثلاثة : آسيا وأوربا وأفريقيا، مع الكتيب الصغير مفيدة جداً، ساعدتنا في أوربا في معرفة القبلة داخل الغرف ليلاً كان أونهاراً، ولم نحتج إلى سوأل أحد وأين هذا (الأحد) في تلك الديار، واستيقظت مبكراً يوم الثلاثاء ١٣/٥/١٣٨٨هـ ٧/٨/١٩٦٨م، وصليت الفجر ثم رجعت للنوم .. ثانياً .. حتى أيقظني الأستاذ التركي .. بعد ساعة لتناول الفطور، وقد جمع لي على المائدة أصنافاً من الأطعمة التي تقدم في الفطور عادة — زاده الله من خيراته — وكأنني في داره بالمنطقة الشرقية لا في لندن، حيث يقدم الطعام بحساب وقدر معلوم ..

وبينما كنت أتهيأ للخروج معه، إذ أخبرني أن الأخ محمود أسد الله وصل من «أدنبرة» وهو الآن عنده في صالون الضيوف، فخرجت إليه وكان يتمنى أن أزوره هنا في لندن، وفي مقر دراسته بأدنبرة فنال ما تمناه، وفرح كل منا بهذا الاجتماع المفاجيء .. وقال إنه قطع المسافة بين أدنبرة ولندن في أتوبيس في سبع ساعات، أى أنه ظل ساهراً طول الليل.

إلى المستشفى:

وأخذنا الأستاذ التركي في سيارته إلى المستشفى مع مئات السيارات التي تسابق الريح وتزدحم بها الشوارع.

والغريب في الأمر أن هذه الحركة العظيمة من المرور تجرى بانتظام، وعلى إشارات المرور الأوتوماتيكية دون وجود أى جندى من جنود المرور، اللهم إلا في بعض مناطق وملتقي عدة طرق، وفي أوقات كهذه عندما تندفع السيارات بالمئات.

وصلنا المستشفى وكان الشيخ محمد في انتظارنا وعرفته بالأخ محمود.. وبعد أن اطمأن الأستاذ التركي على صحة الشيخ محمد بن حسن، استأذن ليعود ثانية مع الدكتور المختص بالأنف والحنجرة مساء.. وبقي الشيخ يسأل محمود عن ابن أخيه عبدالرحمن ابن فضيلة الشيخ عبدالعزيز الذى يحضر رسالة الدكتوراه في جامعة أدنبرة أيضاً.. فقال له: إنه بخير، وإنه عازم على أن يأتي إليه يوم الجمعة.

حالة الجو:

كانت السماء تمطر رذاذاً مرة، وأخرى يتحول إلى مطر قوى مع رعد هادئ وبرق لايرى لضوء النهار، والجو بالنسبة إلينا جميل جداً لأننا نفرح ونبتهج برؤية المطر والغيوم، أما أهل لندن فيكرهون جواً كهذا.. وقد صدق شاعرهم كبلنغ رديارد الذى يقول: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا وإن كان بعض المستغربين يحاولون تكذيبه عبثاً رغبة منهم في التقارب مع العرب.

ولكن الشاعر العربي قد اتفق مع الشاعر الغربي في هذا الرأى فقال:

* فشتان بين مشرق ومغرب *

الغداء:

وأردت أن أؤمن لنفسي الغداء من (بقالة) قريبة، فخرجت ولكنى

رجعت بخفي حنين لعدم معرفتي بالمنطقة والطرق والشوارع.

ثم عهد الشيخ محمد بموضوع غذائي إلي الأخ محمود، فذهب وغاب قليلاً ثم عاد حاملاً معه أطعمة مختلفة، وكلها شرقية، أى مهيأة على الطريقة الشرقية كـ(لسنبوسك) و(المقلية) وبعض حلويات، وفي هذه الأثناء جاء ممرض من قبل المستشفى، فذهب الشيخ ورافقه الأخ محمود إلى قسم الأشعة.. وانتهزت فرصة وجودى منفرداً، وانتهيت من الغداء خشية أن يأتي مدير المستشفى ويلاحظ دخول هذه الأطعمة الغريبة فينزعج.

وبعدما يقرب من نصف ساعة، عاد الشيخ محمد إلى غرفته، وجاء الأخ عبدالكريم السعدون ورفاقه، وسأله الشيخ محمد عن وجود غرفة في العمارة التي هو فيها، فقال سأتأكد الآن. وأخذ التليفون واتصل بالعمارة التي فيها وبغيرها، وببعض من عرفهم أى أكثر من خمس جهات، ولكن دون جدوى، وكان هذا البحث من أجلي فشكرت الشيخ على اهتمامه بموضوع منامي.

وعندما جاءت الساعة الخامسة والنصف، استأذن الأخ محمود أسدالله في العودة إلي أدنبرة علي أن يعود مع الأخ عبدالرحمن بن الشيخ عبدالعزيز ابن حسن آل الشيخ يوم الجمعة.. كما انصرف الأخ السعدون مع زملائه قبل غروب الشمس.

مريض من السعودية:

وكان بالمستشفى مريض من أهل الرياض وهو شاب ومدير إحدى المدارس الابتدائية بالرياض.. يشكو ألماً في صدره، ولم تكن غرفته بعيدة عن غرفة الشيخ، وكأنه تضايق من الوحدة والغربة والألم، فجاء إلينا وقص علينا قصته، وأن الدكتور أخبره بعد الفحص أن معه نوعاً من الروماتزم وليس هناك أى خطر.. ومع ذلك فهو قلق وغير مرتاح من حياته هنا في

الغربة والمستشفى، كما أن الإجازة على وشك الانتهاء.. وبقينا نحن الثلاثة في الغرفة حتى حلول ظلمة الليل..

ثم جاء الأستاذ التركي علي حسب وعده وقال: إنه مر بالدكتور والتر وهو في انتظار طبيب الأنف المختص.

وبعد ١٥دقيقة جاء الطبيبان إلي الشيخ محمد، وتولي الدكتور والتر بالشرح لزميله عن حالة الشيخ محمد، وعن نتائج الفحوص التي أجريت وأنها والحمد لله سليمة.

ثم جاء دور الطبيب المختص بالأنف، وبدأ فحصه بالمنظار المكبر والكشاف داخل الأنف طويلاً مع الضغط على أماكن خاصة من الوجه وأرنبة الأنف وتحت العيون، وأخيراً قرر إجراء عملية الكي (في الحال).. وبالفعل أجراها وقال: لا حاجة إلي عملية أخرى.. وأن في إمكان الشيخ محمد أن يغادر المستشفى غداً.. وظل في الغرفة بعد انتهائه من عملية الكي برهة من الوقت ليرى أثر الكي، ولما اطمأن أن ليس هناك أى ألم أومضايقة عند الشيخ من جراء الكي، استأذن وخرج ووعد بإرسال تقرير عن نتيجة فحصه وما قرره من العلاج غداً عن طريق المستشفى.

نصيحة الدكتور والترجون

وهنأ الدكتور والترجون الشيخ على صحته، وأنها جيدة جداً والحمد لله. ونصحه الدكتور والترجون بتغيير الأجواء والقيام برحلة برية وجوية للتأكد من العلاج، فإن وجد أى أثر أوألم في الأنف ــ لا سمح الله ــ يعود ثانية إلى المستشفى لإعادة الكشف والمعالجة.

ثم خرج الدكتور قائلاً: إنه يعد التقرير اللازم ويسلمه للأستاذ التركي مع تقرير طبيب الأنف.

وكان الليل بدأ ينشر ظلامه، كما أن المطر لم يزل ينثر رذاذه، فاستأذن الأستاذ التركي بالخروج، وخرجت معه على أن أكون ضيفه كذلك هذه الليلة، وغداً نبحث مع الشيخ محمد عن فندق أوشقة.. وسهرت قليلاً مع الأستاذ التركي على إذاعة لندن العربية، وفي أحاديث من هنا وهناك، وبعد تناول العشاء والشاى أسبغ الله عليه من خير الدنيا والآخرة ـ نمت نوماً هادئاً..

استيقظت على عادتي مبكراً، ووقفت بعد الصلاة في النافذة أنظر إلي الشارع والعمارات التي أمامنا وبجوارنا.. فلا أرى إنساناً ولا أسمع حركة مطلقاً، سكون عام وصمت يسود البيوت والشارع.. والرذاذ مستمر في شكل غبار أوبخار، وبقيت لحظات أستمتع بنسيم لطيف يكاد لا يشعر به الإنسان من رقته ولطافته ورخاوته.. هذه لندن الصاخبة المزدحمة.. وقد هدأت الآن، وفي هذه اللحظات هدوءاً غريباً.. ورجعت بعد هذه الوقفة.. والاستمتاع بالهدوء إلى سريرى ونومي حتي دعاني الأستاذ التركي لتناول (الفطور).. فجئته داعياً له بمزيد من الخير والنعيم..

الخروج إلى المستشفى

ونزلنا إلي الشارع فإذا المطر قوى، وجوانب الشارع تجرى، ولبس الناس المعاطف المانعة للمطر، أوحملوا في أيديهم المظلات.. وأسرعنا بدخول السيارة هرباً من البلل، ولكن السيارة لم تتحرك من محلها، فتركها الأستاذ التركي وركب في سيارة ابنه خالد، وقصد المستشفى وأراد أن يبتعد عن صخب الشوارع الرئيسية وازدحامها وكثرة سياراتها، ويختصر ويسير من الطرق الفرعية..

فاشتبهت عليه الطرق، ولاحظت أننا مررنا بشارع (واترلو) وشارع كنجستن وشارع أكسفورد وشارع بريجنت وبكادلي، وهلبورن دون أن أعرف الاتجاهات أوالجهات الأصلية والفرعية.

وأخيراً سألنا جندياً من البوليس ولم يكن يعرف الشارع الذى نقصده، فأشار إلي ناحية إشارة من (لم يحفظ الدرس جيداً) وتطوع زنجي كان بجوار الشرطي أن يرشدنا إلي الشارع المقصود، ولكن تطوعه ظهر فيما بعد لم يكن لمصلحتنا أومساعدتنا، بل كان من أجل أن نقرب له الجهة التي يريدها، فركب معنا ولغته الإنجليزية عندما يتكلم بها كانت كإحدى اللغات الأفريقية، فلم أفهم من كلامه شيئاً.. ولست أدرى هل كان الأستاذ التركي يفهم ما يقول أواكتفي من التفاهم معه بلا ونعم.. وأخيراً عندما وصل إلى نقطة معينة أشار إلى جهة معاكسة ونزل يجرى إلى عمارة.. ولكن الأستاذ التركي قد عرف الطريق من هذه النقطة فمشى إلى غير الجهة التي أشار إليها الزنجي، واجتاز عدة طرق وسكك، ثم وصل إلى الشارع المؤدى إلى شارع سانت بنكراس، ومن هناك إلى المستشفي.

ووجدنا فضيلة الشيخ محمد بخير وفي انتظارنا.. وقال: إنه شعر في الليل بنوع من الألم في موضع الكي كما أحس بشيء من الصداع..

وإن الأمير متعب بن عبد العزيز زاره في الليل، ومكث معه عدة ساعات، ولولا أحاديثه اللطيفة معه، وسهره إلى جزء كبير من الليل، لشعر بسأم طول الليل وتراكم الأفكار من هنا وهناك.. ولكنه جزاه الله خيراً بقي للتسلية، وقال: لا أقوم حتى يغلبك النوم.. ولما قام من عنده لم يجد (تاكسياً)، فمشي علي قدميه.

استئجار شقة تليفونياً:

اتصل الأستاذ التركي بفندق أمبسى (EMBASSY) في الناحية الجنوبية الغربية من لندن، واتفق مع مديره على استئجار شقة مزودة بجميع وسائل الراحة والإقامة، وكانت في شارع (بيزووتر) (BAYS WATER) قريبة من حديقة هايدبارك.. وبعد أن أمن لنا الأستاذ التركي المسكن

استأذن وخرج، على أن يعود بعد الظهر للخروج من المستشفى والوصول إلى الشقة.

سكرتيرة مدير المستشفي:

وفي هذه الأثناء جاءت سكرتيرة مدير المستشفي، وهي إنجليزية لا يقل عمرها عن ٥٠ سنة، وقدمت للشيخ محمد كشفاً بحساب المستشفى الكامل، فدفع لها الشيخ ما في الكشف مع نفحة مناسبة.. فشكرته وخرجت وقالت عند خروجها: إن الدكتور جون والتر سيأتيكم بعد الساعة الثانية بالتقرير.

انتظار الدكتور والأستاذ التركي:

لم يبق هناك شيء يدعو لبقاء الشيخ في المستشفى سوى انتظار الدكتور والأستاذ التركي.

موعد الغداء:

وجاء ميعاد الغداء، ودارت الممرضة المختصة بعربة توزيع الطعام على جميع الغرف إلا غرفة الشيخ لم تعرج عليها، ولحقتها وهي ذاهبة إلي الغرف التي بعدها وسألتها: وأين غداء الشيخ؟ فسكتت ولم تجبني بشيء، ثم غابت وعادت، وكأنها سألت من هو أعلى منها ومرجعها، وزادت في كمية البطاطس المسلوقة التي كانت من نصيبي في الغداء..

الدكتور والتر:

وجاء الدكتور في ميعاده الساعة السابعة والربع، واعتذر عن التقرير وأنه لم يتم بعد، وإذا تم فسوف يسلمه للأستاذ التركي، وتمنى للشيخ صحة جيدة وعوداً حميداً إلى بلاده.

في انتظار الأستاذ التركي:

وبقينا نشاهد منظر السماء المدرارة، وجريان قطرات المطر في شكل

خطوط مستقيمة ومنحنية على زجاج النوافذ، ومشاهدة حركة الشارع، وهو شارع خاص بالمستشفى، وكانت حركته قليلة، ونحن في انتظار الأستاذ التركي ليوصلنا إلى الشقة.. وأخيراً وصل الأستاذ التركي في موعده المحدد مع السيد عمر الجفرى وفي سيارته..

خرجنا من المستشفي ونحن نقول: وداعاً لا رجوع فيه يا مستشفى بحول الله وقوته..

كان المطر مستمراً، والشوارع مزدحمة بصورة لا تتصور، لأنها ساعة خروج الموظفين، وأهل العمل من أعمالهم، وتعرف هذه الساعة عند القوم بـ(رش أور) ـ واختار السيد عمر لسيره إلى منطقة الشقة أى شارع (بيزوتر) غير الشوارع الرئيسية، ومع ذلك كانت الوقفات متتابعة. وأخذنا في الطريق إلى الشقة ما يقرب من نصف ساعة بالسير السريع..

وفي النهاية وصلنا العمارة (امبسى سويت) وكانت الشقة في الدور الرابع، والمصعد إلى الطبقة الثالثة. ثم نعرج بالدرج كدرج المآذن.

وكانت الشقة أنيقة، وهي عبارة عن غرفتين واسعتين بثلاثة أسرة ومزودة بجميع وسائل الراحة تليفون وتليفزيون ومطبخ بأدواته، وحمام كبير وثلاجة ومدفأ وتليفون خاص مهمته الكلام مع زائر يزورك فيتصل بك من عند الباب التابع للعمارة.. وإذا كنت تريده تضغط على زر بجانبه فيفتح له الباب الرئيسي الكبير.. ولا تحتاج إلى النزول إلى الباب، كما أن الزائر يستطيع أن يتأكد من وجود صديقه في شقته من عند الباب باب العمارة. ولا يحتاج للدخول أو الصعود بالمعرج إلى الشقة.

وصعدنا إلى الشقة ومكث معنا الإخوان الأستاذ التركي والسيد الجفرى برهة من الوقت، ثم استأذنا وخرجا، وقد اتفق الشيخ مع الأستاذ التركي على أن نقوم غداً بزيارة معالم لندن معه أو مع ابنه السيد خالد التركي.

التموين:

وأراد الشيخ أن يمون الشقة والثلاجة بكل ما يصلح ليكون (فطوراً) وعشاء وعجالة للضيف.. ولم يجد أحسن من الأخ عبد الكريم السعدون كي يقوم بهذه المهمة لأمور: لأنه يعرف البقالات القريبة، ولأنه شديد الحرص على ألا يشترى إلا الطاهر البعيد عن كل شك وشبهة، فخرج — جزاه الله خيراً — بقائمة المشتريات، على أن يعود بعد ساعة.. وبقينا مع التليفزيون ومناظره، وهو يبث براجمه على قناتين أوثلاثة أحياناً إحداها خاص بالأطفال..

وعاد الأخ السعدون بعد أكثر من ساعة، وهو ينوء بأنواع من (الكراتين)، وساعده في ذلك الأستاذ فائز الماردينى.. وازدحمت الثلاجة والمطبخ بالطيبات من الرزق والحمد لله.. ثم قام الأخ السعدون — قواه الله — بعمل الشاى كتجربة لما أتى به من السوق، فكان شاياً ظريفاً وأول شاى نشربه من صنع أيدينا وعلى (كيفنا)

جريدة الرياض اليومية:

وكان مما أتحفنا به الأخ السعدون مجلات وجرائد عربية من ضمنها جريدة الرياض اليومية، وقال إنها ترد أسبوعياً مع الطائرة السعودية، وتباع في مكتبة، وسألته عن أسم المكتبة وعن مقرها — فقال الأخ: لا أعرف اسم المكتبة ولا أعرف اسم الشارع الذى هي فيه.. فقلت: حسناً ذلك مما يجعلنا أن نعتمد في قراءتها عليك ولا نكلف أنفسنا بالبحث عنها في المكتبات..

وكم كان فرحنا شديداً برؤية هذه الجريدة وقراءتها وقراءة أخبار البلاد السعودية، وأخبار العاصمة الرياض.. ولفرحي بها قرأتها من ألفها إلى يائها مع الصفحة التي فيها أخبار الرياضة، مع أن أخبار الرياضة وكل ما يكتب عنها لا أميل إليها لبعدى عنها وعدم انسجامي بها..

وتمنيت أن تتفق بقية جرائدنا اليومية مع هذه المكتبة ولوبأعداد قليلة، ليستفيد بها من يحب الاطلاع على أخبار بلادنا، أوتبقى في المكتبة كأثر من آثار بلادنا العلمية..

تجوال مسائي:

ثم خرج الأستاذ فائز الماردیني وبقي الأخ السعدون يحدثنا عمن رآهم من السعوديين الأمراء وغير الأمراء في لندن، وعن سبب وصولهم إلى لندن، ومن دخل منهم في المستشفيات ومن خرج.. وعن مشاريعه وأنه عازم على إتمام دراسته الجامعية في جامعة سانت باربرا بولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة (وباربرا جزيرة غربي لوس انجلوس).. وأخيراً قال له الشيخ: لنخرج فالأحاديث لا نهاية لها، ونستطيع أن نتحدث ونحن نسير..

ونزلنا إلي الشارع فإذا المطر مستمر، وركبنا سيارة (تاكسى) وقال الأخ السعدون للسائق: إلي شارع أكسفورد.. حيث نزل الأخ السعدون للبحث عن المكتبة التي تباع بها المجلات والجرائد العربية.. وبقينا في السيارة، ولما طال انتظارنا للأخ أخذ السائق يبدى ملله، ونحن كذلك بدأ الملل يتسرب إلينا من دورات عداد السيارة.. وأخيراً فكرنا أن نعود إلى الشقة، وقلت للسائق: إلي «بيزوتر» وفي هذه اللحظة جاء الأخ السعدون وهو يجرى.. واعتذر بأنه أضاع الطريق، فذهب يمنة وكان المفروض أن يأتي يسرة..

وسأل الشيخ الأخ السعدون: هل عنده عنوان الأمير متعب بن عبد العزيز؟

فقال: نعم. إذن اذهب بنا إلى سموه لنزوره..

وعرض الأخ السعدون عنوان سموه على السائق، فعرف الحي والعمارة، ودار بناء عدة دورات في شوارع ضيقة ثم أوقفنا على عمارة كبيرة في حي جميل وقال: هذه هي العمارة التي تريدونها.

وكان مدخلها وممراتها يمثل مداخل قصر من قصور الأمراء، وأشار لنا البواب إلى جناح ناحية اليمين، فتقدمنا إليها ووجدنا علي باب الجناح خادماً أسود يرتدى ثوباً ملوناً من ثياب بدو الحجاز، فسلمنا عليه ورحب بنا ضاحكاً، وأدخلنا إلى غرفة كبيرة حيث استقبلنا شاب اعتبرناه من خاصة الأمير متعب، ولكن الحقيقة ظهرت بعد أن جلسنا معه وتحادثنا.. فقال: إنه ولد الشريف بن ثواب أمير المضيق، وجاء إلي لندن مرافقاً لأبيه الشريف الذى جاء للاستشفاء، وأن سمو الأمير متعب عندما سمع بوصوله زاره وأفرغ له هذا الجناح الخاص بنفر من أسرته، وكان والده نائماً علي سرير.. وبعد أن جلسنا مع ابن الشريف لحظات من الوقت وشربنا الشاى، سألناه عن الأمير هل يأتي أم له بيت آخر؟ فقال: نعم يأتي ولكن لا أدرى عن مواعيده.. ثم سألنا خادماً من خدم الأمير كان في المكان فقال: لا يأتي إلا متأخراً، فكتب له الشيخ ورقة وعدنا إلى الشقة في سيارة لبعد المسافة، ووجود الرذاذ، وبعد سهرة قصيرة مع التليفزيون نمنا، وكان الجو أقرب إلي البرد بالنسبة إلينا..

أصبحنا يوم الخميس ١٤/٥/١٣٨٨هـ ٨/٨/١٩٦٨م والسماء مكفهرة بالغيوم، وشآبيب الرذاذ مستمرة، وكان الوعد بيننا وبين الأستاذ التركي أن يأتينا أويرسل ابنه السيد خالد ليخرج معنا إلي بعض الأماكن التي تستحق المشاهدة.. ولكن مشكلة المواصلات لا سيما لمن يسير بسيارته من أكبر المشاكل التي تعرض الناس لخلف الوعد والتأخير وعدم الوصول في المواعيد المحددة، وربما يكون الإنسان الذى يعتمد في مواصلاته علي القطارات التحتية «تحت الأرض» أسرع ممن يستعمل سيارته..

ولما طال انتظارنا فكرنا في الخروج وحدنا إلى حديقة الحيوان، وعندما هممنا بالخروج جاء الأخ خالد التركي، وجاء بعده الأخ السعدون منتدباً من معالي السفير السعودى بأنه سيزور الشيخ محمد اليوم في الساعة الخامسة

والنصف بتوقيت لندن، وبمناسبة هذا الوعد طلب الشيخ من الاخ خالد ألا يذهب بنا بعيداً لنعود إلى الشقة قبل الوعد..

متحف المدام تيسو ومسرح النجوم:

قال الأخ خالد التركي: ليس هناك مكان أقرب إلي محلكم من «المتحف الشمعي» لمدام تيسو ومسرح النجوم، فزائر المتحف الشمعي كأنه ـ في المدة التي يقضيها فيه ـ يعيش مع التاريخ الأوربي في مختلف أدواره، ومع شخصيات أوربية وأخرى عالمية، ومع بعض الحوادث التاريخية في القرون الوسطى.

وزائر مسرح النجوم تتحول لحظات نهاره التي يجلس فيها في المسرح إلى ليل دامس، ويشاهد مناظر النجوم والكواكب السيارة، والشمس والقمر، والكسوف والخسوف، وظهور المذنبات والبروج الفلكية، وانطلاق الصواريخ والأجرام الفضائية الصناعية.. ويتناسى الإنسان أنه في النهار، بل يظن ـ إذا ما اعتقد نسياناً وسهواً ـ أنه في الليل..

وخرجنا مع الأخ خالد في سيارته إلي شارع أكسفورد، ومنه إلي شارع بيكر نحو الشمال، ومن ثم خرجنا من طرقٍ جانبية على شارع مارى ليبون الذى به متحف المدام تيسو الشمعي ومسرح النجوم.

عند مسرح النجوم: (بلانتيريم Planetarium

وقفنا في طابور عند مدخل المسرح، وبالرغم من وجود الرذاذ كان عدد زوار المسرح يبلغ المئات، وكلهم يسيرون في صف والقطر الهادئ ينزل علي رءوسهم.. وذهب الأخ من ناحية أخرى وقطع لنا التذاكر ـ على الطريقة المألوفة لدينا وغير مألوفة لدى القوم ـ وأخذنا بعدها من الطابور إلى المدخل والباب فالصالة المدورة، حيث يجتمع الداخلون ويقفون في انتظار خروج الدفعة الأولى من المسرح..

بعض معلومات عن هذا المسرح :-

ومن المستحسن أن أشغل فترة الانتظار في إيراد نبذة عن هذا المسرح لمن لم يره : فهو عبارة عن صالة كبيرة في الطبقة الثانية من المبني على شكل دائرى ، عليها قبة كبيرة خضراء اللون من خارجها ، وطول قطر هذه الصالة المدورة خمسون قدماً . وفي وسطها جهاز جبار يتألف من ٢٩٠٠٠ قطعة عاملة ، و ٢٠٠ كشاف من أقوى الكشافات ، ومهمة هذه الكشافات إرسال شعاع قوى إلي الجهة المراد عرضها علي الحاضرين من سقف القبة لتصوير منظر الفضاء والنجوم .

وابتدأت فكرة هذا المسرح النجومي من سنة ١٩١٣م (١٣٣٢ هـ) بإقامة أنموذج صغير للنجوم والكواكب من قبل مدير أحد المتاحف ، واستعان في ذلك بشركة زايس الألمانية المشهورة في صناعة العدسات ، ثم جاء الدكتور — (بوئرس فلد) ووضع أساس تصميم هذه الآلة الجبارة سنة ١٩١٩ ... (١٣٣٨ هـ) واستخدم للتصميمات الفنية والهندسية لهذا المسرح والجهاز العظيم ٦٠٠ ورقة كبيرة من أوراق التصميمات الهندسية .. واستعان في إنجاز مشروعه بعدد كبير من المهندسين والفنيين والاختصاصيين في البصريات والكهرباء والميكانيكا مدة خمس سنوات ، وقدرت تكاليف هذا الجهاز العلمي الدقيق ٧٠٠٠٠ جنيه استرليني .

ولم يكن المشاهدون في أول الأمر يشاهدون من مناظر النجوم إلا ما هو فوق النصف الشمالي من الأرض ، أما الجزء الجنوبي فكان بعيداً عن التصوير والعرض ، ثم اشترك الدكتور بوئرس فلد مع الدكتور وليجر ووضعوا تصميماً جديداً للجهاز بإضافة آلات جديدة أمكن من بعدها رؤية أى جزء من الفضاء ، وصور النجوم والشمس والقمر من أى بقعة من الأرض ..

وقدر عدد زواره في ١٨ شهراً بـ ٨٠٠٠٠ شخص ، ويظل مفتوحاً كل يوم في الأسبوع من الساعة ١١ إلى ٦ بتوقيت لندن ، إلا يوم الأحد فيفتح من

الساعة الواحدة إلى السادسة. ورسم دخوله للكبار ٦/٤ شلنات والأطفال ٦/٢.

ثم سمح للواقفين بالصعود إلي الصالة العليا المدورة، وبدأ الإنسان يشعر بالظلام من الدرج، وعندما وصلنا إلي باب الصالة شعرنا بأننا في الغلس ــ أى في ظلمة آخر الليل أوقبيل الفجر ــ والنجوم تتلألأ فوقنا وشعرنا ببرد ماقبل الفجر، ونفحات النسيم اللطيف الهادى، مع أن القبة ليس بها منافذ ومصنوعة من صفائح فولاذية.. ويقود كل جماعة من الداخلين أحد القائمين بشئون المسرح، ويوصل كل واحد إلي الكرسي المخصص له في البطاقة بالأرقام. في صفوف دائرية، وكثير من الأطفال الصغار عندما رأوا هذا المنظر ناموا بجوار آبائهم.

وتذكرت بجلوسي في الظلام جلسة جلستها ذات ليلة في قهوة صالح المداس في الطائف، وكنا ليلتئذ راجعين من أبها، فصعدنا إلى سطحها للاستمتاع بالهواء البارد، ومنظر السماء الصافية، والنجوم المتلألئة قبل آخر الليل، تذكرت تلك الجلسة وأنا في هذا المسرح..

وعندما تكامل الناس في الصالة وأخذ كل منهم مجلسه، وهم يعدون بالمئات في صمت وسكون، كأن على رءوسهم الطيور لا الطير.. وأخذنا ننظر فوق رءوسنا النجوم والمجرة والثريا وبنات نعش الكبرى والصغرى والكواكب السيارة والبروج الحمل، الثور، والجوزاء... إلخ.

ثم بدأ المذيع بصوت واضح في شرح الوقت والمنظر، وإعطاء الحاضرين فكرة عامة عن المسرح العلمي، ثم أخذ يشرح بواسطة الجهاز والكشافات سير النجوم وحركة الكواكب.. وعندما بدأ في شرح حركات الكواكب السيارة عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل، صعد سهم ضوئي أخضر اللون من ناحية الأفق إلي مكان الكوكب ليدرك الحاضرون أن المذيع سيتكلم عنه، فيلتفت الجميع إليه مراقبين حركة السهم..

وبعد دقائق تغير المنظر والوقت، فصار كمنظر الأرض بعد غروب

الشمس فانتشر الشفق الأبيض في الناحية الغربية، وأخذ الظلام يعم ويتقدم من الشرق، وتحول بعد دقيقة الشفق الأبيض إلى أحمر ثم زال وحلّ الظلام، وبدأت النجوم تظهر تدريجياً.. وبدأت المجرة، والشهب تنزل يمنة ويسرة تاركة وراءها خطأً من الضوء.. ثم مثل للخسوف والصواريخ والأجرام الصناعية المرسلة إلي الفضاء، وكيف تدور في الفضاء وكيف ترسل إشاراتها إلي الأرض...

ويأخذ المنظر ثانية في التحول شيئاً فشيئاً من نصف الليل إلي ما قبل الفجر، فينشر الضوء في الشرق، وتظهر الأشعة الصفراء وتبدو في الأفق من ناحية الشرق رءوس العمارات المرتفعة.

وتستمر الجلسة أربعين دقيقة، ثم يطلب من المشاهدين مغادرة المكان في هدوء وصمت، وجلوسنا في هذه المناظر الليلية جعلنا نتناسي أننا في وضح النهار، بل شعرنا بأننا في العراء قبل الأسفار، وعندما نزلنا إلي الطابق الأول كان الوقت بعد الظهر، والدنيا تموج بالحركة والصخب، ومن معرض النجوم تقدمنا إلي: المتحف الشمعى لمدام تيسو (M. Tissaud's.): ودخلنا كذلك بالطريقة الأولى إلى الصالة الكبيرة حيث يقف الداخلون في انتظار نزول الخارجين.

وتاريخ هذا المتحف يرجع إلي ٢٠٠ سنة تقريباً حيث وضع أساسه الدكتور كريتوس بصنع نماذج بشرية كوسائل للإيضاح لتلامذته في الطب في باريس، واطلع عليها أحد الأمراء الفرنسيين، وكان مغرماً بالفنون الجميلة وجمعها وعرضها علي الجمهور في شكل متحف، ولاقي إقبالاً كبيراً منهم، ثم جاءت المدام تيسو وهي بارعة في النحت والتصوير، ونقلت هذا المتحف إلي لندن، وأضافت إليه مجسمات للشخصيات التي قتلت في الثورة الفرنسية.. وبقي المتحف ينمو حتى وصل إلي الحالة التي هو فيها الآن...

وبدأنا جولتنا برؤية منظر الثورة الفرنسية والمقصلة، وغرفة أجريت فيها

عملية بتر رأس إحدى الشخصيات بالفأس، ثم انتقلنا إلى قسم الملوك ورؤساء الدول، وخرجنا وكأننا في حلم.

معالي السفير السعودى يزور الشيخ محمد:

كان ميعاد زيارة معاليه للشيخ محمد مقرراً ــ كما بلغه الأخ السعدون ــ بالساعة الخامسة والنصف بتوقيت لندن، وما إن حل هذا الميعاد إلا ورن جرس التليفون الخاص بالباب فاتصل به الشيخ وكان المتكلم الأخ السعدون من عند باب العمارة يخبر الشيخ بوصول معالى السفير الشيخ عبدالرحمن الحليسي، فضغط الشيخ علي الزر وفتح لهما الباب الخارجي للعمارة، وتقدم إلي الدرج لاستقباله والترحيب به، والدخول به إلى الشقة، وبعد أن انتهى دور التحيات والترحيبات وتبادل الأشواق أبدى معاليه أسفه على عدم مقابلته في السفارة، وعدم تمكنه من العيادة فى المستشفى.. وسأله عن نتيجة الاستشفاء وأنه كان دائم السؤال عنه..

ثم تطرق الحديث بين معاليه والشيخ إلي سوالف قديمة عن شخصيات في نجد، كالشيخ عمر بن حسن عندما جاء لندن للاستشفاء، والمرحوم عبدالله السعدون والد الأخ عبدالكريم السعدون حاضر الجلسة وغيرهم.

كنت أسمع عن أخلاق معاليه الفاضلة من الناس، وممن لهم صلة به، واليوم شاهدته بنفسي ورأيت تواضعه و«بساطته» برغم مركزه الكبير، وثقافته العالية، وكنت أستمع لأحاديثه مع الشيخ وأنا أردد في نفسي قوله صلي الله عليه وسلم: «خياركم أحسنكم أخلاقاً» كما كنت أقارن بينه مع علو مركزه في المجتمع والحقل الدبلوماسي، وبين بعض الرؤساء ممن هم أقل منه بدرجات، ومع ذلك تتجلي عليه آثار «النفخة الكاذبة» بأجلي معانيها، مع استعمال ضمير الجمع في كل كلمة وجملة..

ولله في خلقه شئون..

ومكث معاليه مايقرب من نصف ساعة، وعند قيامه للخروج دعا الشيخ لتناول الغداء معه يوم الأربعاء القادم. وإلى هنا انتهت زيارة معاليه للشيخ..

أهلاً وسهلاً:

ولخلو بعض أجزاء الثلاجة اضطررنا لزيارة السوق والوصول إلى شارع كوين ماري، ودخول بقالة صاحبها يوناني، ولما سمع كلامنا ونحن نتكلم مع بعض التفت إلينا تاركاً «زبائنه» جانباً وقال: أهلا وسهلاً، فاستغربنا هذا الترحيب في بقالة بلندن، وسأله الشيخ محمد عن الرقاق التي تؤكل في الفطور سأله باللغة العربية بناء علي سماعه منه ــ أهلاً وسهلاً، فأسقط في يده وصار يضحك، وهنا عرفنا أنه ما عرف من العربية إلا أهلاً وسهلاً.. وبقي يردد هذه الكلمة كلما سألناه عن شيء واشترينا منه ما نحن في حاجة إليه من زبد وجبن وبيض وحليب ورقاق، ثم رجعنا إلي الشقة وعمرنا الثلاجة بما أتينا به من البقالة.

إلي الأمير محمد بن سعود الكبير:

وأحب الشيخ أن يقضي أمسية النهار في زيارة الأمير محمد بن سعود الكبير، فقد سمع أن سموه يحب الاجتماع به، فاستحسن الشيخ أن يسبقه بالزيارة، ووصلنا إلي فندقه وهو فندق «لندن» واتصلنا بمأمور الاستعلامات، وهو بدوره اتصل بالمسئول عن الطابق الذى فيه سموه تلفونياً، ثم أبدى أسفه بأن الأمير غير موجود، فكتب له الشيخ ورقة وتركها عند مأمور الاستعلامات..

هلتون لندن:

وكان فندق هلتون قريباً من هذا الفندق الذى كنا فيه، فدفعنا حب الاستطلاع إلي دخوله، وكانت صالته كأنها حي من الأحياء، جمع بين مكان واسع لجلوس النزلاء وزوارهم، والمراجعين ومعارض للأزياء والتحف

المتنوعة، وأقسام خاصة لبيع المجلات والجرائد والكتب، ومكاتب لعدة وكالات للخطوط الجوية والبواخر، وفروع تجارية للصيرفة، ومقهى ومطعم وغير ذلك مما لم نره، وقد أعجب الأخ السعدون بتحفة صغيرة جميلة الشكل فاشتراها كتذكار، وتطوع كذلك بسؤال مكتب الاستعلامات عن أجرة السرير فقال الموظف المختص: بـ ١٤ جنيهاً استرلينياً.

وكانت الصالة تعج بالنزلاء الشرقيين والغربيين والإفريقيين السود والبيض وغيرهم..

إلى الشقة:

وعند عودتنا إلى الشقة وجدنا عند فناء العمارة الإخوان: الشيخ عبدالرحمن وأخاه عمر، أبناء فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن حسن، والأخ محمود أسدالله، وقد قدموا من أدنبرة للسلام علي عمهم الشيخ محمد، ففرحنا بهم وأسرعنا في الصعود إلى الشقة لأن المطر كان مدراراً..

وأبدى الإخوان رغبتهم الأكيدة في أن نزور سكوتلاند وعاصمتها أدنبرة، حيث يدرسون، وأن تكون الرحلة في سيارة الشيخ عبدالرحمن، ولم يسع الشيخ محمد إلا استجابة طلبهم رغبة في البقاء معهم برهة من الزمن، وتنفيذاً لرغبة الدكتور أونصيحته، في أن يجهد نفسه بالرحلات البرية والجوية كتجربة.

رز بخارى:

كان المفروض أن نخرج إلي أقرب مطعم للعشاء، ولكن الإخوان عندما رأوا الثلاجة ملأى بالطيبات أحبوا ــ برغم سهرهم طول الليل في قطع ما يقرب من ٧٠٠ ميل بين أدنبرة ولندن ــ أحبوا أن يهيئو العشاء بأنفسهم، وشمر الاثنان عبدالرحمن ومحمود عن سواعدهما لإعداد ــ (رزبخارى).. وليس غريباً أن يدفعنا الحنين إلي أكلة شعبية لم نرها منذ أن وطأت أقدامنا

بلاد الغرب.. ومنذ أن بدأنا في تناول الطعام بالمكاييل والمقاييس والمقادير.. وازدهر المطبخ وأدواته بنشاط الأخوين، وتضوعت روائح قلي اللحم والسمن الصناعى من نافذته وبابه، ولا ندرى هل كانت الروائح ــ بالنسبة إلي جيراننا في الشقة ــ روائح يسيل لها اللعاب أم روائح «تُلعب القلب» ولم نفكر في شيء كهذا وغفر الله لنا إن كنا آذينا الجيران بتلك الروائح.

وبينما كان المطبخ يؤدى عمله على أحسن ما يرام، طرق باب الشقة طارق، ولما فتح الباب إذا برجل يرتدى ثوباً وطاقية ــ وكلاهما كانا في حاجة إلى علبة برسيل ــ وقد عرفه الشيخ أنه تابع لأحد الأمراء سابقاً، وسمع بالشيخ فجاءه زائراً جزاه الله خيراً.. وقد ذكرلي الشيخ اسمه الكريم، ولكن الذاكرة لم تسعفني بحفظه.. وفهم الشيخ من حديثه أنه نزل مع أحد السعوديين في العمارة التي كنا فيها..

واستأنسنا بأحاديثه الشيقة، وعرفنا أنه شاعر مجيد من شعراء النبط، وأنه اتصل بالإذاعة البريطانية بواسطة معالي السفير، وسجل عدة قصائد نبطية ممتازة، إحداها جمع فيها انطباعاته عن لندن، والحياة في لندن، وبالرغم من أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، قرأ على الشيخ القصيدة وهي في أربعين بيتاً تقريباً وكأنه يقرأ في ورقة لا يتلعثم ولا يتلكأ، وقال إنه قدم قصيدة سياسية بها بعض انتقادات، فلم يوافقوا علي تسجيلها، بل طلبوا منه بدلاً منها حديثاً عن زيارته الأولي للندن، فسجل لهم حديثاً ــ وأعاده علينا ــ فهو حديث مسجَّع كأنه مقامة من المقامات.

وعلي العموم استمتعنا في لندن بشعر نبطي ممتاز، ونثر نبطي رائع، ثم استأذن الشيخ ونزل إلي محله، ودعاه لتناول العشاء فاعتذر بأنه لم يصعد إليه إلا بعد أن قام من المائدة.

وجاء إلى الشيخ وهو يودع الأخ الشاعر، زائر آخر وهو الأخ فهد بن

سويلم زميل الشيخ في الدراسة، فرحب به وتعانقا وجلس مع الشيخ وقتاً غير طويل، وقص علي الشيخ رحلته في بعض بلدان أوربا، وأنه جاء إلي لندن لاستشارة بعض الأطباء، وأنه يبحث عن أدوية قرأ عنها في المجلات والجرائد.

ولما سأل بعض الصيدليات المعتبرة عنها قيل له: إن ما قرأه صحيح إلا أن أسواق بريطانيا لا يوجد فيها شيء من ذلك، لأن النظام هنا لا يسمح بتعاطي أى دواء يظهر ويعلن عنه إلا بعد أن تقوم معاملها الطبية التابعة لوزارة الصحة بفحصه وتجربته، ثم يسمح به أويمتنع علي حسب ما تأتي به التجارب المحلية.

وسأل الشيخ: هل يريد الخروج بعد هذا الوقت؟ فقال له من باب الاستغراب: وهل هناك خروج بعد هذا الوقت؟ وعندئذ تأكد الأخ فهد أن الشيخ لا يغادر الشقة واستأذن للخروج فاستمهله الشيخ لتناول العشاء، ولكنه اعتذر كسابقه بأنه تعشى في مطعم عربي في شارع كذا. وخرج..

العشاء:

وانتهي الإخوان من إعداد الرز البخارى أوشبهه مع سلطة البدنجان الأحمر، ودفعنا بالكراسي والخوان الخشبي جانباً، وبسطنا السماط العربي علي الأرض.. وبرغم ضيق المكان جلسنا حول السماط جلسة عربية من غير ترتيب أوتنسيق، كان المهم فيها أن تصل اليد إلي صحن الرز واللحم..

ولم نستعن في الأكل إلا بالملعقة، أما الشوكة فأبعدناها نهائياً..

وفي تناول هبرة اللحم كانت تستعمل الأصابع والأسنان.. ولم نقم من المائدة إلا وكل واحد تلمع أصابعه وشفتاه بالدهن المحمر.. وكان عشاء ــ والحمد لله ــ لذيذاً شهياً، وكان الأكلة كما قال كشاجم:

فلو رآها عابد أو مجتهد   أفطر مما يشتهيها وسجد

وقد حمدنا الله تعالي علي ما رزقنا وسقانا وجعلنا من المسلمين..

وفي أثناء تناول الشاى، كان الإخوان القادمون يفكرون ويتكلمون في الاتصال بأحد الفنادق التي يعرفونها للمبيت، وأن يأتوا إلينا غداً مبكرين.

فلم يوافق الشيخ على فكرتهم هذه، بل طلب منهم البقاء في الشقة فهي والحمد لله واسعة لا تضيق بهم، وكما قيل: «سم الخياط من الأحباب ميدان».

فوافق الإخوان على المبيت معنا، ثم رتبوا برنامجاً للرحلة، وأن الأخ محمود يتصل غداً من الشقة ـ أى تليفون الشقة ـ بأدنبرة، والمسافة بين البلدين كما قلت ـ ٧٠٠ ميل تقريباً، ويتفق فى أدنبرة مع صاحب الفندق الذى يسكنه ليحجز لنا غرفة مناسبة، لأن وصولنا إلى أدنبرة سيكون بإذن الله عند منتصف الليل، وفى هذه الساعة قد لا نجد محلاً فى الفنادق.. أما هذا الفندق فمفتاحه مع الأخ، يستطيع أن يفتح بابه الخارجى فى أى وقت يشاء..

ومن برنامج الرحلة أن نمر بمدينة «كمبرج» العلمية.. ومعنى هذا أن الطريق سيطول.. وأننا لا يمكننا الوصول إلي أدنبرة إلا بعد منتصف الليل، وكان الإخوان يريدون من الشيخ أن يمكث هناك يومين علي أقل تقدير، فلم يوافق إلا لقضاء يوم وليلة مع ساعات الليلة الأولي. وبعد رسم خطة الرحلة، وتناول الشاى نمنا، وظل المطر مستمراً الليل كله دون صوت أورعد أوبرق..

وبقيت شمس يوم الجمعة ١٥ / ٥ / ١٣٨٨هـ ٩ / ١٩٦٨م محتجبة وراء الغيوم التى لم ينقطع رذاذها أومدرارها، وتناولنا الفطور مستعجلين، ثم توكلنا على الله، وبدأنا في تنفيذ برنامج الرحلة، فاتصل الأخ محمود تليفونياً بالفندق الذى يسكنه بأدنبرة، وأخبر مدير الفندق أننا سنكون عندهم بعد

منتصف الليل، وطلب منه رقم الغرفة التي يحجزها فربما لا نجد آحداً في تلك الساعة المتأخرة يرشدنا إليها.. فقال له مدير الفندق: إن رقم الغرفة المحجوزة هو« ١٤» كنت أستمع لهذه المكالمة وهذه التسهيلات، وأتمنى أن يعجل الله بمشروع الهاتف الآلي الذى بدأت به وزارة المواصلات السعودية، ويتممه بخير لنتمكن من الاستفادة بسرعة الاتصال بالقريب والبعيد، كما هي الحالة هنا في الغرب، إذ لم يعد هناك شيء بعيد بواسطة هذه التليفونات الأوتوماتيكية، فقد تم حجز غرفة في فندق علي مسافة ٧٠٠ميل في دقائق معدودات.. كان هذا.

ونزلنا من الشقة إلي فناء العمارة حيث كانت سيارة الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، وأسرعنا في الدخول إليها هرباً من الرذاذ الذى تحول إلي مطر غزير.. وأحكمنا إغلاق الزجاج.. وتولى الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز القيادة.. وعندما خرجنا إلى الشارع العام وجدناه مزدحماً بالسيارات التي تعد بالمئات، وفكر الأخ عبدالرحمن أن متابعة السير في هذا الشارع يستغرق وقتاً طويلاً، ونحن في حاجة إلى الوقت..

فعدل عن الشارع العام إلي الطرق الفرعية، وكان الأخ محمود لكثرة تردده على لندن يعرف الطرق الفرعية معرفة تامة، فبقي كمرشد للأخ عبدالرحمن عندما تشتبه عليه الخطوط، وإذا اشتبه الأمر على الأخ المرشد أيضاً استعان بخريطة الطرق التي كانت معهم، وكان اتجاه السير نحو الشمال الشرقي، ولم نخرج من منطقة لندن وعماراتها وشوارعها إلا بعد ثلثي ساعة تقريباً، ومررنا بعدها بضواحي لندن الجميلة، بمناظرها الطبيعية، فيلات صغيرة تحيط بكل منها حديقة صغيرة منسقة بالأشجار ذوات الأزهار المختلفة الأشكال والألوان.. والمياه تنساب في جداول طبيعية تكون في بعض المحلات بحيرات صغيرة أوشلالات، وبعد هذه الضواحي خرجنا علي طريق زراعي يؤدى إلى قرى ومدن في الشمال والشرق والغرب، عند كل منعطف تجد لوحة توضح اتجاهات الطرق المختلفة، وعند كل قرية سواء

كانت على الطريق أم بعيدة عنه تجد اسمها في لوحة كبيرة.

إلى مدينة كمبرج Cambridge

.. في طريقنا إلى مدينة كمبرج (Cambridge): أول مدينة مررنا بها: هى بيكونزفيلد (Beacons Field.) وتقع على نهر (وائي) (WEY.) في منطقة جميلة، وهي مركز هام للمواصلات البريدية، كما أن أهميتها زادت بعد فتح الطريق الزراعي للسيارات الذى كنا نسلكه اليوم، لأنه يؤدى إلي مدينة أكسفورد العلمية، والسيارات لا تنقطع عنها ليلاً ولا نهاراً.. ولأهمية هذه المدينة أعطي السياسي البريطاني بنيامين دزرائيلي (Benjamin Disraeli.) سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ) لقب شرف (ارل اوف بيكونزفيلد) (Earlof Beaconsfield)

وتقدمنا عن هذه المدينة إلى مناطق أخرى وقرى كثيرة، نقرأ أسماءها على اللوحات، أما مناظر الطريق فقد بقيت كما كانت أشجار مزدهرة بأنواع من الزهور، تقف كالسياج علي جانبي الطريق، ومياه الأمطار المستمرة تنحدر يمنة ويسرة عن خط الأسفلت إلي ناحية الأشجار، مكونة من الطرفين جداول صغيرة، ويبقي الطريق نظيفاً شبه جاف تجرى عليه السيارات غادية ورائحة.

ثم شاهدنا عمارات (مدينة سانت البانز) (S. ALBANS) وكنيستها ذات السقوف العمودية، وسميت هذه المدينة على اسم القديس البانز الذى قتل في هذا المكان في سبيل عقيدته في أواخر القرن الثالث الميلادى، علي مرور الزمن اعتبره أتباعه قديساً وشيدوا له قبراً وكنيسة، ومنذ ذلك الحين عمرت الأراضي التى حولها وأطلق عليها هذا الاسم..

وبعد أن ابتعدنا عن لندن ٣٠ ميلاً ــ كما كانت تشير لوحة المسافات ــ وصلنا مدينة (ليوتن) (LUTON) وهي من مدن إقليم (بدفورد) وعماراته تبدو مرتفعة عن مستوى الأرض التي حولها، لأنها تقوم علي تلال «تشلتر»

وهي من المدن الصناعية ومشهورة بمنتجات « القش » وفي مقدمتها قبعات القش . .

سيارات بدفورد :

ثم دخلنا منطقة (بدفورد) وقاعدتها مدينة بدفورد ، وعندها تذكرت سيارات النقل الكبيرة التي وردت لأول مرة إلى المملكة العربية السعودية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان يسميها بعض السواقين بيت فور، وكان أحد الاخوان يتفكه بإرجاع كل اسم إفرنجي إلى أصل عربي فسئل عن «بدفورد» وما أصله بالعربية فقال: «بيد فورد» أي أنها صنعت بيد فورد . .

وبعد أن اجتزنا مسافة غير قصيرة مررنا بمدينة بدفورد قاعدة المنطقة ، وتبعد عن لندن ٤٩ ميلاً ، وتقع في أخصب واد شمال نهر « أوس » ومشهورة بصناعة السيارات والأدوات الحديدية والنحاسية ، كما هي مركز هام للإنتاج الزراعي .

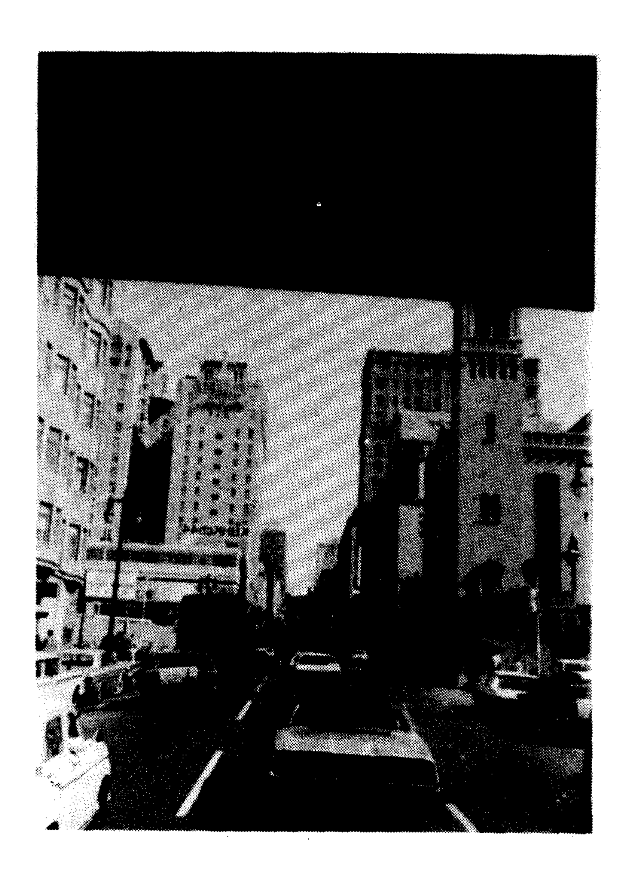
ومن هذه المنطقة دخلنا منطقة « هرت فورد شائر » ورأينا عمارات عاصمتها هتشن من بين الأشجار، تتخللها مداخن المصانع ، والمدينة مشهورة بإنتاج أنواع من الروائح العطرية ، روح النعناع . .

وأخيراً وصلنا منطقة كمبرج أو « كيمبرج شائر » وهي منطقة كبيرة جداً ، وعاصمتها مدينة كمبرج العلمية التي دخلناها بعد دقائق معدودات ، وتبعد عن لندن ٥٦ ميلاً .

ومساحتها ٧/١٥ ميلاً مربعاً وسكانها علي حسب إحصاء عام ١٩٣٨ — ٧٨١٨٠ نسمة ومعظم المدينة تقع على الشاطئ الشرقي لنهر « كام » المتفرع من أوس ، ويعد نهر كام الذى يخترق المدينة من الشمال إلي الجنوب وسيلة كبيرة من وسائل المواصلات بين شرق إنجلترا والمدن الوسطى .

أما جامعتها ، أى جامعة كمبرج ، فهي إحدى جامعتي بريطانيا

المشهورتين: أكسفورد وكمبرج، وأكسفورد وإن كانت أقدم من جامعة كمبرج إلا أن بعض الأقوال تحب أن تثبت أقدمية كمبرج عن زميلتها.



وكمبرج كجامعة لم يتم ازدهارها إلا سنة ١٢٠٥ م، (٦٠٢ هـ) عندما تعطلت الدراسة مؤقتاً في أكسفورد، وأول كلية تأسست في جامعة كمبرج هي الكلية التي تعرف إلي الآن باسم «كلية القديس بطرس» سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ)، ثم تدرج في إنشاء الكليات علي حسب الاحتياج والإمكانات المالية، حتي بلغ عددها الآن ٢٠ كلية، منها كليتان للبنات، وإلي سنة ١٩٤٧ م (١٣٦٧ هـ) لم يكن يسمح فيها للطالبات بنيل الدرجات العالية، ثم سمح لهن.

وتتبع الجامعة مكتبة كبيرة ومتاحف وحدائق واسعة، ونظام التعليم فيها يجمع بين طريقة المحاضرات والإشراف الشخصي علي الطالب..

إلي منطقة الكليات:

واقترب الأخ عبدالرحمن آل الشيخ بسيارته إلي منطقة الكليات لمشاهدة بناياتها ــ علي أقل تقدير ــ وللبحث عن موقف للسيارة.

عداد موقف السيارات:

مواقف السيارات في الشوارع الرئيسية ـفي معظم أوربا ـ مزوّدة بعدادات، ولا يستطيع صاحب سيارة أن يقف بسيارته إلا عند هذه العدادات، وإلا اعتبرت مخالفة يستحق صاحبها الجزاء المادى، والعدادات عبارة عن أعمدة قصيرة في أعلاها عدادات، وإذا أراد أحد أن يوقف سيارته عنده وضع أولاً شلناً واحداً في ثقب العداد، ثم يوقفها عنده لمدة معينة، وإذا انتهت المدة وجب عليه أن يضع شلناً آخر، إذا كان يجب أن يستفيد من الموقف.. وإذا لم يضع شلناً، اشتغل بالعكس ويسجل على الإنسان المدة التي وقفها من غير أجرة، وهناك بوليس خاص يمر أفراده على العدادات بين حين وآخر علي (الدراجات النارية)، ويقيدون المخالفات في ورقة ثم يشبكونها على زجاج السيارة الأمامي، فإذا جاء صاحب السيارة وجب عليه في الحال أن يأخذ الورقة ويتصل بأقرب نقطة لدفع غرامة المخالفة، وإلا فالويل له من البوليس ومطاردته، سواء أكان في المنطقة التي ارتكب فيها المخالفة أوهرب إلى منطقة أخرى..

والحصول علي هذه العدادات ــ لاسيما في الأوقات التي تكثر فيها حركة السيارات ــ ليس سهلاً، لأن معظم العدادات القريبة من الأسواق العامة أو المصالح الحكومية تكون مشغولة بالسيارات، ولذلك يظل صاحب السيارة دائراً بسيارته من شارع إلى آخر حتى يجد الموقف، أو يجد أحداً خارجاً من موقفه فيحل محله..

ولم نجد بالقرب من الكليات عداداً شاغراً، فاضطر الأخ عبد الرحمن للانتقال من شارع إلى آخر حتى وجد موقفاً في شارع « جرين » فأوقف السيارة، وتقدمنا إلي الأسواق على الأقدام، وكان مع الإخوان مظلة واحدة فآثروني بها، ومعظم الناس كانوا يسيرون إما بمظلات أوبمعاطف ضد المطر.

الأسواق:

لقد لاحظنا في الأسواق أنها تجمع بين كل ما يحتاج إليه طلاب الكليات من بدلات صوفية وشتوية (وأكثرها ما يناسب الطلبة ذوى الدخل المتوسط) وأدوات الرياضة وأدوات التجميل وأدوات الرسم بجميع أنواعها، والأفلام ومحلات لتحميض الصور، ومظلات على أشكال مختلفة، ومكتبات للكتب الجديدة في جميع الفنون، وأخرى للكتب المستعملة.. ومطاعم على درجات ومحلات لبيع (السندويتشات) وبالرغم من أننا فى عطلة الصيف فإننا لم نكن نرى بين معظم الغادين والرائحين إلا من يحمل فى يده حقيبة الكتب، أوبعض أجهزة علمية في الرسم والهندسة.

لقد استغرقت جولتنا علي الأقدام أكثر من ساعة ونصف الساعة، والسماء مرة تهطل وأخرى تهتل [باللام] هتلاناً، فإذا هطلت لجأنا إلي مظلة معرض من المعارض أو إلي واجهة دار أومتجر..

إلي المطعم:

وقد عضنا الجوع بأنيابه لا بنابه من جراء المشي الطويل، والجو اللطيف البارد، فدخلنا مطعماً (للسندويتشات) والشاى.. وكان مزدحماً، دخلنا لتدفئة المعدة أولاً، ثم لإراحة الأقدام من اللف والدوران، ثم لتجفيف الرءوس والبذلات ولوبعض الشيء، ولازدحام المطعم لم نتمكن من الجلوس على مائدة واحدة، بل انقسمنا على ثلاث موائد، وتولى الأخوان عبد الرحمن ومحمود مهمة البحث عما يصلح لنا من السندويتشات الحارة خشية أن نقع لجهلنا بأطعمة لا نعرفها، مثل أكلة تعرف عند القوم بما معناه « الكلاب

الحارة» وهي عبارة عن لحم مفروم . . ولا نعرف طريقة أكلها . . وعملاً بقول : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، قدمنا الاخوان لمهمة الاختيار، فاختار أحسن ما في المطعم من أكلة حارة مع الشاي . .

إلي ناحية الكليات:

وخرجنا من المطعم إلي منطقة الكليات ومبانيها القديمة الأثرية التي لا يعلوها من الظاهر أي رونق أوبهاء، فمررنا بكلية الملك وبجوارها كنيسة أثرية تعتبر من معالم المدينة ، وأردنا أن نشاهدها من الداخل فوجدنا العمال يجددون بعض حيطانها، وقد أوصدوا المداخل المؤدية إلى ما بعد الوصيد . . وبنيت هذه الكنيسة سنة ١٤٤٦ م — ٨٥٠ هـ — على طراز قوطي ، أي أن كل جزء مرتفع فيه يشكل خطاً عمودياً كرءوس الرماح ، وكله مع اتساعه مغطى بالعشب كأنه سجاد أخضر تتخلله ممرات على أشكال هندسية بديعة .

وفي مركز الفناء نافورة صغيرة وسط مقصورة مضلعة ، لها ثماني فتحات ذات عقود فوقها قبة صغيرة علي شكل تاج أوزهرة ، ومقصورة النافورة محاطة بهالة من الأزهار الحمر، فوق العشب والرذاذ المستمر كان يزيد العشب والأزهار نضارة وحسناً .

ومن فناء هذه الكلية ذهبنا إلي كلية « سانت جون » وبوابتها كأنها بوابة أحد الحصون من القرون الوسطى ، وشاهدنا من داخلها جسر التنهدات الصغير على طراز جسر التنهدات في مدينة البندقية بإيطاليا .

وأخيراً جئنا إلى مكتبة كلية « ترينيتي » حيث تنساب مياه نهر « كام » بين مباني الكليات ، وعلى طرفي الشاطئ أرض معشوشبه ذات ميل نحو مجرى النهر، من ورائها دوحات فينانة تتدلي فروعها وأغصانها على الأرض . .

وجوديان هائمان:

وبينما نحن مأخوذون بروعة المنظر، وهدوء المكان ، وخلوه من حاف

ومنتعل، استرعي أنظارنا منظر شابين وجودين، وعلي الأصح شاب وشابة، والشاب يرتدى قميصاً أحمر، والشابة تلبس قميصاً أزرق، ولولا لحية الشاب لما عرف الشاب من الشابة، يسيران متخاصرين هائمين، وعندما اقتربا من الموضع الذى كنا نقف فيه جلسا علي العشب، ثم استلقيا يضحكان مرة، ويعبسان أخرى.، لا تختلف حركاتها عن نوع من الجنون..

وأراد أحد الإخوان أن يقترب منهما ويسألهما عن هذه الحياة والفلسفة (الجنونية)، وهل تهدف إلي غاية أوهي «بوهيمية» أو «اللامبالاة»..

ولكن الشيخ محمد منعه من مثل هذا الفضول،أولاً: لأن وقتنا لا يتسع للمناقشات والمناظرات والجدل.. ثانياً: نحن لا نقتنع ولا نوافق علي فلسفتهما مهما أطالا الشرح والبحث، وهما أيضاً لا يوافقان مطلقاً علي ما نقول لهما، أونقدم لهما من البراهين والأدلة على خطأ فكرتهما هذه: فسادها وقبحها، فالأولى أن نأخذ دربنا ونتركهم في غيهم يعمهون ونقول: الحمد لله الذى عافانا، ونشكره علي ما مَنّ علينا به من نعمة العقل والدين، وأن يحفظنا جميعاً من سوء المصير والمنقلب والضلال.

إلي شارع سدني:

ومن منطقة الكليات، انتقلنا إلي ناحية شارع سدني، حيث دخلنا معرضاً عظيماً يجمع ــ كما يقولون ــ بين ألف صنف وصنف، وله عدة أبواب خاصة للدخول، وأخرى للخروج، تدخل مئات، ويخرج أمثالهم في وقت واحد، وليس هناك على الأبواب حارس أوبواب أوناطور، والمعروضات كلها مكشوفة، يقف الإنسان إذا أراد أن يشترى معطفاً على قسم المعاطف، ويأخذ ما يشاء ويقيسه بنفسه علي نفسه، وما وافقه يذهب به إلي الفتاة الواقفة على القسم، فتشير له إلى البطاقة بطاقة القيمة.

واشترى الشيخ بعض الأشياء، كما اشتريت معطفاً ضد المطر لأستغني عن المظلة التي لم أتعود عليها، ولأكون نشيطاً في السير..

إلي سوق الفاكهة:

ومن ناحية المعارض والمتاجر انتقلنا إلي سوق الفاكهة والخُضَرة، وقد اجتمعوا في شارع تحت مظلات من الشراع وقاية عن المطر، وذكرني منظرهم تحت الأشرعة منظر باعة الفاكهة في الطائف، حيث يقف كل واحد تحت ظل شراعه لئلا يتعرض للشمس.. أما هؤلاء فيتمنون الشمس، واشترينا عنبا وتفاحا وكمثرى.

مدة التجوال:

لقد استغرق تجوالنا في أسواق مدينة كمبرج، وفي منطقة الكليات مايقرب من ساعتين وأكثر.. ثم أسرعنا إلي موقف السيارة، ولم يبق في الموقف غير عدد قليل من السيارات، أى أن معظم الناس انصرفوا إلى بيوتهم وأعمالهم، ونحن كذلك، وركبنا السيارة، وودعنا كمبرج وكلياتها، وتوجهنا إلى الشمال في طريق فرعي يؤدى إلى طريق السيارات العام «موتروى» المؤدى إلي أسكوتلاند وأدنبرة..

والطريق الفرعي لم يختلف عن الطريق الذى مشيناه من لندن إلى كمبرج، في ضيق أسفلته ووجود أجزاء من الأراضي الزراعية من الناحيتين، وعند القرى الكبيرة نرى وسط البيوت مساحات واسعة مكسوة بالعشب الزاهي، ومحاطة بسياج من خضرة الشجيرات ذوات الأزهار الملونة.. وهذه المساحات المخضرة تكون كمنتزهات لأهل القرية من الأطفال والنساء والرجال الطاعنين في السن، حيث ينتشرون فيها مساء أوصباحاً في أيام الآحاد..

ـ ٣ ـ

في الطريق إلي أدنبرة عاصمة أسكتلندة:

مررنا بمدينة (بيتربرو) من مدن مقاطعة (نورث أمبتون شاير) الرئيسية وهي مدينة تجارية، تتخللها الأنهار، مساحتها ١٥,٧ ميلاً مربعاً، ومعظم تجارتها في الآلات الهندسية والخيوط المطاطة، ولوقوعها في أرض منخفضة تعد من المراكز الزراعية الهامة في الإقليم.. ومن إقليم (نورث امبتون شاير) دخلنا لنكشاير وهي مقاطعة بحرية لانخفاض أرضها، وكثرة مستنقعاتها، مشهورة بصناعة السفن.

واقتربنا من عاصمة المقاطعة لنكولن التي كانت تعرف سابقاً باسم (لندوم).

ومن هذه المقاطعة بدأ الطريق المعبد الواسع لسير السيارات إلي الشمال «موترووى» (Motor Way) وهو خطان أحدهما للسيارات الذاهبة، والآخر للقادمة إلي الجنوب، وبين الخطين حاجزيتسع ويضيق على حسب الأماكن، وكل خط يمكن أن تسير عليه ست سيارات دفعة واحدة، ست ذاهبة وست آيبة، أى اثنتا عشرة سيارة في صف واحد..

وحركة المواصلات بالسيارات علي هذا الطريق تكاد تكون متصلة ومتواصلة، وكلها كأنها في سباق دولي لسرعة انطلاقها.

استراحات:

وعلي مسافة كل عشرين ميلاً تقريباً في هذا الطريق الطويل، يجد المسافرون بناية فخمة واسعة ذات طابقين في بعض الأماكن، فيها مطعم

ومقهي علي مستوى راق، ومرافق أخرى لا يستغني المسافر عنها، تتبعها مساحة واسعة جداً لوقوف مئات السيارات، بحيث إن الغريب إذا رآها لا يشك في كونها مصنعاً لإنتاج السيارات.

وكل من أراد الاستراحة فيها أوقف سيارته مع صفوف السيارات، ودخل المطعم الكافيتريا، والكافيتريا مطعم لا يستخدم الخدم في تقديم الطلبات، بل طريقته: «اخدم نفسك بنفسك» أو على رأى الشاعر العربي:

* فتول أنت جميع أمرك *

وقفة بإحدى الكافتريات:

وقفنا بإحدى الكافتيرات لتناول الغداء، وقدمنا رائدينا الأخوين عبد الرحمن ومحمود ليكونا دليلين في الاستفادة بهذا المطعم، ولئلا نقع في غلطة لعدم معرفتنا لطريقة السير فيه.. فالأطعمة علي أنواع قد تزيد علي خمسين نوعا، بين المشهيات ومقدمات الأكل، واللحوم والخضر والبيض والأسماك والسلاطات والفواكه والحلويات، وكلها موضوعة في أوان من زجاج داخل أقسام تشبه الدواليب، ومغطاة من معظم جهاتها بغطاء زجاجي، ولها فتحات، وأمام هذه الفتحات رف مستطيل يضع فوقه الخادم لنفسه طبقاً يجمع فيه ما تشتهيه من الأكل.

مراحل الوصول إلي الغداء:

واستلزم أخذنا للغداء علي طريقة اخدم نفسك بنفسك المراحل الآتية التي اجتزناها مقتفين إثر الأخوين، أذكرها لمن لم ير هذه الكافتريات:

١ ــ الوقوف في الطابور لدقائق لا تزيد علي عشر لازدحام الخادمين أنفسهم.

٢ ــ البدء في السير خلف بعض علي خط واحد نحو منطقة دواليب الأطعمة.

٣ ــ الوصول إليها في ثلاث دقائق لطول الطابور وبطء السير.

٤ ــ تناول طبق من مجموعة الأطباق المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها عمود ووضعه على الرف الممتد مع دواليب الأطعمة والتقدم به خطوة.

٥ ــ الوقوف أمام ثلاثة صناديق لتناول الملعقة من أولها، والسكين من الثانى، والشوكة من الصندوق الثالث. والتقدم بعدها خطوتين أخريين.

٦ ــ الوقوف أمام قسم المشهيات والسلاطات لتختار ما يعجبك منها وتشير إليه لفتاة واقفة علي هذه الأنواع، فتعطيك بسرعة في صحن وتضعه إلى الأمام مع التقدم خطوة أوخطوتين.

٧ ــ الوقوف علي قسم الخبز والأصباغ [الإدامات] وهي أنواع كثيرة، يحتار مثلنا في الاختيار، ولكن الأخوان الرائدان كانا يرشداننا إلي النوع الطيب الملائم لأذواقنا، فنشير إليه للفتاة المختصة فتضعه في صحن وتعطينا فنضعه علي الطبق مع أخذ ما نريده من شرائح الخبز، ثم نتقدم خطوات.

٨ ــ الوقوف أمام قسم الفواكه والحلوى، وهي أكثر من عشرين نوعاً نطلب ما يعجبنا منها، وإلي هنا يمتلئ الطبق وتنتهي الأطعمة.

٩ ــ تحمل الطبق الذى بقيت تدفعه علي الرف المستطيل تحمله في يدك. وتميل به إلي «كشك» صغير بجوار الدواليب داخله فتاتان، فتعرض الطبق وتحسب قيمتها وتعطيك بها بطاقة مطبوعة علي ماكينة..

١٠ ـ تدفع القيمة للفتاة الثانية بموجب البطاقة وتأخذ الباقي إن كان لك في أقل من دقيقة.

١١ ـ تحمل الطبق في يدك وتخرج إلي الصالة الواسعة حيث الموائد

والكراسي، فقد تجد كرسياً شاغراً في أول الصالة فتجلس وترتاح، وقد لا تجد فتبدأ في رحلة أخرى بين الموائد والكراسي، والطبق في يدك حتي تجد مكاناً فتجلس مع الجالسين، ثلاثة كانوا أم أربعة وتضع طبقك علي المائدة، وتبدأ في الأكل من غير أن تقول لمن حولك وعلى مائدتك: «تفضلوا أوسموا، أولزوم ومايصير» بل تبدأ في القضم والمضغ والبلع بكل جرأة وشجاعة وكأنك الوحيد على المائدة.

وبعد الانتهاء من الطعام تقوم إلي قسم الشاى والقهوة، وتقطع بهما أوبأحدهما بطاقة وتأخذ طلبك من القسم بعد دفع القيمة.. فإما تشرب وأنت واقف، أوتعود إلي مكانك وتشربها وأنت جالس، وقد تأخذ هذه العملية كلها أكثر من ساعة.

وصادف أن جلست علي مائدة مع اثنين كانا عليها من قبل، وكان أحدهما صاحب ذوق لم يلتفت إلىّ بتاتاً، أما الآخر فالظاهر كان فلاحاً فلمنكيًا أخذ ــ بمجرد ما جلست وبدأت في الأكل ــ يحملق في طعامي وطبقي، وعيناه كالقط تتبع اللقمة من حين رفعها من الصحن إلي الفم، فتضايقت بحكم طبعي الشرقي من نظراته التي كادت توقف اللقمة في حلقي، ونظرت يمنة ويسرة فوجدت مائدة أخرى خالية انتقلت إليها وأكملت غدائي بهدوء وبعيداً عن نظرات ذلك الإنسان.

والقوم علي حسب عاداتهم ومرانهم علي هذه المطاعم لا يأخذ الواحد منهم من الأطعمة إلا بالقدر الذى يأكله ويترك الصحن بعد الأكل نظيفاً.

ولكنى كما قال المثل العربى: «أول الغزو أخرق» لم أحسب جيداً فأخذت بدافع الجوع أنواعاً من الأطعمة كنت أظن أن آتى عليها، وأطلب المزيد، ولكن عند الأكل وجدتني عاجزاً عن إتمام ما على الطبق، وتركت في كل صحن خبطة ــ والخبطة بالفتح والكسر ما بقي في الوعاء من الطعام أوغيره ــ على خلاف عادة القوم، ومن بعد هذه التجربة كنت

ألاحظ ما يلاحظه القوم من أن أترك الصحون بعد الأكل أنظف منها قبل الأكل .

استئناف السير والرحلة :

وتولي قيادة السيارة من بعد هذه الاستراحة الأخ محمود ، وبدأنا في السير نحو الشمال في منطقة لنكونشاير الخضراء بمروجها الممتدة إلى مد البصر، لا يرى فيها مكان أجرد ، وبعد أن عبرنا جسراً أوجسرين دخلنا مقاطعة « ريدنج الغربية » حيث مررنا بمدينة « ليدز LEEDS » وتذكرت عندها بعض الإخوان السعوديين الذين أكملوا دارستهم الجامعية العالية في جامعتها ، ومن بينهم الدكتور أحمد المحمد الضبيب ، والدكتور الأنصارى الأستاذين بجامعة الرياض، وكنت عندما أتلقى من الدكتور أحمد المحمد الضبيب خطاباً من هذه المدينة أتصور أنها مدينة صغيرة ولكني رأيتها الآن ممتدة إلى مسافات شاسعة ورءوس عماراتها تبدو منتشرة في خط أفقي طويل ، فعرفت أنها مدينة كبيرة ، ومساحتها ٥٩,٨ ميلاً مربعاً ، وتعتبر مركزاً هاماً للمواصلات بين المدن المجاورة ، وشرق المدينة وشمالها مناطق زراعية ، والناحية الغربية الجنوبية منها مشهورة بمصانع الصوف والمنتجات الكيماوية والزجاج .

وجامعتها : تأسست على كلية يوركشاير سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) ، وتضم الآن كليات للآداب والعلوم والحقوق والاقتصاد والعلوم الاجتماعية والتكنولوجيا والطب .

ومن مقاطعة ريدنج دخلنا إقليم يوركشاير حيث بدأنا نرى بعض مرتفعات صخرية علي بعد، كما أن الطريق نفسه كان يخترق أحياناً بعض أرض صخرية .

من حوادث السيارات :

١ ــ شاهدنا فى هذا الطريق رغم اتساعه آثار حادثة من حوادث

السيارات، لم نشعربها إلا بتجمع السيارات الذاهبة والقادمة عند نقطة وانخفاض درجة سرعتها في السير، ولم نر في مكان الحادث غير سيارة الإسعاف وسيارات البوليس.

أما كيف يتم الاتصال بمراكز البوليس في مثل هذه الأحوال، فذلك ما أخبرنا به الأخوان، وأن الطريق من مبدئه إلي منتهاه مزود بخط تليفوني خاص متصل بالمراكز البوليسية الكبيرة فى الطريق أوفي المدن التي يمر الطريق منها، كما توجد على مسافات معينة على جوانب الطريق صناديق، وفي كل صندوق تليفون، وبمجرد ما يرفع الإنسان سماعته يتصل بأقرب نقطة بوليسية فيخبرها بما حصل، ولا تمر ثوان معدودة على تلك الإفادة إلا وتكون سيارة البوليس مع الإسعاف والمهندس قد وصلت إلى مكان الحادث، وتتخذ الإجراءات اللازمة للحادث في دقائق دون أن يؤثر فى حركة المواصلات.

٢ ـ ورأينا ونحن نسير في نقطة أخرى سيارة إسعاف ونقالة ورجال الإسعاف وسيارة البوليس، والحادثة هي أن سيارة صغيرة خرجت عن الخط واندفعت إلى مجرى ماء على يمين الخط، وسقطت عجلتاها الأماميتان في المجرى.

هاتان حادثتان أو آثارهما شاهدناها ونحن نجتاز تلك المسافات بسرعة ٩٠ ميلا أوكيلو مترا في الساعة، وتزداد السرعة عن هذا المعيار في بعض المحلات وتنخفض في البعض. وبدأ الخط الواسع للسيارات يضيق كلما تقدمنا إلي الشمال.

منطقة درام:

ومن إقليم يوركشاير دخلنا مقاطعة درام البحرية، وعرفت بالبحرية لوقوعها بين نهرى تين ودويرم، وهي من أكثر المقاطعات سكاناً ومشهورة بصناعة

الحديد والصلب والسفن والزجاج والكيماويات، وبها قلعة قديمة بنيت في القرن الحادى عشر الميلادى تشغلها جامعة درام.

وعندما مررنا بمدينة درام التي هي عاصمة مقاطعة درام قال الأخ محمود: هذه مدينة درام التي يدرس في جامعتها الأستاذ محمد سعد الرشيد.. وكأنه بكلامه هذا ذكرني بشيء كنت غافلاً عنه، ولما ذكرني تألمت وتأسفت له جداً، وهو أن الأستاذ الرشيد المبتعث من كلية الشريعة بمكة لنيل الدكتوراه في جامعات بريطانيا، اتصل بي تلفونياً وأحب أن يزورني وفاء منه، فذكرت له عنوان الشقة وحددت له موعداً في صباح هذا اليوم.. ثم جاءت رحلتنا إلي أدنبرة وخروجنا من لندن مبكرين كل ذلك أنساني الموعد، موعد الأستاذ الرشيد الذى تحمل مشاق الرحلة من هذه المدينة درام التي تبعد عن لندن ٢٥٦ ميلاً دون جدوى، وبقيت لدى هذه المسألة مبعث ألم وأسف طوال الرحلة، بل لازلت أتألم لها كلما تذكرتها..

ومدينة درام مدينة كبيرة سكانها أكثر من ١٩ ألف نسمة ومساحتها ٦,٣ أميال مربعة محاطة من أكثر جهاتها بسلسلة من المرتفعات.

جامعتها:

فكر في تأسيسها الملك هنرى الثامن، ولكن تنفيذ الفكرة لم يتم إلا سنة ١٨٣٣م – (١٢٤٩هـ) تكونت من ثماني كليات في درام، وكليتين ومدرسة للطب في نيوكاسل، ولم يسمح بدخول البنات في هذه الجامعة إلا سنة ١٨٩٥م – (١٣١٣هـ) والتعاون بين جامعة درام وجامعة نيوكاسل تام..

وعند مرورنا بمدينة درام كانت الساعة التي علي توقيت مكة تشير إلي الثانية عشرة والنصف بعد المغرب، والشمس إذ ذاك مرتفعة..

الجو:

كان الأخوان عبد الرحمن ومحمود يخشيان أن يكون الجو في الشمال،

ولا سيما في أدنبرة كعادته غائماً وممطراً، فلا نتمكن من رؤية معالمها، ولكن الأمر جاء على خلاف ما توقعا، فمنذ أن اقتربنا من مقاطعة ــ نورث امبرلاند الشمالية أخذت السحب تتقشع، وظهرت السماء صافية، وسطعت الشمس بضيائها ودفئها.

ومررنا بمدينة نيوكاسل أون تين عاصمة مقاطعة نورث امبرلاند الساعة الواحدة ليلاً بتوقيت مكة الغروبي، والشمس تسطع كأننا بعد العصر، وتقع هذه المدينة على الشاطئ الشمالي من نهرتين، ولذلك يقال لها: «أون تين» أى على تين، وكان اسمها القديم مونكتشستر، والقلعة التي سميت عليها بناها الملك هنرى الثامن، وكانت أقوى حصن في شكال إنجلترا، وقد استخدم منها جزء لإقامة متحف، وجامعتها قديمة، وأقيم أساسها علي كلية الطب وكلية ارمسترونج للعلوم، ثم زيدت كليات أخرى، ومن بعد مدينة نيوكاسل تغيرت الأرض ومناظرها، فكنا نمر بساحات واسعة كانت حقولاً للحبوب وقد حصدت، وأقيم فيها تلال من السنابل الجافة، وكتل التبن كانت تقوم كأبراج عالية وسط تلك الأراضي.. كما ظهرت أرض صخرية أوتلال صخرية جرداء هنا وهناك.

مطارات تدريب:

ومررنا في الطريق بعدد من المطارات التي يتدرب فيها الطلّاب أو هواة الجو، وأحد هذه المطارات للطائرات الشراعية التي تسحبها في أول الأمر سيارات الجيوب إلى مسافة، ثم تتركها تندفع وترتفع محتفظة بتوازنها..

وقفاتنا:

لم تكن وقفتنا في أثناء الطريق إلا للتزود من وقود السيارة أوشرب الشاى والقهوة أوللحمامات، والطريق علي امتداده الطويل ومع وجود أراض زراعية وخلوية لا يفكر أحد من المارة ــ وهم يقدرون بالألوف والذين تزدحم

بسياراتهم الطريق علي امتداده ــ في قضاء حاجته فى غير الحمامات مهما أكانت الظروف قاسية أوحرجة.

هذا ويميل الطريق من مدينة نيوكاسل إلى ناحية الشرق محاذياً لبحر الشمال، وتاركاً منطقة المرتفعات نحو الغرب...

— ٤ —

ويتجه الطريق من مدينة نيوكاسل (القلعة الجديدة) نحو الشمال وسط سهول ومروج خضر عامرة بالسكان، وبحر الشمال يطل علينا حيناً ويبتعد عنا في معظم المسافة، وكلما تقدمنا صار الطريق ضيقاً وأسفلته لقدمه لا يخلو من حفر ونواتئ، وبدا طَفَلُ العشي [ظلمة قبل الغروب] يعم الكون، وساعة مكة كانت تشير إلي الرابعة ليلاً، وكنت أقرأ أرقامها في بقية ضوء النهار بكل سهولة، ولولا أن ارتفعت سحب كثيفة من الشمال وحجبت عنا ضوء الشفق الأبيض لبقينا متمتعين به إلى أدنبرة، وقبيل منتصف الليل بالتوقيت المحلي وصلنا حدود أسكتلندا ومررنا بمدينة (بروبك) (BERWICK) التي تقع على الشاطئ الشمالي لنهر (تويد) (TWEED) ولذلك يقال لها: (برويك اون تويد) مساحتها ١١,١ ميلاً مربعاً وسكانها أكثر من ١٢ ألف نسمة، ولم تشتهر إلاّ منذ أن صارت كحد فاصل بين إنجلترا وأسكتلندا، وإلي مبدأ القرن الرابع عشر الميلادى كانت برويك تابعة لاسكتلاندا، ثم افتتحها إدوارد الأول سنة ١٣٠٢م ومنحها شبه استقلال، ثم صارت كبقية مدن إنجلترا، ويعتبر نهر تويد ومرتفعات تشفيوت (CHEVIOT HILLS) الحد الفاصل بين إنجلترا وأسكتلندا، وقد اشتد الظلام لوجود السحب في الشمال من بعد مدينة (برويك)، ولم نعد نرى أمامنا غير الذى يتعرض لضوء مصابيح السيارة..

ولولا أن الشيخ محمد ـ حفظه الله ـ أخذ يتحفنا من حين لآخر بطرائف واقعية ولطائف مرت عليه، ونكت أدبية لتسلل إلي الجميع النوم، لكننا مع تلك الملح كأننا في سهرة متحركة متنقلة لا نعرف منتهاها..

فالمسافات تطوى وعجلات السيارة تدور وتلف، وعقارب الساعة تنتقل من رقم إلى آخر، ونحن جالسون متحركون في آن واحد.

أنوار مدينة أدنبرة:

وبعد منتصف الليل أى ١٢ بتوقيت لندن شاهدنا أنوار مدينة أدنبرة ممتدة في الأفق في مسافة طويلة، وبقينا مايقرب من نصف ساعة في رؤية هذه الأنوار إذا كانت الأرض مرتفعة، وتغيب عنا إذا انخفضنا حتى اقتربنا ودخلنا ضواحيها، ومنها إلى المدينة نفسها، وكانت أعمدة الأنوار الصفراء تنتشر علي امتداد الطريق، وتذكرت بهذه الأنوار الصفراء مداخل الكويت وأنوارها الصفراء التى تشبه أنوار أدنبرة، وذلك لمكافحة الضباب..

وقد ذكرت في إحدى حلقاتي الأولي أن المسافة بين لندن وأدنبرة ٧٠٠ ميل، ولكن الصحيح بعد أن تأكدت منها هي ٣٩٣ ميل..

ثم دخلنا الشوارع وكانت خالية من الحركة إلا من الثمالى هنا وهناك، لأن ليلة السبت وليلة الأحد تعتبر عند القوم من ليالى العطلة الأسبوعية، فيقضونها في (البارات).

وأخيراً وصلنا إلى الفندق الذى حجزنا فيه الغرفة من لندن، وكان البواب علي وشك إغلاق بابه، ولكنه عندما رأى الأخ محمود أسد الله رحّب به وبنا بضحكة وأعطاه مفتاح الغرفة المحجوزة لنا. فصعدنا إليها وكانت في الدور الثاني. وبعد أن اطمأن الإخوان بأننا ــ والحمد لله ــ ارتحنا في الغرفة، ذهب كل منهم إلي مقره، فالأخ عبد الرحمن آل الشيخ أوصل أخاه عمر إلي مدرسته الداخلية، ثم ذهب لمقره بالقسم الداخلي بجامعة أدنبرة، وذهب الأخ محمود أسد الله إلى غرفته في الفندق نفسه، على أن نجتمع غداً، ولم يكن بعد تلك السهرة الطويلة وتعب الطريق مجال للسهر فصلينا ونمنا..

وكان الجو لطيفاً جداً وبارداً بالنسبة إلينا..

وظلت شمس يوم السبت ١٦/ ٥/ ١٣٨٧هـ **الموافق** لـ٩/ ٨/ ١٩٦٨م محتجبة عند طلوعها وراء القزع [قطع من الغيم] ونظرنا من النوافذ إلي الشوارع فإذا هي ساكنة ساكتة ، لأن أهل المدينة ما زالوا في سررهم نائمين، إثر سهراتهم الطويلة التى قد تستمر إلي ما بعد نصف الليل وقبل الفجر ثم يخمدون.

كان الاتفاق مع الأخ محمود أسد الله أن يأتينا مبكراً ويأخذنا إلي صالة الطعام لتناول الفطور.. فأخذنا أهبتنا للخروج، لأن الأهبة هناك للخروج تحتاج إلى وقت كبير..

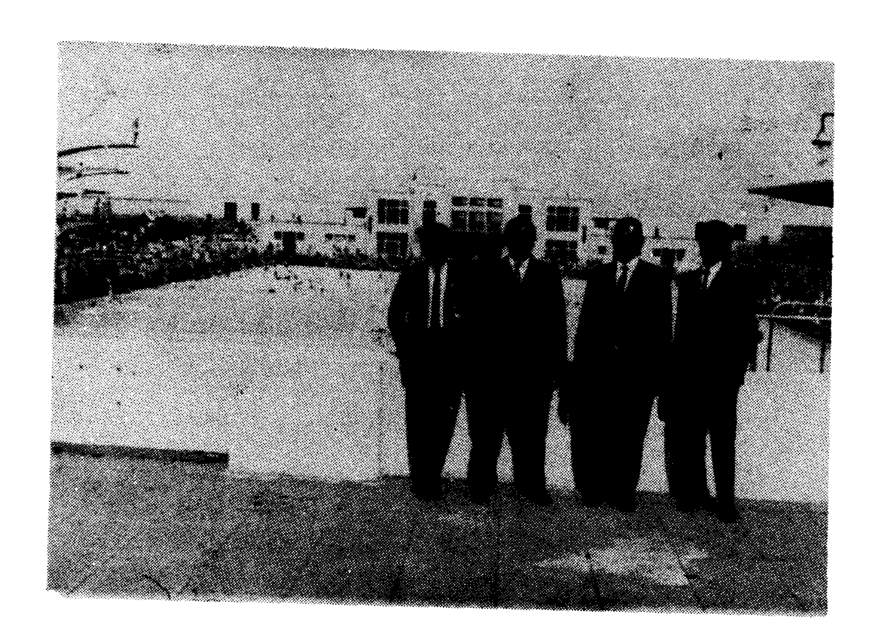
ثم انتظرناه، ولما تأخر خرجنا من الغرفة إلى ناحية الاستعلامات، ولكون الوقت بالنسبة إلى أهل الفندق مبكراً لم نجد في مكتب الاستعلامات غير عجوز دردبيس، فسألتها عن غرفة الأخ محمود فقالت: ١٩.

وصعدت إلى غرفة ١٩، وطرقت الباب بشدة طرق الاحتجاج علي تأخره، فإذا بى بدردبيس أخرى خرجت منزعجة وقالت: ماذا تريد؟ فأبديت لها أسفي وصكت الباب صكاً عنيفاً.. وسمع الأخ محمود طرق الباب حيث كانت غرفته بجوار غرفة ١٩، فخرج معتذراً عن تأخره كما قال لي: إن طرق الباب بهذه الشدة يعتبر إساءة عند القوم.. فقلت له: أعرف ذلك ولكنى طرقت باب الغرفة ١٩ معتقداً أنها غرفتك..

ودخلنا صالة الطعام، ولم يكن بها غير ثلاثة أشخاص وهم غرباء ومن السياح، وتناولنا الفطور على الطريقة المألوفة عند القوم، أوعلى رأى المثل العربي: «خفف طعامك تأمن سقامك» وقانا الله شر السقام واللئام..

وعند خروجنا من الصالة بعد الفراغ من الفطور وصل الأخ عبد الرحمن ابن عبد العزيز بسيارته مستعداً للتجوال على معالم أدنبرة.. وقال الإخوان: إن أشهر معلم [مفرد المعالم] في أدنبرة هو قلعتها التاريخية، ونستطيع أن نشاهد معظم المدينة من بعض أجزائها العالية فنبدأ بها.

وسأل الشيخ محمد الأخ عبد الرحمن عن أخيه عمر فقال : سنمر به في طريقنا إلي القلعة ونستصحبه معنا إلى ضاحية من ضواحي أدنبرة ، وبدأ الأخ عبد الرحمن جولته هذه بالخروج إلى الضاحية التي فيها مقر أخيه عمر، ولم يزل الهدوء والسكون سائداً عليها وعلي منازلها ، وهي علي طبقة واحدة ، ومحاطة بحدائق منزلية، وسياجها الحديدى تعلوه شجيرات من ذوات الأزهار الجميلة ، علي ألوان مختلفة ، وتمتاز بعضها بجداول تجرى فيها المياه بين الأعشاب والشجيرات ، أونافورات تدور باندفاع الماء ، فتسقي العشب وتكوّن في الوقت نفسه قبة مائية إذا تعرضت لأشعة الشمس كونت ألواناً كألوان قوس قزح .. كان سيرنا في مثل هذه المناظر حتي وصلنا إلي مقر الأخ عمر ابن عبد العزيز آل الشيخ ، واتصل الأخ عبد الرحمن بأخيه بالقسم الذى هو فيه فقيل له : إنه نائم على إثر تعبه من رحلة لندن ذهاباً وإياباً في يوم واحد .. فترك له بطاقة بأن يلحق به فى مقره بالجامعة عندما يستيقظ ..



إلي القلعة :

وعـدنـا ثـانيـة إلى الشـارع الرئـيـسي ـ هـاي استريـت ـ (High Street) ومنـه إلى نـاحـيـة التل الذى عليه القلعة فى الناحية الغربية لأدنبرة .

تغير الحرس :

ووقفـنـا عـند مدخل القلعة لمشاهدة الرسم التقليدى لتغيير الحرس ، وهم في بذلاتهم التقليدية كحراس قصر بكنجهام فى لندن ، ووقف معنا كل من كان يقصد القلعة مثلنا أوكان خارجاً منها حتى انتهت رسوم تغير الحرس .

ومـدخل القلعة مرصوف بحجارة صغيرة ، ويُذكر أنه كان هناك فيما مضى من الـزمان جسـر متحرك علي أخدود عميق ، فإذا أبعد الجسـر عن الأخدود لم يـتمكن أحد من الدخول ، أما الآن فقد أزيل الجسـر، وحل محله الرصف الحجرى ..

وثَـمّ ممـران مـنـحوتان على شكل خطين متوازيين في حجارة الأرض من القرن السابع عشر الميلادى ، وذلك لتسير عجلات المدافع الثقيلة فوقها .

وصعدنا من ممر صخرى واسع إلي فسحة كبيرة علي شكل نصف دائرة ، ولارتـفـاعـهـا تـشـرف عـلـى جـزء كـبير من المدينة ، ويجتمع فيها زوار القلعة وحدائقها ومنتزهاتها وشوارعها لمشاهدة أدنبرة وعماراتها وأخذ صورها ..

مدافع قديمة :

وفـي هـذه الـفـسـحـة عـدد مـن الـمـدافـع الـقـديمة يرجع عهدها إلى القرن الـسـادس عشر المـيـلادى ، وكـل مـدفـع محمول علي عجلات كبيرة ، وبجوار بعـضـهـا قنابل ، وهى عبارة عن كرات من الحديد فى حجم « كرة القدم » أوأكبر منـهـا بـقليل ، وبعضها حجارة على شكل الكرة .. وكانت هذه المدافع تـشـحـن وقت استخدامها للمصالح الحربية فى ذلك الزمان بمائة وخمسة أرطال

من البارود، وتصل قنبلتها الحديدية إلى مسافة ثلاثة أرباع الميل، أما القنبلة الحجرية فكانت تصل إلى مسافة ميل ونصف ميل..

إلي الأماكن العلوية:

وارتقينا من هذه الفسحة إلى المحلات العلوية بواسطة درج صخرى، والمحلات العلوية هي: قصر ملكي مكون من صالات طويلة، وممرات واسعة، وفناء كبير، وخصص جناح منه لمتحف، وثكنات حربية جديدة وهي لا يدخلها أحد، وبجوارها بناية المستشفى، وبيت لرئيس القلعة، ومحلات أخرى للجنود، وعلى جزء مرتفع من التل تقع كنيسة الملكة مرغريت التي بنيت في القرن الخامس عشر.. وتعتبر بنايتها من روائع الهندسة المعمارية الأسكتلندية.

وقد كتب على بابها في لوحة صغيرة: (ممنوع التدخين واستصحاب الكلاب) بالإنجليزية، وسألني الشيخ محمد عن هذه الكتابة فقلت له عن معناها، فقال: إن القوم برغم تعاطيهم للدخان بكثرة، وحبهم للكلاب بصورة لا تتصور، يرون أن تكون أماكنهم الدينية نظيفة وبعيدة عن مثل هذه الأوساخ..

مقبرة للكلاب:

وقفنا في هذا المكان المرتفع وقفة قصيرة لإراحة الأقدام والاستمتاع برؤية المدينة وامتدادها.. واسترعت أنظارنا ــ علي بعد ــ مساحة صغيرة على سطح أحد الأبراج مزينة بشجيرات ذات أزهار جميلة، ولافتات صغيرة مكتوبة مرفوعة علي قوائم حديدية، وفوقها لافتة كبيرة عليها كتابة، ولما أمعنت النظر إليها وجدتها كالآتى: (سيمترى فورسوجرس دوقس) أى «مقبرة لكلاب الجنود» ودققت النظر إلي اللافتات الصغيرة فإذا هي أسماء للكلاب وأسماء أصحابها وتاريخ (فطسة) كل واحد منها..

وكانت هذه المقبرة مثار ضحكنا وقلنا : لا يستغرب شيء هنا ، فجهة تمنع استصحاب الكلاب ، وجهة أخرى تذكرها كما يُذكر عظاؤهم ..

القصر الملكي التاريخي:

ثم دخلنا القصر الذى عمرته الملكة مرغريت فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وجددت عمارته في القرن السابع عشر.

وفي القصر غرفة صغيرة باسم أحد ملوك أسكتلاندا جيمس السادس الذى ولد فيها سنة ١٥٦٦م وبها مخلفات بعض الملوك ، وغرفة أخرى باسم جيمس الرابع وأجمل ما فيها سقفها الذى أقيم على دعامات كدعامات الرفوف ، تنتهى كل دعامة بصورة من صور الشخصيات البارزة ، أوصور لأحد الحيوانات ، ثم دخلنا متحف القصر ومعروضاته كلها فى خزانات زجاجية كبقية متاحف العالم ، وهى ملابس عسكرية حقيقية على حسب القرون التى مرت عليها ، ثم القلنسوات والخوذات العسكرية ، والبيضات الحربية ، وقبعات الملوك ، ثم الأسلحة والتروس والدروع والسيوف ، وتطور البنادق ، ثم صور للوقائع الحربية وأشياء أخرى تتعلق بالجيش الأسكتلندى القديم ، وتماثيل من البلوط للجنود الأسكتلنديين بأزيائهم القديمة ، قسم خاص للبحرية ، ونماذج للسفن ولأدوات البحرية ، وقسم للأعلام الأسكتلندية القديمة والأعلام التى استحوذ عليها الأسكتلنديون فى المعارك القديمة .

وفي غرفة خاصة مخلفات الملوك : التاج المرصع من « ٩٤ » لؤلؤة وعشر ماسات ، و٢٣ حجراً من الأحجار الكريمة ، والتاج موضوع على وسادة من القطيفة القرمزية اللون ، مضى عليها ثلاثة قرون ، وبجانب هذه الآثار صندوق من خشب البلوط مفتوح ، وكانت هذه المخلفات تحفظ فيه . وفي أحد جوانب القصر النصب التذكارى للجنود الذين ماتوا في المعارك .

وفي نزولنا من الأقسام العالية من القلعة مررنا على سجنها ونزلنا إليه بدرج ضيق ، ورأينا في بعض غرفه بعض وسائل التعذيب ، فتضايقنا من

رؤيتها وقال الشيخ: دعونا نخرج إلى محل آخر حيث نمحي أثر هذه المناظر المؤلمة، فخرجنا محوقلين طالبين من الله السلامة في الظعن والإقامة.. ووقفنا في البقعة الأولي التي وقفنا فيها، وشاهدنا منها مدينة أدنبرة، وقفنا ومتعنا النظر برؤية الحدائق الممتدة، والعمارات الشاهقة، والغيوم المتلبدة فوق المدينة، والمرتفعات الخضر التي في أطرافها، والجموع الهائلة القادمة إليها، أى إلي القلعة، والخارجة منها..

وقفة في فناء القلعة:

وبعد خروجنا من بوابة القلعة، وقفنا في فنائها الواسع المنحدر لمشاهدة الاستعدادات العظيمة، التي كانت تجرى علي قدم وساق للاحتفال السنوى الوطني الأسكتلندى، الذى يبتدئ من يوم ١٨ أغسطس، أى بعد تسعة أيام، ويستمر إلي ٧ سبتمبر، وكان النجارون يعملون لإقامة مدرجات شبه الاستاد الرياضي، وإقامة مسارح للفرق التي تشترك فيه، وتأتي من عموم أوربا. وكذلك المشاهدون يأتون من كل ناحية من أوربا وغير أوربا، وتتحول مدينة أدنبرة في أيام هذا الاحتفال وقلعتها ومنتزهاتها وتلالها الخضر، وحدائقها العامة إلى مسرح للأفراح والزينات والأنوار، كما تزدحم الفنادق على اختلاف درجاتها ونزلها وخاناتها وبيوتها المعدة للإيجار، ومن الصعب جداً أن يجد القادم إليها في أثناء هذه الاحتفالات مأوى للنزول ما لم يحجز من قبل..

وعرض الأخوان الشيخ عبد الرحمن، والأخ محمود أسد الله أن نتأخر في أدنبرة ريثما يبتدئ هذا الاحتفال.. ولكن الشيخ شكرهما على ذلك واعتذر لهم قائلاً: يكفى من القلادة ما أحاط بالجيد، وقد شاهدنا الاستعدادات، وشاهدنا بعض معالم أدنبرة، وما لم نره نقيسه على ما رأينا، وقبل أن نبتعد عن القلعة التاريخية من المستحسن أن نقول: إن القوم ــ برغم احتفاظهم بالبحث والتنقيب عن تواريخ تأسيس مثل هذه المعالم ــ يذكرون أن تاريخ بناء هذه القلعة غير معروف، وأن مؤرخاً من المؤرخين قال عنها إنها بنيت

في عهد الملك «ابرانك» الذى وجد قبل المسيح بعشرة قرون.. ولم تدون المعلومات الصحيحة عنها، أى عن القلعة، إلا من القرن الحادى عشر الميلادى، وأن الوقائع والحروب التى مرت علي هذه القلعة لو دونت لصارت كتاباً كبيراً، وقد كانت لملوك أسكتلندا قصراً لإقامتهم للاحتماء بجدرها القوية، وحفظ أموالهم وسجلات دولهم فيها، كما كانت اجتماعاتهم تعقد في صالاتها الواسعة، وفى عصر الملك بروس الذى نحت تمثاله علي بوابة القلعة هدم معظم أجزاء هذه القلعة، ثم أعيد بناؤه فى عهد أبنه سنة ١٣٣٦ م.

ـ ٥ ـ

مازلنا في أدنبرة ،عاصمة أسكتلندا ، وبعد مشاهدة قلعة أدنبرة التاريخية وأقسامها ، ومشاهدة الاستعدادات للاحتفال الوطني الكبير بأدنبرة توجهنا إلي معلم آخر من معالم أدنبرة أوأسكتلندا وهو (الحديقة الملكية للنباتات) ويمكن أن نطلق عليها الاسم العربي (حديقة التبليد) (ROYAL BOTANIC GARDEN) وهي التي يعوّد أويبلّد النبات الغريب مناخ البلاد التي ينقل إليها من بلد آخر.

وهذه الحديقة العظيمة وضع أساسها في القرن السابع عشر الميلادى السيرروبرت سبالد (Robert Sibald) ، وزميله الدكتور اندريوبلفور (Anderew Balfour) لإنبات النباتات والأعشاب التي تستعمل كأدوية لعلاج المرضي .. وأخذت في النمو والتوسع والتحسن منذ سنة ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ) بعد أن تولي منصب الإشراف عليها السير إسحق بيلي بالفور (S. Lssae Bayley Balfour) وفي عهده ضمت إلى دائرة أملاك صاحبة الجلالة ، وأشرفت عليها وزارة الأشغال والأملاك الشعبية ، فأنشئ في الحديقة قسم للنباتات الجبلية ، وأقيمت أقسام زجاجية للنباتات المستوردة من بلاد يختلف مناخها عن مناخ أسكتلندا ، ولا يمكن أن تعيش وتتحمل جو هذه البلاد .. فوضعت وغرست في هذه المحلات المغلقة بالزجاج ، مع تكييف جوها من حيث الحرارة والرطوبة لجو البلاد التي استوردت منها . وبذلك نمت وترعرعت وأنبتت كأنها في بلادها . وأنشئ كذلك معمل خاص لإجراء التجارب الزراعية ، وتطبيق النظريات العلمية الحديثة بواسطة أجهزة فنية دقيقة .

وجاء بعد المشرف الثاني مشرف ثالث وهو السير وليم اسمث (S. William Smith)، واهتم بتوسعة مساحة النباتات الجبلية والصخرية، واستورد نباتات مختلفة من هذا النوع من منطقة الصين وهملايا وجنوب غربي آسيا، وماليزيا وأستراليا وتايلند وبورما وإندونيسيا والهند وفلبين وتبت وكوريا ومراكش والجزائر وإسبانيا والبرتغال وقبرص وأمريكا.

واستحدث قسم خاص للأعشاب ويحتوى علي مليون ونصف مليون أنموذج من مختلف الأعشاب وبالحديقة مكتبة تضم بين خزائنها (٣٠٠٠٠) كتاب زراعي، وتعد أكبر مكتبة في العالم، ولا تفتح للعامة، بل هي مكتبة خاصة للباحثين والمشتغلين بالزراعة.

وأهم الأقسام التي تتكون الحديقة منها هي: حديقة المروج، حديقة جبلية، حديقة للغابات، حديقة للنباتات المائية، بحيرة اصطناعية، قسم النخيل، قسم النباتات الجبلية، وقسم النباتات الصخرية، قسم النباتات النموذجية، معرض النباتات.

بدأنا جولتنا في هذه الحديقة من الباب الرئيسي الشرقي، ومشينا علي الأقدام، علي الممر الذى يؤدى إلي ناحية النباتات الجبلية والصخرية، والأرض، أى أرض الحديقة، كلها مغطاة بالثيّل ماعدا الممرات، والنافورات الصغيرة، ذات عدة رءوس تدور باندفاع الماء، وتسقي تلك الأعشاب في شكل رذاذ المطر، في غير وقت المطر، أوفي يوم الشمس كيومنا الذى تجولنا فيه، وكنا نمر في طريقنا إلي النباتات الجبلية بنفر من أهل أدنبرة الطاعنين في السن، والذين عجزوا عن ممارسة أى نشاط بدني، قد اتخذوا مقاعد الحديقة الرخامية أوالخشبية مجالس لهم للتشمّس، ولقضاء أوقات فراغهم هناك، وكنا نتضايق من الشمس ونود أن تكون الشمس محتجبة وراء الغيوم، وهؤلاء يفرحون بها وبالجلوس فيها.

وصعدنا تلاً صناعياً ولكنه في شكله وصخوره وحجارته المبعثرة من غير تنسيق لا يختلف عن أى تل طبيعي، وتحت كل صخرة وكل حجر تجد

أعشاباً ونباتات مختلفة، وأوراق كل نبات تختلف عن غيرها، وكذلك الأزهار، وبعض تلك النباتات والأعشاب كانت تشبه نباتات رأيتها في مرتفعات عسير وغامد وزهران وبلقرن والنماص.. ومع الأسف لا أعرف أسماءها، وتتشعب الممرات فوق التل إلي جهات مختلفة، فاكتفينا منها بجهة واحدة، لأن غرضنا من التجوال المشاهدة، كالشاعر العربي الذى يقول لرفيقه:

تمتع من شميم عرار نجد　　فما بعد العشية من عرار

ونحن معه نردد:

تمتع من شميم أدنبرات　　فما بعد العشية غير نوم

وانحدرنا من التل ونباتاته إلي ناحية الغابات، واكتفينا برؤيتها من بعد، لأن دخولها يستلزم وقتاً طويلاً، ولا نرى فيها غير جذوع الأشجار والظلال المتكاثفة والأرض المعتمة. وتوجهنا إلي البيوت الزجاجية الجديرة بالمشاهدة والزيارة، لوجود نباتات من مختلف أنحاء العالم، ومن جميع المناطق الطبيعية من الكرة الأرضية. ويدخلها الإنسان برسم معين، ومن ممرات متداخلة يصعد إلى الطابق الثاني حيث النباتات، وبمجرد ما دخلنا أول بيت من هذه البيوت الغريبة شعرنا باختلاف الجو الذى كنا فيه، ورأينا عند مدخل كل قسم لوحة فيها البيانات اللازمة عن المنطقة التي استقدمت منها النباتات، وميزان الحرارة يبين درجة الحرارة لذلك القسم.

وكلما توغلنا إلى الداخل شعرنا بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة، وفي قسم منها شعرنا بجو كجو جدة أو المنطقة الشرقية في أيام الومد. وأخذ الجسم يتصبب عرقاً، فأسرعنا للخروج من هذا القسم قائلين لنترك هذا الجو لمحله ولوقته، فكل شيء في محلة ووقته يكون جميلا.

ورأينا في هذه المحلات الزجاجية أشجار النخيل التى ذكرتنا ببلادنا، وأشجار الموز صورت لنا الزيمة وسولة والشرائع وشجر الكادى فكرنا بوادى فاطمة، وشجر الدوم بوادى بيش في الطريق إلى جازان.

وشاهدنا في هذه البيوت الزجاجية قسم النباتات الصحراوية، وكانت الأرض فيها رملية جافة، وفيها بعض الزواحف الصغيرة كعظايات، واسترعى نظرنا الحنظل «الشرى» أونبات يشبهه، والحلفا والعنصل ــ (البصل البرى) الذى يكثر وجوده في نفوذ السر بعد الأمطار.

ومررنا في تجوالنا بين أقسام الحديقة على نبات غريب تُنشر أغصانه فوق غدير ماء، وأوراقه قليلة وتتدلى من كل عقدة من عقد فروعة مايشبه السلسلة أوكبعض حلية النساء طولها عشرة سنتيمترات تقريباً، ونبات آخر فروعه كفرع شجر (الطرف) المعروف في مكة، ولكن بصورة مكبرة، وكأنه قطن مندوف.. فسبحان الخلاق، وتذكر الشيخ قوله تعالى: **(أمَّن خلَق السَّمٰوات والأرض وأنزل لَكُم مِنَ السماءِ ماءً فأنْبتنا بِهِ حَدائقَ ذَات بَهْجةٍ ما كَان لَكُم أن تُنبتُوا شَجَرها أإلٰهٌ معَ اللهِ؟ بلْ هُم قومٌ يعدِلون).**

وطال تجوالنا وشعرنا بنوع من التعب لاستمرار السير السريع الطويل أكثر من ساعة، فقال الشيخ: يكفينا من حديقة النباتات ما شاهدناه، وقد مررنا بأهم أقسامها، وكان الإخوان يريدون أن نذهب إلى بحيرة الحديقة وأقسامها الفسيحة التى يؤمها رواد الحديقة للجلوس على المقاعد والاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة.. فقال الشيخ: نكتفي الآن بهذا القدر وخذوا بنا إلى مكان آخر يستحق المشاهدة.. فخرجنا من الحديقة وأخذنا الأخ عبد الرحمن بن عبد العزيز إلى جامعة أدنبرة.. وعندما اقتربنا من بناياتها ــ التى تبدو كأنها بنايات أثرية، أرانا مبنى كلية الزراعة التى يحضر فيها رسالة الدكتوراه وأقسامها وغرفة المشرف على رسالته..

كما أرانا الأخ محمود أسد الله قسم الجغرافيا من الكلية التى يحضر فيها رسالة الدكتوراه، وغرفة المكتبة التى يقضى فيها ساعات طويلة..

ثم صعد بنا الأخ عبد الرحمن في القسم الداخلى إلى غرفته حيث كان أخوه الأخ عمر بن عبد العزيز ينتظره على حسب الاتفاق..

وكانت دار الطلبة هذه في ممراتها وجدارها الداخلي وأرض ممراتها وأبواب غرفتها وحماماتها أنموذجا للنظافة والأناقة والذوق الرفيع، وكأنه فندق فخم، ولهدوء أماكنها وغرفها وممراتها يبدو كأنه دار خالية من السكان..

واسترحنا في غرفة الأخ عبد الرحمن بن عبد العزيز التى يقضى فيها حياة التحصيل والاستزادة والتخصص، ووجدنا عنده على المكتب تقويم أم القرى، وصورة للحرم المكي والكعبة مارةً بتفكيرنا إلى مكة والطائف، كما وجدت أعداداً من جريدة المدينة اليومية، فقرأنا فيها أخبار المملكة التى اشتقنا إليها، وقال لي الأخ عبد الرحمن: لقد كنا نقرأ لك فيها يومياتك سابقاً، ولكنك انقطعت عنها. فقلت له: لعلى أتمكن فأنشر عن رحلتنا هذه على صفحاتها. فقال: لعلك تحرص على ذلك، لأن جريدة المدينة هي الوحيدة من جرائد المملكة التى تصل إليه، ويطلع منها على أخبار المملكة.. وقد تمكنت ــ والحمد لله ــ من تنفيذ رغبته بناء على مالقيته من الترحيب والتشجيع من الإخوان الكرام القائمين بجريدة المدينة حفظهم الله.

إلى محطة القطارات:

وعندما فكرنا في القيام من عند الأخ عبد الرحمن، قال الشيخ محمد: لنذهب الآن رأسا إلى محطة القطارات لنحجز للعودة إلى لندن غداً.. وعرض عليه الأخ عبد الرحمن أن يمكث يومين أوثلاثة على أقل تقدير لنقوم برحلة إلى شمال أسكتلندا ومرتفعاتها التى يؤمها ألوف السياح، فاعتذر له الشيخ محمد شاكراً له هذا العرض بضيق أوقاته، وأنه حريص على العودة إلى الوطن سريعاً ويجب أن يمر بمدن وأماكن أخرى..

وتنفيذا لرغبة الشيخ توجه الإخوان إلى محطة القطارات والمحطة تحت الأرض أوجزء منها تحت الأرض، وأجزاء أخرى فوق الأرض، ومكاتب قطع التذاكر ينزل إليها المراجعون بدرج لاتقل عن عشرين درجة، وللنزول وللصعود درج آخر، وكان الممران للنزول والصعود مزدحمين بالنازلين

والنازلات، والصاعدات والصاعدين، وكأن أهل أدنبرة كلهم يريدون السفر أو كلهم قادمون إليها.

ولم نشعر بعد أن ابتعدنا عن سطح الأرض بثلاثة أوأربعة أمتار في العمق بأى شعور يدل على أننا تحت سطح الأرض..

فالمكاتب مزدحمة بالمراجعين، وحركة القادمين والمسافرين على قدم وساق وبرغم الازدحام وكثرة الناس، فالمكاتب تؤدى عملها في هدوء ونظام، والمراجعون يقفون صفوفاً متقاطرة دون جلبة ولا صخب.

وتقدم الإخوان ومعهم فضيلة الشيخ محمد بقطع ثلاث تذاكر، والثالث هو الأخ محمود الذى رغب فضيلته أن يرافقنا إلى لندن ثم يعود..

وذكر الإخوان أن قطع التذاكر وحده لا يكفي هنا لمن يريد الراحة، بل لابد من حجز المقاعد، لأن صاحب التذكرة يسمح له بدخول القطار، ولكن لا يؤمن له المقعد إلا بالحجز، فإذا كان القطار مزدحما ظل الراكب واقفاً حتى يجد محلا أويقطع الرحلة من أولها إلى آخرها واقفاً وبناء عليه حجزنا ثلاثة مقاعد متقاربة، ولم نتمكن من حجزها متجاورة.

الخروج من المحطة :

وصعدنا إلى سطح الأرض مع الصاعدين حيث الشمس المشرقة، والناس مبتهجون بها ويسيرون الهوينا للاستمتاع بدفئها وأشعتها.. وأردنا أن نتجول قليلا في الأسواق، ولكنا شعرنا بأننا في حاجة إلى العَلاق ــ بفتح العين وهو ما يتعلل به قبل الغداء ــ فدخلنا أقرب مقهى ومطعم وأخذ كل منا ما رغب فيه من طعام أوشراب، فاكتفى الشيخ بالقهوة، واكتفيت بالبيبسي كولا والإخوان أخذوا سندويتشات «مربة».

وبرغم ازدحام المقهى والمطعم وعدم وجود موائد خالية، وجلوسنا متفرقين

مع الجالسين، فقد جاء الخادم لكل واحد منا حالما جلس على الكرسي، وأخذ رغبته وأحضر الطلب دون أى تأخير.

وخرجنا من المطعم إلى شارع الأمير وهو شارع طويل، وفي ناحية منه حديقة عامة ينحدر إليها روادها لانخفاض مستوى أرضها، ومدخلها مزدان بكتابات الترحيب بأزهار حمر تتخللها أزهار صفر. وعلى نشز من الأرض المعشوشبة ساعة كبيرة في الأرض الخضراء أرقامها ودائرتها وعقاربها كلها مكون من أزهار حمر قانية أوصفر فاقعة مثل الساعات التى توجد في حدائق باريس وسويسرا وشيراز. وظننتها رمزاً للساعة، ووقفت قليلا عندها ورأيت عقاربها تتحرك فعرفت أنها ساعة حقيقية..

وبجانب هذه الحديقة تذكار الشاعر سكوت وهو برج طويل على شكل مئذنة على رأسه غرفة، وكان الناس يصعدون إليها بتذاكر.

في متجر ـ اى. سي :

وهو متجر أو معرض كبير في عمارة عظيمة ذات أربعة طوابق، وطابق تحت الأرض، وكل طابق من هذه الطوابق عبارة عن أسواق لا سوق واحدة، يجد فيها الإنسان جميع ما يحتاج إليه، لنفسه أولأهله أولأولاده أو لمنزله أولسيارته أولرحلاته من أدوات وحاجيات وضروريات وكماليات ولوازم الصيف والشتاء على حسب الرواج أوالوضع «الموديلات» ومداخلها للداخلين والخارجين مزدحمة بالرجال والنساء والأطفال، وكل شيء كتب عليه ثمنه ولا محيد عنه، ولا يحتاج المشترى إلى أن يأخذ ويعطي في شراء شيء، فالشيء الذى يريده ينظر ثمنه المكتوب ويدفعه للموظفة القائمة على القسم..

وأراد الشيخ محمد أن يشترى بعض من الملابس، فدخلنا معه واضطر للبحث عما يريده للصعود إلى الطوابق العليا، ورافقه الأخ عبد الرحمن بن عبد العزيز وأخوه، وبقى الأخ محمود لشراء أشياء تلزمه، وبقيت وحدى

وقت بجولة في الطابق الأول على عموم أقسامه.. وأدركت في دورتي على الأقسام أن الأمانة عنوان هذا المحل، وكذلك عنوان من يدخلونه من الرجال والنساء.. لأن في إمكان أى إنسان أن يدخل ويأخذ ما شاء أن ياخذ في زحمة الناس، ثم يخرج إذا كان غشاشاً أوسارقاً، فالمداخل ليس عليها حارس أوبواب.. وقد وقفت على أشياء صغيرة من أدوات الكتابة وقلبتها تقليباً، ولم يسألني أحد ماذا أعمل ولماذا أقف عندها، ولكني لم أجد شيئاً يصلح للشراء، والذى يصلح فثمنة بالنسبة إليّ غال.. كنت ألاحظ هذا وأتأسف على فقدان هذا الخلق الكريم الأمانة في بلدان الشرق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد ـ أن طفت بجميع أقسام الطابق الأول الذى كنت فيه، خرجت إلى الشارع حيث الجو لطيف والحديقة ومناظرها الجميلة أمامي، وقفت طويلاً لعلى أرى إنساناً أعرفه من باب المصادفة ولكن أنّى لى ذلك وأنا في أدنبرة.. ثم عاد إليّ الأخ محمود ولم يعد الشيخ ولا الأخ عبد الرحمن، فقلنا لعلها أولعلهم ذهبوا من الباب الثانى إلى ناحية السيارة، أى أنهم بحثوا عنا فلم يجدونا فذهبوا إلى موقف السيارة، فذهبنا فلم نجد أحداً فبقينا بجوار السيارة لأنها هي الملتقى، وعندما خرج الشيخ والأخ عبد الرحمن وأخوه بحثوا عنا في كل ناحية من نواحي المعرض، ثم جاءوا إلى السيارة آملين أن نكون هناك وكان الأمر كما فكروا.

الغداء :

كان التفكير في هذه الساعة متوجها إلى الغداء فقال الإخوان لنذهب إلى أحد المطاعم القريبة من ساحل بحر الشمال لنقوم بجولة، إما بعد الغداء أوقبله على الساحل ورماله اللطيفة وبلاجه الجميل بوجود الشمس.

ـ ٦ ـ

لا زلنا في أدنبرة عاصمة أسكتلندا، وعلى ساحل بحر الشمال: وهو جزء من المحيط الأطلسي، ومحدود من الشرق بأراضي أوربا الغربية، ومن الغرب بالجزر البريطانية إنجلترا وأسكتلندا، ويتصل من الشمال والجنوب بالمحيط الأطلسي، ويقدر طوله بـ ٩٦٥ كيلومترا وأكبر عرض فيه (٦٤٣) كم، وتمتد سواحل أسكتلندا الشرقية على مياهه..

وينتهز أهل أدنبرة فرصة الأيام المشمسة للخروج لقضاء فترة ما بعد الظهر إلى الغروب فوق رمال السواحل وفي مياه السواحل..

وبمجرد ما اقتربنا من أرض الساحل، تغير الجو واكفهرت السماء بالغيوم الداكنة، والسحب القاتمة، وغابت الشمس، وأخذ المطر ينزل وابلا، وهرع المنتشرون على الساحل وفي مياه الساحل إلى سياراتهم أوإلى المقاهي أوإلى المطاعم أوإلى بيوتهم.. ثم تحول المطر إلى رذاذ وديمة، وشجعنا على النزول من السيارة إلى أرض الساحل، وشاهدنا لأول مرة بحر الشمال ومياهه تصطفق عند أقدامنا، وموجاته الصغيرة تتحطم أمامنا على الساحل الرملي، ولها زبد كالعهن المنفوش أوكالقطن المندوف. ولولا الرذاذ وديمة تهمي لأطلنا السير والبقاء على الساحل، ولكن الرذاذ كان في مد وجزر فخشينا أن تبتل ملابسنا أكثر مما ابتلت، وعدنا إلى السيارة كغيرنا، وتقدمنا بها نحو الشارع الرئيسي باحثين عن مطعم مناسب، والشارع الذى كنا فيه معظمه مطاعم ومقاه... ووقف الأخ عبد الرحمن بسيارته أمام مطعم كبير وقع عليه اختياره، فدخلناه وكانت روائح أطعمته تدل على أنه مطعم شعبي ممتاز، وأقرب إلى أذواقنا الشرقية.. وترك فضيلة الشيخ محمد مهمة اختيار أنواع

الطعام للأخوين، فقاما بالمهمة خير قيام، وما هي إلا دقائق معدودات حتى كان أمام كل واحد منا عدد من الصحون جمعت بين الحساء والخضار وشرائح من لحم عجل حنيذ ونوع من الحلوى.

إلى حوض للسباحة :

وتناولنا الشاى بعد الغداء في المطعم نفسه.. ثم فكر الأخوان في أقرب مكان نخرج إليه ونكون في مأمن من المطر إذا زاد واستمر، فهداهم التفكير إلى حوض للسباحة، ويعتبر هذا الحوض أيضاً من معالم أدنبرة التى يؤمها السياح، وهو مرتفع عن الأرض ووسط عمارة كبيرة، والدخول إليه برسم معين، وأرض الحوض وجوانبه المغمورة في الماء مكسوة بـ(الكاشاني) الأزرق السماوى، يكسب منظر الماء زرقة لطيفة كالبحر، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: للأطفال الصغار وماؤها ضحل ووشل.

والثانية: أكثر عمقاً من الأولى ويسبح فيها الكبار من الأولاد والبنات.

والثالثة: عميقة للكبار. ويبقى الحوض هادئا وراكداً إلى الساعة الثانية والنصف بتوقيت أدنبرة، ثم يعلن للحاضرين بواسطة مكبرات الصوت باندفاع الماء بقوة مع إحداث أمواج اصطناعية تتلاطم وتتصاعد كأنه البحر الزخار، فيبتعد الصغار من الأماكن العميقة إلى الأطراف، وينشط الكبار للسباحة والقفز ولأنواع من الألعاب المائية.

وللقفز في الماء برج مقسم إلى ثلاثة ارتفاعات أيضاً، فالارتفاع الأول للأطفال، والثاني لمن هم أكبر منهم، والارتفاع الثالث وهو عال جداً لا يقفز منه إلا السباحون الأقوياء، وإذا وثب السباح من هذا العلو ظل في الفضاء لعدة ثوان حتى يصل إلى الماء.. وثم مدرج كبير تحت مظلات خشبية لجلوس النظارة، ومن جهة أخرى مدرج في الهواء الطلق..

ومقصف راق يقدم لمن يطلب ما يريده من الشاى أو المرطبات أو الطعام بأسعار معقولة.



كانت السحب قد انقشعت، وظهرت الشمس وعم دفؤها، وازدحم الحوض برواده، فلم يسعنا إلا الخروج والنزول منه إلى ملاعب للأطفال، وكانت بجوار الحوض واسمها ملاعب للأطفال، ولكنها مجتمع عام لترفيه الأهالي والسياح، وهي صورة مصغرة جداً للحديقة التى تعرف في لندن باسم (فن فير) بها وسائل مختلفة للتسلية: كسيارات كهربائية صغيرة يركبها الكبار والصغار ويدورون بها في حلبة محدودة، وغيرها عشرات من الألعاب على طرق مختلفة، ومعظمها لا تخلو عن كونها نوعاً من الميسر، وأكثر الممارسين لها هم كبار السن من الرجال والنساء، فيضع أحدهم عدداً من البنسات في محل خاص من اللعبة، وثم كرات أوغير كرات داخلها تدور

وتمر بعدة محلات، ثم تنتهي الحركة إما بسقوط نقود أكثر أوأقل أو وقوف الحركة دون نزول أى شيء، ورأينا في بعض هذه الألعاب أن وضعت امرأة عجوز خمسة بنسات فتحركت اللعبة، ثم سقط لها من العملة الفضية ما يساوى جنيها تقريباً، ففرحت وراحت في سبيلها.

ومن الألعاب لعبة قراءة الكف: وهي عبارة عن صندوق مثل الثلاجة، فوقه قرص بحجم الكف، ويضع اللاعب نقداً معيناً في ثقب خاص، ثم يضع كفه فوق القرص، فيجد في كفه نغمشة فإذا هدأت الحركة داخل الصندوق يرفع يده وتسقط له بطاقة مطبوعة باللغة الإنجليزية وبها خطوط مرسومة كالكف، والعبارات في الغالب تكون مما يفرح الإنسان، أوتنتهي أحياناً في النهاية بجملة غير مرغوبة أومبهمة، ويظن الأغرار أن الخطوط والكتابة تكتب ساعة وضع اليد فوق القرص، ولكن الحقيقة أن اللعبة مليئة ببطاقات مطبوعة ومرسومة، وكلما دخل اللعبة نقد معين تحركت عجلاته وأسقطت واحدة منها، ولا صلة لها بخطوط اليد أو الكف، وإنما هي طريقة لابتزاز النقود من الناس أولا، ونوع من التسلية ثانياً.

ومن هذه الخزعبلات جئنا إلى ناحية أخرى من سيف البحر، غير التى كنا عندها قبل الغداء، ورأينا بعض قوارب بخارية للمتنزهين، فقال فضيلة الشيخ محمد: دعونا نقم في هذه الأمسية برحلة بحرية في بحر الشمال، فالجو لطيف، والبحر رائق، وتنفيذاً لرغبة الشيخ تقدم الأخوان وقطعوا تذاكر للركوب في القوارب، ثم دخلنا قارباً بخارياً قائلين باسم الله مجريها ومرساها، وامتلأ القارب بعدد من الأسر مع أطفالهم، وفك الربان القلس وأدار الاتجاه إلى الشمال، وبدأ القارب يمخر في البحر، وكان كما قال الشاعر وهو يصف سفينته:

يوثر جريها في البحر أثراً   يكاد به تظن الماء طينا
وتترك خلفها خطاً مديداً   بوجه البحر يمكث مستبينا
ركبت بها على اسم الله بحراً   غدا لسكون لجته رهينا

فرحنا منه ننظر في جمال يعز على المناظر أن يهونا
ومرأى البحر أحسن كل شيء إذا لبست غواربه السكونا
كأنك منه تنظر في سماء وقد طلعت كواكبه سفينا

وعندما ابتعدنا عن الساحل أخذ رذاذ الأمواج الصغيرة ينزل علينا أحياناً كشؤبوب المطر فيرفع الأطفال أصواتهم وضحكاتهم، واستمر الربان في دفع قاربه نحو الشمال حتى غابت عنا أجزاء كثيرة من المدينة، وظهر لنا الجسر (فورث) الذى عزمنا على الوصول إليه بعد هذه النزهة البحرية.

وذكرتنى هذه النزهة الهادئة فى البحر بالمجازفة البحرية التي تورطنا فيها في مياه الخليج العربي في رحلتي إلى الشرق، وشاهدنا فيها من أهوال الدأماء (البحر) ماجعل رفاقي يحرمون على أنفسهم ركوب البحر في مثل هذه القوارب (اللنشات).

كانت أسراب الغرانيق البيض تحوم فوق الساحل والقوارب، وتنزل على صفحة الماء كأنها تصيد الحيتان الصغار، ونظرنا إلى الوراء فوجدنا الساحل قد اختفى عن الأنظار، ولا نرى غير رءوس العمارات العالية، أوالجبال والتلال، ومع ذلك كان البحر ـ والحمد لله ـ رائقا، والرياح رخاء، والجو لطيفاً، والسماء صافية، وشمس الأصيل مازالت حية، وعندما اقترب الربان من بعض الفنارات الصغيرة كعلامة لانتهاء منطقة النزهات البحرية أدار دفة قاربه نحو المدينة، وزاد في سرعة المخر والدفع حتى وصلنا سالمين فرحين بهذه النزهة البحرية اللطيفة.

ثم قال الشيخ للإخوان: وإلى أين تأخذونا الآن؟ قالوا: إلى منتزهات (هولى رود)، وهي عبارة عن تل أوجبل مكسو من جميع جهاته بالعشب الغض النضر، وفي وسط هذا العشب طريق معبد محيط بالتل على شكل حزام تسير عليه سيارات المتنزهين، ويعتبر أقرب متنزه لمدينة أدنبرة عامة، ولطلاب جامعتها خاصة فمبانيها قريبة منه.

وتحركنا من ساحل البحر إلى المدينة، ثم إلى هذه المتنزهات، وفي مدة يسيرة وصلنا إلى هذا التل المخضر وبدأ الأخ عبد الرحمن في السير حوله بسيارته هادئاً هدوء من يريد الاستمتاع بالمناظر الطبيعية، وكلما مررنا بمنظر يسترعي الأنظار وقفنا عنده برهة، وتمنى الأخ عبد الرحمن أن لو حملنا معنا أدوات الشاى لاخترنا بقعة مناسبة للجلوس، وتناولنا الشاى كغيرنا ممن كانوا منتشرين هنا وهناك فقال له الشيخ عمه: إن قصدنا بهذه الجولة أن نشاهد أكبر قدر ممكن من معالم المدينة في هذه الفرصة القصيرة التي تهيأت لنا بوجودكم هنا.

وبعد أن انتهت الدورة حول التل المخضر، انتقل الأخ عبد الرحمن إلي ناحية أخرى من المتنزهات، وهي من نفس منطقة (منتزهات هولي رود) وهو تل كذلك ومعظم أجزائه مغطى بالحشائش إلا الأجزاء الكبيرة العالية من جهة القمة فهى صخور صلدة، ويشرف هذا التل على أجزاء كبيرة من المدينة.

وجلسنا في ظل صخرة لحظات ننظر إلى أدنبرة وكأنها لوحة فنية رسمها فنان بألوان مختلفة. ونظر الأخ عبد الرحمن إلى ساعته ثم قال: لدينا وقت كاف للوصول إلى منتزهات (كراموند) الجديرة بالمشاهدة والرؤية، ومن فاته رؤيتها والوصول إليها فكأنه لم ير شيئاً في أدنبرة. فقام وقمنا معه إلى السيارة.. وأخذ — قواه الله — ينهب الأرض نهباً في سرعة قد بلغ المائة في الميادين الواسعة، ويخفضها إذا دخلنا الأحياء والشوارع الخضراء، ومعظم أوكل بيوت هذه الأحياء على طبقة واحدة، ينفصل كل بيت عن الآخر بحديقة وأراض مكسوة بالعشب الأخضر، وقال الإخوان عن هذه الأحياء والبيوت: إنها مساكن الطبقة الأرستقراطية في هذه المدينة، والتى تحب نفسها أكثر من اللازم، ولذلك تجد كل واحد من هؤلاء قد حجز لأسرته أرضا واسعة ليستقل بحديقته ومزرعته وملاعب لأطفاله ومراع لدوابه، ولا يحتاج إلى الاشتراك مع غيره أوإرسال أطفاله إلى حدائق بعيدة عن

منزله، وكل واحد من هؤلاء يبتكر في حديقته ومزرعته أشياء ومناظر جديدة ليفتخر بها على غيره، ويقضي معظم أوقاته في هوايته المفضلة كالرسم أوالموسيقى أو لعبة الجولف أوجمع الحشرات والفراشات.

والمرور من وسط هذه الدارات لا يخلو من المتعة البصرية، والفرحة النفسية، ثم تنتهي هذه البيوت والحدائق بمنطقة أومراع مترامية الأطراف، وأخيراً وصلنا منطقة جسر (فورث) المشيد على نهر فورث.

وهذا الجسر صرف على تشييده (١٤) مليوناً من الجنيهات الإسترلينية، ولتغطية هذا المبلغ الجسيم فرض رسم معين على كل سيارة تعبر هذا الجسر، وتم بناؤه سنة ١٩٦٢م واتساعه (٢٣٠٠ قدم) وارتفاعه عن سطح الماء (١٥٠ قدماً) ويعتبر من حيث امتداد اتساعه وقلة دعاماته، الجسر الثالث من نوعه في العالم، ومن السهل أن تسير عليه أربعة خطوط للسيارات في وقت واحد ــ عدا الجوانب التي خصصت لسير الدراجات والمشاة، وظل هذا الجسر محتفظاً برقم طوله القياسي لمدة (٢٨) سنة، ثم انتقل هذا الرقم القياسي إلى جسر كويبك على نهر لوران بكندا.

وبجوار مدخل الجسر نصب تذكارى، وهو عبارة عن لوحة صخرية عليها شعار الدولة البريطانية، وتاريخ افتتاحه، ورصت على جوانب هذا النصب التذكارى مقاعد خشبية لجلوس الناس الذين يأتون للمشاهدة وقضاء أمسياتهم على شاطئ هذا النهر الكبير، ورؤية حركة المواصلات فوق هذا الجسر الممتد إلى الشاطئ الآخر.. ومشاهدة السفن الشراعية والبخارية والقوارب السريعة التى تنتشر في مياه هذا النهر.

كانت المقاعد كلها ملآى بالسياح من أجناس مختلفة مثل الهنود والباكستانيين، وأناس من أفريقيا وغيرهم ولعدم وجود مكان للجلوس، غادرنا هذا الشاطئ إلى منتزهات (كراموند) الفسيحة على ساحل بحر

الشمال أيضاً، حيث تجد الأرض مخضرة عِلى امتداد البصر، والناس منتشرون فيها جماعات جماعات..

وجلسنا على ربوة منحدرة نحو البحر لحظات، ثم قمنا بجولة على الأقدام في السهول الخضراء الممتدة على امتداد الساحل، ولا يسمح في هذه المناطق بدخول السيارات ولا الدراجات، وكل من يريد الهدوء والسكون يأتي إليها ويقضي وقته إما سيراً على الأقدام فوق الحشائش، أو يختار بقعة مناسبة على حسب اختياره وذوقه ويجلس.

وفي أثناء سيرنا مررنا بمقصف تناولنا عنده شاياً في الهواء الطلق، وكلما اقترب ظلام المساء، أي بعد غروب الشمس، أخذ الناس في مغادرة المنطقة إلا المتهوسين الوجوديين وأمثالهم من الشباب الخليع، فهم لا يبالون بالظلام ولا بالنور، ورأينا على بعد جماعة منهم يستعدون للسهر والسمر في تلك البرية وفي ظلمة الأشجار التي تشبه الغابة.

وعندما ركبنا السيارة للعودة بعد الغروب وضوء الأصيل لازال باقياً، نظرت إلى توقيت مكة المكرمة فوجدت الساعة تشير إلى الرابعة ليلا.

وعدنا ــ بعد رحلة استغرقت نهاراً كاملا ــ إلى الفندق حيث صلينا وارتحنا قليلاً، ثم خرجنا مع الإخوان لتناول العشاء..

وقالوا: نذهب إلى المطعم الباكستاني، وهو مطعم صغير يديره رجل باكستاني أو هندى، يلبس عمامة كبيرة للدعاية أو لجلب الأنظار إليه، والخادمات يلبسن كذلك الخُمُر (جمع خمار) الحريرية فوق الرءوس، ولكن لا يعرفن من اللغة الهندية كلمة واحدة، وأسماء الأطعمة كلها كتبت بالهندية بحروف لاتينية، ولما كان التلفظ بها يصعب على القوم يستعمل مدير المطعم أرقاما لكل نوع من أنواع الأطعمة..

ومعظم رواد هذا المطعم من الأوربيين، وكأنهم يجدون في الأطعمة الهندية نوعاً من التغيير، أويأتون إليه من باب حب الاستطلاع، وثم عدد قليل من الهنود والباكستانيين ضمن رواده، والأطعمة على الذوق الشرقي، إلا أن مصيبتها الكبرى (الفلفل) فهو جزء هام من تلك الأطعمة ماعدا الرز. لذلك لم نطلب إلا أنواعاً من الرز والحلوى، ومع ذلك لم يخل بعضنا في النهاية من (الوحوحة) لتناول السلاطة أولقمة من إدام جاء مع الرز.. وعالجنا تلك الوحوحة بتناول الشاى أوالبيبسي أو(الآسكريم) وخرجنا ونحن نحمد الله على أنها الأكلة الوحيدة في هذا المطعم، أى الأولى والأخيرة، وعدنا ثانية إلى الفندق وأسرعنا في النوم لأننا سنستقبل من الصباح الباكر رحلة العودة إلى لندن في القطار وتستغرق سبع ساعات. *

حاشية: هنا ألقى إلىّ كتاب كريم من كاتب كريم هو الأستاذ الكبير الشاعر المبدع البحاثة السيد أحمد إبراهيم الغزاوى- بصدد ما أنشره عن (رحلاتي إلى الغرب والشرق) وقد أضفى سيادته على وصف تلك الرحلات من أكاليل الثناء والمدح مالا قبل لي بالاتصاف ببعضه لاكله، فلسيادته أجمل الشكر وأعظم التقدير، ويكفيني من تلك المكارم التى تفضل بها سيادته على محبه أن أذكر معتزاً وفخوراً قوله: (أشعركم بأنني من أوائل القراء الشغوفين بها والحريصين عليها..) فشكراً أيها الأستاذ الكبير.

ومما رغب سيادته فيه أن أهتم بجمع هذه الرحلات وطبعها لتستفيد منها الأجيال الصاعدة) فمرحباً أيها الأستاذ الجليل برغبتكم الكريمة المخلصة، وأرجو الله أن أوفق لتنفيذها.

لا زلتم مصدراً للعلم والأدب والبحث والاستقراء والعاملين له والمشجعين عليه.....

ظهرت المقالات في شكل كتاب كما تمنى الأستاذ الكبير، ولكن بعد انتقاله إلى الدار الآخرة، رحمة الله رحمة الأبرار وجعل الجنة مثواه.

ـ٧ـ

هذه ليلة السفر أو ليلة الوداع لمدينة أدنبرة، ولكن من غير إطالة السهر، لأن الشيخ محمد طريقته فى السفر والحضر واحدة، وهي النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً، بخلاف القوم يسهرون طويلا ويصحون متأخرين، لقد عدنا إلى الفندق بعد العشاء، واتفقنا مع الإخوان على الاجتماع غداً صباحاً مبكراً.. واستسلمنا للنوم..

وفكرة السفر والرحلة كانت كالساعة المنبهة فى إيقاظنا يوم الأحد ١٣٨٨/٥/١٧هـ ١٩٦٨/٨/١٠م فى الميعاد المحدد، وحضر إلينا الأخ محمود أسد الله مبكراً، وفى الساعة الثامنة (بتوقيت أدنبرة) نزلنا إلى قاعة الطعام، فرأتنا العجوز القائمة على شئون المطعم وقالت للأخ محمود: أنسيت أن اليوم يوم الأحد؟ ومعنى سؤالها هذا الاستنكارى أن الفطور فى هذا اليوم يتأخر عند القوم، فلا يقدم إلا الساعة التاسعة، لأنهم يسهرون ليلة الأحد إلى ساعات متأخرة من الليل ولا يستيقظون إلا الساعة التاسعة تقريباً... فاعتذر لها الأخ محمود بالنسيان، وأراد أن يرجع بنا إلى الغرفة ثانية، ولكنها أدركت موقفه بوجودنا معه فقالت: ولكن لا بأس، أهيئ لكم الفطور فادخلوا الصالة. فشكرها الأخ محمود ودخلنا الصالة.. وقدمت لنا (الفطور) المعتاد مع الشاى والقهوة .. وانتهينا من تناول طعام الفطور قبل الناس بسرعة.

ثم أخذنا أهبتنا للخروج إلى محطة القطارات، وجاء الأخ عبد الرحمن وأخوه الأخ عمر فى الميعاد المحدد، وركبنا معهما إلى المحطة حيث كان القطار على أتم الاستعداد للانطلاق بمجرد ما تدق الساعة العاشرة.

وعلى حسب رقم الحجز على المقاعد دخلنا العربة وعرفنا كراسينا، ثم نزلنا وظل الشيخ محمد يتحدث مع أبناء أخيه حتى سمعنا صفارة قيام القطار، فودعنا الأخ عبد الرحمن وأخاه شاكرين لهما حفاوتهما بنا ومبالغتهما في ذلك.. ومنظر الوداع — مهما كان نوعه ووضعه — فهو من المناظر المؤثرة على النفس، وقد تأثرت لوقوف الأخوين في المحطة وهما يودعان عمهما، وكانا يرغبان أن تطول إقامته أكثر من هذا القدر بينهما.. ودعونا للأخ عبد الرحمن وبقية الإخوان المغتربين للاستزادة من العلم أن يرد الله غربتهم بعد نيل الدرجات العالية، ويجمعهم بأهلهم وذويهم في خير وصحة..

بدء الرحلة :

وانطلق القطار نحو الشرق في مدينة أدنبرة وسط أراض زراعية وحدائق عامة، وذكرتني الأراضي الخضراء برحلتي الأولى إلى أوربا وكانت كلها في قطارات..

وتقطع القطارات عادة المسافة بين أدنبرة إلى لندن في ست ساعات، إلا قطار يوم الأحد فيقطعها في سبع ساعات، لأنه يمر بمدن وقرى لا يمر بها في غير هذا اليوم..

وجلست أمامي امرأة كبيرة في العمر وشغلت نفسها بنسيج قطعة من الصوف — بالزنارة — وسألتها عن اسم بقعة مررنا بها، فذكرت لي اسمها مع ذكر بعض معلومات تاريخية عنها، ومن بعدها أخذت تذكر لي كلما مررنا بمدينة أو جسر أو نهر اسمه وشيئا من تاريخه، وما حدث بها أو بالقرب منها من حوادث تاريخية، كأنها مدرسة تاريخ، وسألتها عن مهنتها فقالت: إنها من الجيل القديم، أي الذين لا يدخلون سلك الوظائف، وأنها مسافرة إلى لندن لزيارة ابنها المهندس في إحدى الشركات. وكان معظم ركاب القطار — إن لم يكن كلهم — رجالا ونساء وأطفالا — يحملون معهم جرائد ومجلات أوروايات لتزجية الوقت وعدم تضييعه في غير فائدة،

ولم يمض على تحرك القطار وقت قصير إلا وكان جميعهم انصرفوا إلى القراءة والمطالعة وقل منهم من فكر في النوم.. أما نحن، أى فضيلة الشيخ محمد، وكاتب السطور فكنا مع الأستاذ الشاعر خير الدين الزركلى رحمه الله في قصيدته التي يقول فيها:

خل عنك الكتاب واتل من	العالم سفراً يحيّر الأفكارا
إن في هذه الخليقة أسفاراً	لمن كان يألف الأسفارا
سرّح العين في أباطح خُضْر	تملأ العين روعة وانبهارا..
طرزتها يد الربيع اخضراراً	واصفراراً وزرقة واحمرارا
السبوق اللحوق تعدو فما	تبصر روضاً يلوح إلا توارى

وكان الشاعر ــ رحمه الله ــ يقصد بالسبوق اللحوق: (السيارة) ونحن قصدنا بها القطار.

أول مدينة :

وأول مدينة مررنا بها بعد أدنبرة هي مدينة موسلبرا (Mosselburg) تبعد عن أدنبرة خمسة أميال ونصف الميل، وتقع على ساحل خليج فورت (FORTH) وعلى ساحلها الجميل الأخضر تنتشر ملاعب للعبة الجولف أو الصولجان، وهي بهذه الملاعب وبسهولها الخضر تعتبر كضاحية لمدينة أدنبرة، وقد أرتني السيدة المؤرخة بقايا جسر حجرى وقالت: هذه من آثار الأولين من القرن السادس الميلادى.. وقالت: خذ لها صورة، ولكن القطار كما قال الشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي:

والسبوق اللحوق تعدو فما تبصر روضاً يلوح إلا توارى

فلم تنته السيدة من قولها إلا وكنا قد ابتعدنا عن تلك الآثار.

ثم بدأ القطار في اجتياز منطقة لوثيان (LOTHIAN) الشرقية الخضراء نحو

الشرق، ثم دخلنا منطقة برويك ــ ذات المرتفعات والأنفاق الصغيرة، وعندما اقتربنا من المدن الساحلية كمدينة ــ ليتون (LINTON) ــ وبرويك انحدرنا إلى السهول الخضر ومدينة برويك ــ كما قلنا ــ تعتبر الحد الفاصل بين إنجلترا وأسكوتلندا..

ما يعرفه أهل أسكوتلاندا عنا:

وقبل أن نغادر حدود أسكتلندا أحب أن أعرف القراء الكرام عن بعض ما يعرفه أهل أسكوتلاندا عامة، وأهل أدنبرة خاصة عن المملكة العربية السعودية، فقد اطلعت على صفحات جريدة (سكوتش ديلى إكسبريس) وهي جريدة أسكوتلاندية تصدر في أدنبرة كل يوم صباحاً، وقد أوفدت هذه الجريدة مندوباً وهو: دينزبلبيوت إلى هذه البلاد سنة ١٩٦٦م، واجتمع بجلالة الملك فيصل طيب الله ثراه في جدة، وأخذ من جلالته حديثاً صحفياً نشره مع انطباعاته عن المملكة في عدد خاص أصدرته الجريدة يوم ١٩ سبتمبر، وقال الكاتب الأسكوتلاندى عن جلالة الملك فيصل: لقد نال جلالته قصب السبق في ميدان تعمير بلاده وفي احترامه ومكانته المحبوبة لدى شعبه وفى خارج بلاده، كذلك شخصيته محبوبة.. ومنذ أن تولى أعباء الملك سنة ١٩٦٣م وهو يحرص كل الحرص لتكريس معظم واردات الزيت في تحسين اقتصاديات بلاده..

وفي الحقل السياسي بذل حذقه الدبلوماسي أكثر من ثلاثين سنة بصفته وزيراً لخارجية بلاده في جمع كلمة المسلمين واتحادهم، ومقاومة الشيوعية..

وهو ابن مؤسس المملكة العربية السعودية الملك المجاهد عبد العزيز الذى وحّد بين قبائل الجزيرة بالانتصار عليها، وأعلن تأسيس المملكة العربية السعودية سنة ١٩٣٢م، وعندما اكتشف الزيت في أرضه أخذ فى تطوير بلاده إلى مقتضيات القرن العشرين، وبعد وفاته تولى ابنه سعود المُلْك..

ثم جاء بعده الملك فيصل كطبيب للأزمة الاقتصادية، فأزال جميع مظاهر الترف والبذخ بطريقة حياته الشعبية.

وذكر الكاتب ضمن تصريحات جلالته وقوله: سياستنا مبنية على السلام ونشدان السلام بين الإخوة، ونحن ضد أى إنسان يحاول التدخل فى الشئون الداخلية لأى بلد، وليست لنا أى مطامع نفوذية على أحد..

وثم نبذ قصيرة مع الصور الفوتوغرافية أو الرسوم اليدوية عن معظم أوجه النشاط في المملكة العربية السعودية، وكلمة عن الزيت وأنه يستخرج بمعدل (٢,٤٠٠,٠٠٠) برميل يومياً وأن أكبر الشركات المنتجة للزيت هي شركة أرامكو، وثم شركتان صغيرتان إحداهما شركة جيتي وأخرى الشركة العربية اليابانية، وستقوم هذه الأخيرة بإقامة مصفاة للبترول في جدة لتموين المنطقة الغربية من المملكة.

وثم كلية البترول في الظهران لتدريب الشباب السعودى على الهندسة البترولية والتكنولوجية، عدد طلابها ٢٠٠ طالب، وعن قريب سيبلغ عددهم ٢٨٠٠ طالب.

وهناك مؤسسة بترومين تأسست سنة ١٩٦٢م بمرسوم ملكي، وهي مؤسسة وطنية ذات علاقة بوزارة البترول، مهمتها البحث عن المعادن والزيت، وإقامة مصاف وتسويق الزيت ونقله، وتحسين التعدين والصناعات الكيمائية البترولية.

ونبذة عن وزارة الزراعة، تحت عنوان: «الزراعة تحول الصحراء إلي أرض خضراء»، ومن مشاريع وزارة الزراعة الجبارة مشروع المياه وحفظها وتنظيم الري بها.. وقد تم إحياء منطقة السهباء بالخرج وتوطين الأسر البدوية في المنطقة الشرقية بتخصيص مساحات من الأرض لكل أسرة.. وخصصت الوزارة ١,٢٥ مليون جنيه إسترليني لإقامة سد جازان وسد أبها، وهما على وشك الإنجاز وهناك سدود أخرى ستشيد..

وتأسس البنك الزراعي سنة ١٩٦٣م برأس مال قدره ٢,٥ مليون جنيه إسترليني مهمته المساعدة بتقديم قروض لإنعاش الزراعة في البلاد..

والبنك الرئيسي في البلاد هو مؤسسة النقد السعودى التى تأسست سنة ١٩٥٢م. ثم اثنا عشر بنكاً تجارياً في البلاد.

وقالت الجريدة عن التعليم: إن ميزانية التعليم في ١٣ سنة زادت بمعدل ٢٠٠٠٪ ومعظمها يصرف في تشييد المدارس، وأول جامعة سعودية تم فتحها سنة ١٩٥٧م في الرياض، وكان عدد طلابها في السنة الماضية، أى ١٩٦٥م ــ ١٠٩٠ طالباً موزعون في الكليات الآتية: الآداب والصيدلة والتجارة والعلوم، وعن قريب ستزاد فيها كلية الطب..

وأنشئت سنة ١٩٦٣م كلية للهندسة في الرياض، وكلية التربية في مكة، وكلية للبترول في الظهران.. ومايقرب من ٤٠٠٠ طالب سعودى يتلقون التعليم العالى في الخارج.

وهناك مدارس صناعية وتجارية وزراعية، وإلى سنة ١٩٦٠م لم يكن في البلاد أي نظام لتعليم البنات، أما الآن أي في سنة ١٩٦٦م فهناك ١٩٢ مدرسة حكومية للبنات، و٣٣ مدرسة أهلية لهن ويقدر مجموع عدد الطالبات الآن ٦٠,٣٠٠ طالبة.

وعلى حسب التعاليم الإسلامية هدف تعليم البنت هو إعدادها لتكون متعلمة في المنزل ولا يقصد من التعليم إعدادها لمنافسة الرجل في الأعمال.

والمملكة تحرص على تعميم التعليم الابتدائى والمتوسط لكونه أساسا لبقية المراحل التعليمية.. وتدفع وزارة المعارف للطلبة إعانات ولا يدفع أى طالب مقابل تعليمه شيئاً.

والكبار الذين فاتهم التعليم في الصغر في إمكانهم أن يتدرجوا من مرحلة

مكافحة الأمية إلى التعليم الثانوى، وهناك مايقرب من ٣٠ معهداً لتخريج المعلمين الابتدائيين..

وقالت الجريدة عن الخطوط الجوية العربية السعودية: إنها تكونت عام ١٩٦٣م وتستخدم الآن أكبر أسطول جوى من الطائرات النفاثة في الشرق الأوسط من طراز بوينج ٧٢٠ وكونفير ودى سكس وداكوتا ودى سي ناين، وصرفت ٢٠ مليونا من الجنيهات الاسترلينية في إقامة المطارات في عموم المملكة.

وعن المواصلات في المملكة قالت الجريدة: كانت الجمال والبغال والحمير قبل ثلاثين سنة من وسائل النقل في المملكة العربية السعودية، أما اليوم فهناك مواصلات جوية وطرق معبدة تقرب المسافات البعيدة، وسكة حديد بين الدمام والرياض والموانئ البحرية.. والمراكب البحرية واسطة الاتصال التجارى بين المملكة والخارج من جدة وجازان وينبع والدمام والقطيف، وقد خصصت لميزانية المواصلات ١٣٦ مليونا جنيه استرلينى سنة ١٩٦٦م للقيام بمشاريع عظيمة منها مشروع تكميل طرق طولها ٥٥٠٠ ميل، والمفاوضات مستمرة لإعادة الخط الحديدى الحجازى بين المملكة السعودية والأردن وسوريا ١٩٦٦م، ومصلحة التليفونات والتلغرافات آخذة في التوسع، وجدة أول مدينة سعودية استعمل فيها التليفون الأوتوماتيكي، وبدىء في تعميمه في عموم المملكة.

وعن الصحة: كانت ميزانية الصحة سابقاً في المملكة لا تزيد على ميزانية مستشفى في بريطانيا، أما اليوم فميزانية وزارة الصحة تقدر بـ١٢ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية سنة ١٩٦٦م، وكلها تصرف على المستشفيات التى يزيد عددها عن ٨٠ مستشفى عام، و١٦٥ مستوصفاً و٢٥٠ مركزاً صحياً يعمل فيها ٥٣٠ دكتوراً و٥٨٠ ممرضاً و٢٥٠ ممرضة و٩٠ قابلة.

وقالت الجريدة عن نمو التبادل التجارى بين السعودية وبريطانيا : بلغت قيمة الواردات من سنة ١٩٦١م إلى سنة ١٩٦٦م من ٥ ملايين جنيه استرليني إلى ١٨ مليونا من الجنيهات تقريبا .

ومن باب النصيحة لبني وطنه قال الكاتب : من أراد من البريطانيين التعامل مع السعودية في الحقل التجارى فعليه أن يأخذ معلومات وافية من التقارير الموجودة في فرع مكتب التصدير التجارى للخارج بلندن ٣٥ اوبيلي ، ثم أورد هذه النصائح لأمثال هؤلاء :

* التفاهم بالإنجليزية في السعودية ليس صعباً فالمصالح الحكومية والمحلات التجارية فيها من يتكلم بالإنجليزية .
* يجب احترام الدين الإسلامي ، فالخمر محرمة في البلاد ، وكذلك لحم الخنزير ولا تستورد من اللحوم إلا ما كان مذبوحا على الطريقة الإسلامية .
* والصيارف يصرفون الجنيه الإسترليني بـ ١٢,٥ ريال سعودى .
* والتوقيت — في البلاد السعودية — غروبي وزوالي ويجب أن يلاحظ ذلك عند تحديد المواعيد .
* وعند اختيار وكيل تجارى للتعامل معه يجب أن يكون المحل التجارى مستقلا برأسمال سعودى .
* وفي الاجتماعيات : لا تسأل مطلقاً أحدا عن قريباته .

هذه النصائح قدمتها الجريدة لبني وطنها الذين يريدون التعامل التجارى في البلاد السعودية أنقلها إلى القراء الكرام ليدركوا أن مثل هذه المعلومات يعرفها كل مثقف في أدنبرة .

— ٨ —

مازال القطار ينساب في أراضي اسكتلندا بمنطقة (برويك) وبين مروجها وقراها ومراعيها الخضر، وبحر الشمال عن يسارنا يطل علينا بين حين وآخر بلمعان مياهه وزرقته، وعند المنعطفات نشاهد القاطرة وهي تجر وراءها العربات كأنها بيوت متقاطرة وتذكرت هنا قول الشاعر الرصافي:
(الشاعر يقول ليلا وسفرنا كان صبحاً)

وقاطرة ترمي الفضا بدخانها — وتملأ صدر الأرض في سيرها رعبا
لها منخر يبدى الشواظ تنفساً — وجوف به صار البخار لها قلبا..
تمشت بنا (صبحاً) تجر وراءها — قطاراً كصف الدوح تسحبه سحبا
فطوراً كعصف الريح تجرى شديدة — وطوراً رخاء كالنسيم إذا هبا
تساوى لديها السهل والصعب في الفلا — فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعباً
تدك متون الحزن دكا وإنها — لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
يمر بها العالى فتعلو تسلقاً — ويعترض الوادى فتجتازه وثبا
وتخترق الطود الأشم إذا انبرى — وقد وجدت من تحت قنته نقبا
يرن بجوف الطود صوت دويها — إذا ولجت في جوفه النفق الرحبا

إلى آخر ما قال الشاعر..

اسكوتلندا في كلمات:

وكما ذكرت ما يعرفه أهل سكوتلاندا عامة، وأهل أدنبرة خاصة عن المملكة العربية السعودية من المستحسن أن أعرض على القراء الكرام نبذة خاطفة عن أسكوتلاند ليأخذ منها من أراد فكرة عامة عن هذا الجزء من جزر بريطانيا..

كانت أسكوتلاندا في الماضي دولة مستقلة، ومنذ سنة ١٦٠٣م (١٠١٢هـ) بدأ التقارب بين إنجلتر وأسكوتلاندا، وأخيرا اتحدت مع إنجلترا سنة ١٧٠٧م (١١١٩ هـ) وأصبحت أسكتلاندا من المملكة المتحدة..

كان الرومان يسمون هذه الأرض باسم كلدونيا وفي القرن الخامس الميلادى (أى قبل الهجرة بأكثر من قرن جاء أناس من أيرلندا يعرفون باسم أسكوت وسكنوا هذه الأرض، وكونوا بها دولة، ومنذ ذلك الحين سميت الأرض اسكوتلاندا أى أرض أسكوت)

واشتهرت أسكوتلاند منذ القدم بخيولها الضخمة، وبراذاينها الصغيرة الحجم، وكلابها الضخمة، وبنوع من القماش الصوفي ذى المربعات الذى يستعمله أهلها بكثرة، ومشهورة كذلك بمياهها العذبة .. مساحتها: ٣٠,٤٠٥ أميال مربعة، وأكبر طول في هذه المساحة يقدر بـ٢٧٤ ميلا، وأكبر عرض ١٤٥ ميلا.

سكانها يقدرون بأكثر من خمسة ملايين نسمة، ٩٢٪ منهم أسكوتلانديون، و٧٪ من الإنجليز والأيرلنديين، و١٪ يعتبرون أجانب أى من غير الجزر البريطانية.

ومن حيث أراضيها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم المرتفعات الشمالية هايلاند (High-land)، وقسم الأراضي المنخفضة الوسطي، وقسم النجاد الجنوبية.. والمرتفعات الشمالية عبارة عن سلستي جبال، تعرف بالمرتفعات الشمالية الغربية، مرتفعات جرامبيان (GRAMPIAN) وهي عبارة عن سلاسل متوازية من الجبال ممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتتخللها أودية وأراض منخفضة وتعتبر قمة نيفي (NIVY) في هذه المرتفعات أعلى قمة في الجزر البريطانية ترتفع ٤٤٠٥ أقدام عن سطح البحر.

وأشهر أنهارها: (كلايد وإسبي) و(دى) و(تى) و(فورت) و(تو يد) وأهمها الآن (كلايد) وكان سابقاً نهراً ضيقاً وضحلا، فزيد في اتساع مجراه

وعمقه بالآلات، وأصبح من السهل الآن لعابرات المحيط من المراكب الدخول فيه والوصول عن طريقه إلى المدينة (جلاسجو) الصناعية. ومعظم أنهارها تجرى نحو الشرق وتصب في بحر الشمال.

وتتكون اسكوتلاندا من ٣٣ مقاطعة..

مناخها: صيفها بارد وشتاؤها قارس ولاسيما في المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل، ودرجة الرطوبة زائدة، والأمطار تنزل بغزارة في منطقة المرتفعات الغربية أى بمعدل ١٠٠ بوصة في السنة.

وتعتبر أسكتلاندا ضعيفة فى مواردها الطبيعية، فخمسة أسداس أراضيها مهملة من غير زراعة.. وأنشئت بعد الحرب العالمية الأولى بعض الغابات، ومياهها العذبة تعد من مواردها الطبيعية. وتستخدم مياه الأنهار السريعة الجريان في توليد القوى الكهربائية..

ووجدت أخيرا كميات قليلة من الحديد الخام والزيت والفحم، وتكثر بها الماشية وبلغ عددها قبل سنوات ٧,٥٠٠,٠٠٠ رأس غنم، وترعى هذه المواشي في المراعي العامة تحت رقابة الكلاب الاسكوتلاندية.

اللغة:

كانت لغة الأسكوتلانديين القديمة لغة الغال، ولم يزل بعض سكان المناطق الشمالية النائية يستعملونها، أما غير هؤلاء فقد هجروها واستعملوا اللغة الإنجليزية، ولكن بلهجة خاصة، ومعظم الاسكوتلانديين يعيشون على التجارة.

ومن مدنها الشهيرة: العاصمة أدنبرة وهي قائمة على أطراف سلسلة من المرتفعات، وصارت عاصمة من سنة ١٤٣٧م (٨٤١هـ) وهي مركز للثقافة والأدب والتجارة، وتشتهر بجامعتها التى قامت سنة ١٥٨٧م (٩٦٦ هـ)

ومدينه جلاسجو: (GLASGOW) وهي مركز لصناعة الحديد والصلب، وبها معامل نسج الصوف والقطن والكتان والحرير والأقمشة المصطنعة من غير هذه المواد.

وتعتبر مدينة دندى (DUNDEE) فى الشرق مركزاً هاماً لإنتاج الخيش، ومن المدن الشهيرة أيضا (ابردين) (Aberdeen) و(ايرول) وانفرنس (Inverness) فى الشمال وسنت اندروز (ST. ANDRWS)

وبها أربع جامعات: جامعة أدنبرة، وجامعة سنت اندروز، وجامعة جلاسجو، وجامعة (ابردين) والتعليم المهني فيها متقدم جداً، والمعهد المهني الملكي في مدينة جلاسجو يعد أكبر معهد من نوعه في الإمبراطورية البريطانية.

وهذه نبذة مقتضبة عن أسكتلاندا أقدمها للقراء الكرام، ونحن نودع حدود هذه الأرض النائية بالنسبة إلينا.

منطقة نورثمبرلاند: (Northumberland)

وبعد انتهاء حدود أسكتلاندا ومرتفعاتها الصخرية دخلنا منطقة (نورثمبرلاند) والجزء الساحلى الشرقي منها سهول تكسوها الأعشاب، ومن هنا اتجهنا إلى الجنوب فمررنا بمدينة (بيل) (BEAL) الجميلة الهادئة وكأنها روضة غناء أو حديقة غلباء لكثرة ما حولها من الأشجار والمروج، ثم مررنا أو بالأصح وقفنا في محطة مدينة ميدل تاون (Middle Town)، وهذا الاسم يطلق على عدة مدن في إنجلترا والولايات المتحدة.. أما هذه فمدينة إنجليزية من مقاطعة نورثمبرلاند.

وبعد سير استمر مايقرب من ثلثي ساعة وقف القطار على محطة مدينة دار لونجتون دقائق، ثم تحرك وكان الأخ محمود أسد الله يجلس بجوار فضيلة الشيخ محمد ويشرح له عن هذه المدن التى نمر بها شرحاً وافياً لتردده عليها.

والإنسان مع تغير المناظر من أرض خضراء إلى عبور على النهر عن طريق الجسور، أو دخول في النفق لا يشعر بأى ملل أو تعب برغم طول الطريق والرحلة ..

الشاى والغداء :

وفي أثناء سيرنا دخل العربة خادم مقصف القطار، وقدم لكل راكب شاياً أو قهوة، ولكن بالثمن والبطاقة التى كتب فيها الثمن، فالقوم لا يعرفون غير الجد المادى، أما المجاملة والكرم الحاتمي والضيافات فقد تركوها لنا، فلهم أخلاقهم ولنا أخلاقنا ونحمد الله عليها ..

وأعلن خادم آخر بين الركاب بعد تناول الشاى: بأن من يريد الغداء يبدى رغبته فيقدم له بطاقة خاصة للدخول إلى المطعم أو عربة الطعام .. وأبدينا له الرغبة، فقدم لنا ثلاث بطاقات .. وبعد ما يقرب من نصف ساعة قمنا إلى عربة الطعام في نهاية القطار .. وكانت فخمة جداً في مقاعدها الوثيرة، وموائدها البراقة وأنواع الأطباق والصحاف والملاعق والشوكات .. وجلسنا على مائدة رباعية أى بها أربعة كراسى .. وأخذ خدم المطعم يقدمون لكل واحد على حسب طريقتهم قطعاً صغيرة من الخبز لو ترك لأحدنا مجال الحرية في الأكل لأتى على كل ما قدم للثلاثة وطلب المزيد، ولكن لكل قوم عادة وطريقة لابد من مراعاتها .. وقدم مع قطع الخبز نتفة من الزبد .. ثم جاء بقدح صغير فيه شربة دجاج ساخنة، بقينا نتعلل بها ما يقرب من ١٠ دقائق .. ثم جاء خادم آخر وسألنا: هل نريد كبدة مشوية أو فراخا .. وتركنا الأمر للأخ محمود فطلب لنا فراخاً .. فذهب الخادم وكأنه يعمل بالحكمة العربية: «من تأنى نال ما تمنى» أو «العجلة من الشيطان» وما أكثر الشياطين هناك حين تعدهم.

وعاد الخادم بعد خمس عشرة دقيقة تقريباً وهو يحمل معه الفراخ المشوية نصف فرخة — لكل واحد .. ومن عادة القوم أنهم يطيلون في عملية المضغ

والبلع بالتدخين والتحدث، أو في التقطيع والتناول، أما نحن فعلى طريقتنا خير البر عاجله، وبرغم تصنعنا للتؤدة والهدوء المصطنع انتهينا من تناول نصف الفرخة في مدة أطول قليلا عن المألوف لدينا، وبقينا في انتظار ما في الغيب تاركين الخشارة. (الخُشارة بالضم ما يبقى على المائدة مما لا خير فيه) فى أطباقها، واضعين الشوكة والسكينة فوقها كعلامة للفراغ.. حتى جاء أحد الخدم وأبعدها عنا ومسح المائدة..

وبعد ربع ساعة تقريباً جاء الخادم بالحلوى وهى من نوع الآسكريم المتوج بنصف خوخة من خوخ العلب وأحببنا أن نطيل في التناول، ولكن مهما أطلنا فلن نكون مثل القوم.. وانتهى ما في الكوب فمتى يأتى من يبعده عنا؟ لم يأت إلا بعد انتظار.. ثم وقف علينا عملاق وبيده الأكواب وأخذ يسأل كل واحد: شاى أو قهوة؟ فمن قال الشاى وضع كوبه مقلوبا ومن طلب القهوة، وضع كوبه معدولا..

وذهب وبقينا نتطلع إلى الأرض الخضراء التى يجرى فيها القطار وما بها من قرى وضيعات وأكواخ.. حتى مر بنا خادم يحمل في يده إبريقين أحدهما فيه الشاى، والآخر فيه القهوة — فمن وجد كوبه مقلوباً عدله وملأه بالشاى، والآخر أى الكوب المعدول ملأه بالقهوة دون أن يسأل أو يتكلم.

واستغرق مكثنا في عربة الطعام أكثر من ساعة.. والقطار في هذه الأثناء قطع مسافات شاسعة. وبعد عودتنا إلى عربتنا سألت السيدة التى بجوارى عن المكان الذى يسير فيه القطار، فقالت: نحن الآن عند مدينة نيوكاسل، وهذا جسرها التاريخي الذى نمر من فوقه وتحتنا نهر تين (Tyne) — الذى تعرف المدينة به فيقال نيوكاسل — أب أون تين - (Newcastle upon tyne) وجزء من المدينة يبدو على أطراف النهر ومنازله كأنها مربعات أو مستطيلات تتخللها شوارع ممتدة وأخرى فرعية.. وكأن رساما رسم تلك المربعات والمستطيلات بالمسطرة.

ولم يزل اتجاه القطار نحو الجنوب في منطقة كلها سهول خضر.. مارين بمدينة درام حيث أشارت السيدة الجارة إلى بعض آثار قديمة وقالت: هنا وقعت معركة تاريخية بين الأسكتلانديين وأعدائهم وهزم فيها الأسكتلانديون..

مدينة دار لنجتون : (Darlington)

ووقف القطار في محطة مدينة دار لنجتون، وقد أخبرتني السيدة العجوز أن هذه المدينة شاهدت أول قطار مشى على الأرض، وأن القاطرة الأولى التى سحبت القطار لأول مرة لا تزال موجودة في محطة هذه المدينة كأثر تاريخي..

وملاحظة السيدة هذه ذكرتني بقصة جورج استيفن (George STEVEN) الذى يعرف في التاريخ بأبي القطارات كان راعياً من رعاة البقر في هذه الأراضي، ثم وظفه أحد ملاك مناجم الفحم في منجمه لعزل الفحم من الحجارة.. ثم انتقل إلى وقاد في أحد المحركات، ومن ثم ترقى وصار مهندسا ميكانيكيا بالمران والتجربة، ثم اختار الإقامة في قرية على مصب نهر «تين» الذى اجتزناه في القطار، وكان عمله أن يسير مع قاطرة تجر عربة مشحونة بالفحم إلى أحد التلال القريبة، وفي أثناء قيامة بهذا العمل كان يفكر دوماً بقوة البخار ودرس جزئيات القاطرة الأولى التى اخترعها قبله (تريف ثك) وقد وجد من لدن أحد الأغنياء مساعدة مالية لإخراج فكرته واختراعه إلى الوجود، فانصرف إلى تنفيذ الفكرة ليلا ونهارا، حتى نجح في عشرة أشهر وظهرت قاطرته بشكل أقوى وأحسن، واستطاع أن يجربها ثماني عربات مشحونة بالفحم الحجرى الذى يزن ثلاثين طناً.. وذلك سنة ١٨٢٥م (١٢٤١ هـ) ولرداءة الطرق في تلك الأيام سيرها على قضبان من الحديد بين مدينة ستوكتين ودار لنجتون.. وخرج ألوف من الناس لمشاهدة أول قطار وقاطرة قادها جورج استيفن. وكان لها صوت مزعج فسماها الناس: «غلاية نفاثة» وكثرت الاعتراضات والانتقادات

عليه من جانب العامة والخاصة، فمن قائل: إن صوت هذه القاطرة المزعج ينفر الماشية ويجعلها تهرب إلى مسافات بعيدة..

وقال بعضهم: إنها خطرة على الحيوانات التى تقف أمامها. وقال أحد الاستقراطيين المولعين بالصيد: إن صوت القاطرة يجعل الحيوانات تهرب من محلاتها.. وقال بعض الأطباء في تلك الأيام: إن دخانها يضر الناس لاسيما عند دخولها في بعض الأنفاق، ومع هذه الأقوال والاعتراضات، استمر العمل به كوسيلة لنقل الفحم والبضائع، وطبقة العمال، وكان الارستقراطيون يشمئزون من الركوب لهذا السبب..

وأخيراً ركبت الملكة فكتوريا سنة ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) من لندن إلى وندسور (Windsor).. ومن بعدها صار القطار وسيلة للمواصلات للخاص والعام.

هذا الاستطراد ذكرتني به ملاحظة السيدة التى أخبرتني عن أول قاطرة ووجودها في هذه المدينة دار لنجتون التى مررنا بها..

ومررنا كذلك بمدينة ليدز، ثم مدينة دون كاستر، (Doncaster) ومنها إلى مقاطعة نوتنجهام، (Nottingham) ثم لنكولن (Linoolin) ، ثم استيفورد، (Steaford) ، ثم المدينة الكبرى بيتربره (Peterbourogh) وتعد من المراكز الهامة من ناحية حركة القطارات..

وأخيراً وصلنا محطة لندن الشمالية الساعة الخامسة، وكأن المحطة مدينة للقطارات.. وبمجرد ما فتح باب القطار اندفع الركاب إلى أرض المحطة ولكن دون مدافعة أو مسابقة، وحمدنا الله على أن انتهت رحلة القطار بسلام وراحة، واستغرقت نهاراً كاملا.

ومن المحطة أخذنا الأخ محمود أسد الله إلى مدخل ـ (اندرجروند) (Underground) أى قطار تحت الأرض، وكان فضيلة الشيخ حريصاً

على استعمال هذه الوسيلة الجديدة للمواصلات، بعد أن جربنا كل وسائل النقل من تاكسى وأتوبيس وقطار وطائرة، ونزلنا إلى باطن الأرض بعشر درج على أقل تقدير ونحن نقول: (يا ألله مقسوم خير)..

وكان فضيلته يظن أن الإنسان يتضايق تحت الأرض، ولكن عندما نزلنا ووصلنا الموقف مع عشرات من الناس لم يكن هناك أى فرق بين الجو فوق سطح الأرض وتحت الأرض.

ـ ٩ ـ

أندرجروند ـ أو قطار تحت الأرض :

كانت لندن أولى مدن العالم في ابتكار واستخدام قطارات الأنفاق تحت الأرض وذلك سنة ١٨٦٣م (١٢٨٠هـ) أي في عهد السلطان عبد العزيز العثماني ، وقد احتفل قبل ثلاث سنوات بمرور قرن كامل عليها .

وهي شبكة مكونة من سبعة خطوط (زيد قبل أيام قليلة خط ثامن) مختلفة الأعماق ، فبعضها ينزل إليها بعدد قليل من الدرج ، والبعض ينزل إليها بدرج سحاب (أوتوماتيكي) ، والغريب في الأمر أن الإنسان لا يشعر بأي ضيق أو ملل من ناحية الهواء والنور في انتقاله من مكان إلى آخر، أو وقوفه في المواقف انتظاراً للقطار، وهذه القطارات هي الوسيلة الوحيدة لأهل لندن للانتقال من مكان إلى آخر في المدينة وبأقل أجرة وأسرع وقت ، أما الوسائل الأخرى فكلها معرضة للتأخير، وفي الوقت نفسه أجرتها أغلى من هذه الوسيلة .

ركبنا القطار الذى يبدأ من الشمال وفى سرعة خاطفة قطعنا مسافة طويلة نحو الجنوب ، ثم ركبنا قطاراً آخر بعد أن نزلنا إلى عمق أكثر، واتجه القطار الثانى نحو الغرب بنفس الأجرة التى دفعناها عند النزول الأول ، وخرجنا في شارع (بيزوتر) (BAYSWATER) القريب من العمارة التى فيها (شقتنا) ..

ولم يكن صعودنا إلى الشقة للاستراحة أو الجلوس ، بل للتخفيف من

الأشياء التى معنا في الرحلة، وكنا ـ والحمد لله ـ برغم الرحلة الطويل في أتم النشاط فغادرنا الشقة ونزلنا إلى الشارع..

إلى هايد بارك : (HYDE PARK)

كان فضيلة الشيخ محمد يرغب في مشاهدة هذه الحديقة وخطبائها الذين يؤمونها للخطابة كل أحد.

وقد سمع فضيلته كثيراً عنها فلا بد من رؤيتها وقال للأخ محمود: لنذهب إلى هايد بارك، فأسرع الأخ إلى محطة (أندرجروند) ونحن معه، ونزلنا بواسطة الدرج السحاب (الأوتوماتيكى) الذى يقف فيه الإنسان على الدرجة الأولى ولا يرى نفسه إلا وهو منحدر أو صاعد على حسب الرغبة..

وفي ثوان معدودة يصل إلى نهايته .. ولكن الشباب من الإنجليز يرون هذا الدرج بطيئاً كذلك، فينزلون أو يصعدون عليها ركضاً ولا يحبون الوقوف في مكان واحد كالمسنين الضعاف.

وكان فضيلة الشيخ محمد معجباً بهذه القطارات (أندرجروند) لأنها تساعد على سرعة الوصول إلى المكان الذى يريده الإنسان دون عوائق المرور.. أما لو سار في سيارة أجرة، أو سيارة خاصة، أو أتوبيس لاضطر للوقوف مراراً تبعاً للمرور وإشاراته وازدحام السيارات. وبعد أن نزلنا عمقا بطريق الدرج السحاب، مشينا في ممر ثم نزلنا عمقا آخر بواسطة درج عادى، ثم ركبنا القطار المتوجه إلى البوابة الرخامية ـ ماربل ارك ـ (MARBLE ARCH.) وهي بوابة رخامية وكانت في يوم من الأيام مدخلا لهذه الحديقة.. أما الآن فهو يقف كرمز تاريخي..

وعند دخولنا إلى هذه الحديقة من ناحية الخطباء وأحب فضيلة الشيخ أن يعرف شيئا عن تاريخ هذه الحديقة فقلت له: سأخبرك بعد المراجعة..

فهي حديقة مساحتها (٣٦٣) فداناً في غرب لندن، وكانت تابعة قديماً لكنيسة وستمنستر التاريخية، ثم استحوذ عليها ملك إنجلترا في القرن السادس

عشر الميلادى ــ القرن التاسع الهجرى، وكان لها بوابتان تاريخيتان إحداهما مشهورة بزاوية هايد بارك في الجنوب الشرقي منها، وتم بناؤها سنة ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ) على تصميم يوناني. والبوابة الثانية البوابة الرخامية «ماربل ارك» فى شمالها الشرقي، وهي شيدت تذكاراً للقائد نيلسون في سنة ١٨٥١م (١٢٦٨هـ) إلى هذا المكان، وصارت بوابة لهايد بارك، وفي سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ) اقتضت مصلحة المرور فاقتُطع جزء من الحديقة توسعة للشارع، وبقيت البوابة منعزلة كتذكار تاريخي..

وبجوار حديقة هايد بارك حديقة أخرى اسمها «حديقة كنزنجتون» وبين الحديقتين بحيرة صناعية طولها ١٥٠٠ ياردة، وتعرف هي والنهير الخارج منها باسم «سربنتين» (Serpentine) وأقيم على هذا النهر جسر جميل، ويعد هذا الجسر والنهير من أجمل مناظر هذه الحديقه، وعلى شاطئ هذا النهر الشمالى يمتد حمى للطيور المختلفة..

وأصبحت هذه الحديقة من القرن السابع عشر (أوائل القرن الثالث عشر الهجرى) كمعرض للأزياء (للموديلات) خاصة من شهر مايو إلى نهاية يوليو، حيث كانت تبدو في مناظر رائعة الألوان.. ثم تحولت إلى مركز للنشاط السياسي، وخصصت ناحية (ماربل بارك) بالنشاط الخطابي في الأديان والآراء الاجتماعية..

وهي الجهة التى قصدناها اليوم، وهي مركز الخطابة الحرة، وفي وسع كل إنسان مثقف أو مهوس لديه فكرة صائبة أو خائبه أن يرتفع على خشبة أو سلم أو كرسي ويخطب فيها.. سواء أكان عنده مستمعون أم لم يكن أحد وإذا لم يكن عنده أحد يرسل صيحاته في الهواء حتى يأتيه بعض من يطوفون على هؤلاء الخطباء من باب الترفيه والتسلية..

ومن المشترط على هؤلاء المتكلمين ألا يحدثوا شغباً أو خللا في الأمن

وألا يتعرضوا لذات البارى جل شأنه، وألا يتكلموا في الملكية أى ملكة إنجلترا..

وأول ما وقفنا على رجل أفريقى وقف على كرسي مرتفع وحوله جماعة من الأفريقيين ويخطب بينهم بالإنجليزية..

وقد وقع في النهاية بعد أن خرجنا من الحديقة أخذ ورد بين المستمعين أدى إلى تدخل البوليس، ورأينا منظر الحادث في التليفزيون في تلك الليلة.

وما شاهدناه عند هذا الإفريقي أن استهزأ به أحد الهيبيزيين الإنجليز وقال له: «إنك لا تعرف ذيل الحمار من رأسه». فتحمس الخطيب الإفريقي وأخذ يرد عليه الصاع بالصاع ـ أو (الكيلو بكيلوين) ثم تدخل رفاق الهيبيزي وأخذوه بعيداً عن المناقشة تاركين الخطيب ملتهبا في حماس وصياح وحركات لا شعورية.

ووقفنا عند خطيب ـ قال عنه الأخ محمود: إنه يهودى ـ وكان متحمساً ضد العرب في موضوع قناة السويس وتركناه (يبربر) لربعه، ووقفنا عند رجل هندى وكأنه إفريقى لشدة سمرته، ولم نعلم أكان مسلماً أم مجوسياً، وكان ينتقد أعمال الإنجليز في الهند، ويندد بالاستعمار الإنجليزى، ولم يكن لديه من المستمعين إلا النزر اليسير من جماعته..

وقال فضيلة الشيخ محمد: ليت المسلمين يستغلون هذا المكان في نشرة دعوة الإسلام وشرح محاسن الإسلام بصورة منظمة.. فقلنا معه كذلك: ياليت وياليت !!

ورأينا رجلا يخطب وليس عنده أحد.. وقال الناس عنه: إنه شيوعي يشرح أفكاره.. وتقدمنا إلى ناحية أخرى فرأينا من بعد مناظر نعدها ويعدها كل من يعتبر الحياء خلقاً حسناً مناظر مخالفة للمروءة والإنسانية..

فقال الشيخ محمد للأخ محمود: اخرج بنا إلى جهة أخرى غير هذه.. لقد صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا قال: «إذ لم تستح فاصنع ما شئت»، أخزاهم الله إنهم كالأنعام بل هم أضل.

وقد وصف أحد الكتاب الباكستانيين في نوع من السخرية هذه الحديقة فقال: «إنها بومبي إنجلترا».. وبومبي مدينة لإيطالية دمرتها مواد بركان فيزوف ـ كانت مقر الكذابين والداعرين وحلبة المتهوسين.

خرجنا من الحديقة إلى البوابة الرخامية، ومن ثم نزلنا إلى محطة «اندر جروند» مع المئات النازلين، وقطعنا التذاكر بواسطة آلة أتوماتيكية وضعنا قطعة من النقود المعدنية في ثقب معين.. وتحركت الآلة من داخلها، ثم أسقطت من فتحة صغيرة التذاكر المطلوبة، وتعرض هذه البطاقات على موظفة عند مدخل النفق فتخرمها لئلا تستعمل مرة أخرى.

ثم نزلنا إلى ممر القطارات حيث ركبنا قطاراً متوجهاً إلى الشمال الشرقي، وكان مزدحما لم نجد محلا للجلوس إلا لراكب واحد، فأجلسني فضيلة الشيخ جزاه الله خيراً وظل مع الأخ محمود واقفاً، وفي دقائق خرجنا عند ميدان «بيكاد يلي» (Pica Dilly) وقد وصف الكاتب الباكستاني المتقدم ذكره هذا الميدان بقوله: «إنه ميدان مشهور ومشهور جداً، ولكنه لا شيء، مكتب العمل لهواة روميو الآسيويين ومحل عبرة واتعاظ لذوى الألباب، ومدرسة لبائعى الهوى وفاقدى الحياء» وهو مقر لدور السينما والملاهى ومررنا به وبشوارعه إلى ميدان الطرف الأغر كما يسميه العرب، ويعرف بالإنجليزية (ترفلجار) (Trafalgar) وهي محرفة عن اسم عربي لمدينة أندلسية (الطرف الأغر) وقعت بالقرب منها معركة بحرية بين الأسطول الإنجليزى من جهة، والأسطول الفرنسى والإسباني من جهة أخرى، وكان قائد الأسطول الإنجليزى نيلسون (NELSON) وكانت المعركة حامية الوطيس جرح فيها نيلسون ولكنه انتصر على الأسطولين، وذلك سنة

١٨٠٥م (١٢٢٠هـ) وهذا الميدان الذى هو (ترفلجار) أو الطرف الأغر أقيم على ذكرى الانتصار، ولنيلسون تمثال كبير في هذا الميدان.

وكان الميدان مزدحماً بالناس وأكثرهم من السياح.. ووقفنا مع الناس ثم رجعنا إلى الشقة.. وكانت الشمس على وشك الغروب.. وسلكنا وسيلة «أندرجروند» للوصول إلى الحى الذى نحن فيه.. وقد تذكرت ونحن نسير في القطار «اندرجروند» أن هذه الأنفاق والممرات كانت خير ملجأ لأهل لندن في أثناء الغارات الألمانية فى أثناء الحرب العالمية الثانية. وخرجنا في لحظة قصيرة في شارعنا «بيزوتر»

في السوق :

وأحب فضيلة الشيخ أن يمتار (أى يأخذ الطعام الذى يدخر) قبل الصعود إلى الشقة لئلا يضطر بعد الوصول إلى الشقة للنزول ثانية لاستكمال النواقص والعشاء، فدخلنا في بقالة باكستانية في شارع الملكة كتب عليها باللغة العربية أو بالحروف العربية: (ذبح حلال) ومعنى هذه الكلمة أن البقالة تبيع لحماً زكيٍّ على الطريقة الإسلامية، ومعظم المسلمين في لندن يأتون إلى هذه البقالة لشراء اللحم.. واشترينا من هذه البقالة ما يملأ الثلاجة من جميع الطيبات، وخرجنا من البقالة وكل واحد منا يحمل (كرتوناً) فيه ما لذ وطاب.

ولم تكن العمارة بعيدة عن هذه البقالة، فوصلناها دون حاجة إلى تاكسى أو (اندرجروند)

ورقة من الأستاذ التركي :

ووجد فضيلة الشيخ ورقة من الأستاذ عبد العزيز التركي على باب الشقة يقول فيها: إنه جاء مرتين.. وإنه يدعونا لتناول العشاء الليلة الآتية في محله، وأنه سيأتينا غداً الساعة السادسة بتوقيت لندن.. ليأخذنا إلى مقره..

العشاء :

وقام الأخ محمود وساعده فضيلة الشيخ بإعداد العشاء على الطريقة المعروفة لدينا . وأردت أن أشاركهم فى هذه المهمة على قدر الإمكان فأبى لطف فضيلته حفظه الله إلا أن أرتاح وهو يساعد في إعداد العشاء.. زاده الله قوة ونشاطاً..

وتحولت الشقة كلها مرة أخرى إلى مطبخ بروائح السمن وتحميص البصل، وقلى اللحم مع التوابل التى جئنا بها من البقالة الباكستانية، واستمرت هذه الروائح تملأ الشقة وأجزاءها حتى استوى اللحم ونضج الرز واللحم الذى فيه، وتناولنا العشاء بعد صلاة العشاء، أى الساعة الثالثة بتوقيت مكة.

وسهرنا سهرة قصيرة على التليفزيون وشاهدنا ما حدث في هايد بارك بين الإفريقيين وغيرهم، وتدخل البوليس بهراواتهم لفض الاشتباك.

كما كانت مقابلة تليفزيونية بين إنجليزى ويهودى في موضوع قضايا العرب واليهود، وكان الإنجليزى منصفاً من ناحية العرب.. وتلطف الجو وبرد من استمرار الرذاذ المتساقط دون أدنى صوت..

وظل الرذاذ ينزل طول الليل، وعندما فتحنا النافذة يوم الاثنين ١٣٨٨/٥/١٨هـ الموافق ١٩٦٨/٨/١٢م ونظرنا إلى السماء فإذا هي ملبدة بالغيوم، والرذاذ يتساقط في شكل بخار، ولا يرى إلا بأثرة وعلى أسطحة البيوت ومداخنها، وعلى أطراف النوافذ الخارجية.

وكان النهار على حالة واحدة من حيث الجو والضوء، ولا يعرف تقدم الوقت من تأخرة إلا بالساعات..

وقال فضيلة الشيخ: لنقضي ضحوة هذا النهار في حديقة الحيوان «لندن زو» (LONDON ZOO) ولم تكن بعيدة عن محلنا، فركبنا إليها في تاكسي..

وهي جزء من حدائق ريجنت ومساحتها على شكل مثلث، ولها مدخلان على طريقة الأنفاق.. وأول ما يصادف الداخل قسم الأبوام (جمع بوم) وبمجرد ما رأيناهم قلنا: «ياالله صباح خير.. وقال الشيخ محمد اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك..» وصرفنا النظر عنها وتقدمنا إلى الأمام، وكان على يسارنا مكتب الاستعلامات، ويبحث فيه عن الأشياء الضائعة أو المنسية.. وبعده القسم العلمى للحديقة ويأتي إليها الطلبة والمختصون في علم الحيوان ودراسة طبائع الحيوان..

ومن ثم مررنا بقسم الطيور وبحيرات صناعية، وبمركز للصليب الأحمر ثم بقسم الكلاب الوحشية والذئاب.. والشيء المعروف لدينا لم نكن نقف عنده، أما الحيوانات الغريبة أو الطيور التى لا توجد عندنا فنقف عندها لحظات.. وكانت الحيوانات ـ لكون الوقت مبكراً ـ لم تزل هادئة أو نائمة).

ومررنا بحيوان من ذوات الثدى اسمه (تندا) يشبه الدب القطبى فى حجمه وشكله، ويختلف عنه بسواد أطرافه ووجهه، ووقفنا عند (بيزون) Beson ، الثور الأمريكى الذى جسمه الإمامي أضخم من جزئه الخلفي، كما طالت وقفتنا عند أقفاص الأسود والأشبال واللبوات، وهي على أشكال مختلفة، وكان النوع المعروف باسم (ببر) في شبه هياج نفسي كأنه يحاول التخلص من القفص.. وتدرجنا من عند الأسود إلى الأفيال ثم إلى قسم الزحافات، وكان معظمها هادئة مكورة على بعضها.. ووقفنا عند الإبل والبخت أو القرعوش (الجمل ذو السنامين) طويلا لأنها غير موجودة ببلادنا..

وامتدت الجولة إلى الحظائر التابعة للحمير الوحشية والزرافة والنعامة والدببة البيضاء، وهي تسبح في البحيرة الصناعية، وقد تعبت أقدامنا من استمرار السير والوقفات أكثر من ساعتين تقريباً. وقبل أن ننهي تجولنا جئنا إلى مقصف الحديقة وارتحنا برهة من الزمن، ثم غادرنا الحديقة إلى شارع

(بارك رود) حيث اشترى كل منا ما كان يحتاج إليه .. وكنت أسمع أن الأدوية لاسيما السميات منها لا تباع إلا بوصفة من طبيب، ولا يمكن لإنسان أن يشترى بدون ذلك، فأردت أن أتأكد من هذا القول والخبر، فدخلت مخزن أدوية وطلبت من صاحبه (صبغة يود) وهي من المواد السامة بالنسبة للإنسان فلم يتردد صاحب المخزن وقدم لى زجاجة منها دون أى سؤال أو كلام فأخذتها ودفعت له الثمن المكتوب عليها واشترى فضيلة الشيخ بعض أدوية من غير وصفة طبية ..

ثم عدنا إلى شقتنا عن طريق (اندرجروند) والقطارات في هذه الساعات تكون مزدحمة، وصادف في العربة التى دخلناها وجود عدد من الوجوديين أو (الهيبيز) رجالا ونساء بسخافاتهم ووساخاتهم وحركاتهم الغريبة .. وقد قيل لنا: إن الوساخة من طبع هؤلاء وبقينا نشاهد حركاتهم وضحكاتهم أو سكوتهم وصمتهم إذا كانوا في حالة تفكير أو في حالة غير طبيعية ... وحمدنا الله تعالى على أن شرهم لم يكن يتعدى إلى غيرهم ...

- ١٠ -

وفي عودتنا إلى الشقة مررنا بالنصب التذكارى للسير جورج ألبرت سكوت (S. George Al-Bert Scott) فى حديقة هايد بارك، وهو عبارة عن دكة فى الرخام فوقها بناية لها أربع فتحات فى وسطها تمثال ألبرت، وأقيم هذا النصب التذكارى سنة ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) وعلى أطراف هذا النصب التذكارى تماثيل رخامية لبعض شعوب العالم، والذى استوقفنا من النصب كله تمثال امرأة عربية وبجوارها أولادها وجملها بارك بجوارها، ومنظر الجمل لطيف بالنسبة إلينا لأنه أعاد لنا ذكريات بلادنا الحبيبة، وبعد تناول الغداء والشاي في الشقة نمنا نومة القيلوية . واستأذن الأخ محمود أسدالله في الخروج لزيارة بعض زملائه في الفترة التي نكون فيها عند الأستاذ عبد العزيز التركى استجابة لدعوته لتناول العشاء، وأن يعود إلينا الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

الأستاذ عبد العزيز التركي :

وفي الميعاد المتفق عليه وهو السادسة والنصف جاءنا الأستاذ التركي بنفسه ليستصحبنا إلى مقره ومسكنه بشارع أكسفورد عند بوابه البستان (ارتشدارك) ومن لطفه أخبرنا أنه دعا معنا بعض الإخوان فى مقدمتهم صديقه معالى الشيخ محمد عمر توفيق وزير الحج والأوقاف بالنيابة.. ولم نكن نعلم أن معاليه هناك.

وكنا أول المدعويين وصولا إلى المنزل ، وفتح لنا سيادته الراديو على أذاعة محطة بي بي، سي. البريطانية العربية، ثم جاء أنجال معالى الأستاذ محمد عمر توفيق وعرفنا بهم الأستاذ التركي ، ثم جاء معاليه ومعه الأستاذ

صلاح الدين عبد الجواد من آعيان جدة، ثم الاستاذ عبد الله أبو نهية، مدير التعليم بالمنطقه الشرقية ومعه السيد (عبد العزيز كانو) أحد تجار البحرين.

وكان الاجتماع سعودياً محضاً دل على ذوق الأستاذ التركي الرفيع، وكان السرور باديا على الجميع بهذه الفرصة التى هيأها الأستاذ التركي فى عاصمة الإنجليز، وليس من السهل فى عاصمة كهذه أن يرى الإنسان أخاه أو رفيقه أو بنى وطنه إلا إذا عرف مقره وعمارته، أو رقم تليفونه فيتفق معه على موعد.

وكنا نشعر ونحن مجتمعون فى صالة المنزل كأننا فى مدينة جدة أو الرياض أو المنطقة الشرقية.. وبالرغم من أن أحد الإخوان أخذ وقتاً طويلا فى أبحاث بيزنطية، كان الاجتماع يسوده المرح والبساطة السعودية، وكان الأستاذ التركي يؤانس الجميع بلطفه ودعابته وأحاديثه وطُرَفه، وكنا حريصين على الاستماع لأخبار لندن العربية، ولكن أبحاث الأخ لم تتركنا من الإصغاء إليها.

وفى هذه الأثناء جاء الأخ خالد بن الأستاذ عبد العزيز التركي وفتح باب غرفة المائدة ودعا الجميع إليها، وقد جمعت المائدة كل مالذ وطاب من الأطعمة الشرقية، وكانت –أى المائدة– شرقية وغربية، فالجلوس على الكراسي على الطريقة الغربية، ولكن الخروف الحنيذ الذى يبدو كقمة عالية فوق جفنه الرز المغطى بطبقة من اللوز والزبيب والبيض كان دليلا واضحاً على شرقية الطعام المحبوب إلى المدعوين، وأحيطت جفنة الرز على أمتداد المائدة بأطباق مختلفة الأحجام، متنوعة الأشكال، متباينة الألوان فيها من كل فاكهة زوجان..

وقد تناسينا ونحن على المائدة أننا فى بلاد لا يقدم فيها الطعام إلا بقدر معلوم وحساب دقيق مع (كشف الحساب) داخل كأس أو وسط طبق صغير.

وبعد تناول العشاء عدنا الى غرفة الاستقبال حيث شربنا القهوة والشاي.. وكما أتينا قبل الناس خرجنا قبلهم شاكرين للأستاذ التركي هذه المكرمة والمأدبة الكريمة، وهذه الفرصة الذهبية التى جمعتنا بهؤلاء الإخوان الكرام.

وجلسنا فى الشقة نشاهد التليفزيون حتى عاد الأخ محمود ثم نمنا نومة هادئة.. وأسفر النهار نهار يوم الثلاثاء ١٣٨٨/٥/١٩ هـ ١٩٦٩/٨/٢٣ وأشرقت الشمس وهي محتجبة وراء السحب وذرات الرذاذ المستمر التى لا تحول دون حركة الشوارع والأعمال الخاصة أو العامة.. وعندما جاء ميعاد خروجنا تهيأنا وخرجنا..

وقال فضيلة الشيخ : لنذهب إلى برج الساعة (Big Ben) — التى نسمع صوتها فى بلادنا، فنشاهدها من قرب كما نسمع رنين أجراسها من بعد..

ومن أقرب محطة (اندر جروند) حيث لا يشعر الإنسان بمطر أو شمس أو رذاذ أو رطوبة فى الأرض.. توجهنا إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي.. وفى سرعة زائدة تحركت القطارات يمنة ويسرة، ولا نعرف الاتجاهات إلا بالخريطة، خريطة قطارات (اندر جروند) أو بالإشارات والأسماء المكتوبة على جدار الأنفاق، والذى يعرف الأماكن يعرف الاتجاه كما أنه إذا عرف القطار ورقمه عرف به الجهة التي يقصدها القطار، أما وقتنا فلم يكن كافيا لنعرف الأرقام والأسماء، بل كنا نعتمد على دليلنا الأخ محمود فهو يتقدمنا ونحن معه.

عند نهر التايمز:

وخرجنا عند جسر وستمنستر (Westminster Bridge) وكان الرذاذ قد تحول الى مطر فاضطررنا للوقوف قليلا فى مخرج النفق.

أول فقير نراه في لندن :

ولأول مرة نرى فقيراً وهو أعمى وقف مع زميل له مبصر يحمل ألة موسيقية (اكورديون) يلعب عليها بصوت هادئ وملابسهما تدل على البؤس، والخارجون من النفق أو الداخلون يدفعون له المقسوم، ومنحه فضيلة الشيخ بعض الدراهم ولما هدأ المطر قليلا خرجنا إلى جسر وستمنستر. وقد أقيم هذا الجسر سنة ١٩٦٢م – (١٣٧٩هـ) وكان ثاني جسر أقيم على جسر نهر التايمز.(THAMES) وسرنا على أحد طرفية حيث يمشي المشاة نشاهد مياه النهر وهي تجري من تحتنا، والقوارب الشراعية والبخارية تمخر مع جريان النهر أو العكس: وأمامنا عمارة كنيسة وستمنستر وهي تعتبر من معالم لندن، وهي قديمة جداً وينسب أصلها إلى القديس بطرس.. (St. Peter) .. وفيها يتوج كل ملك من ملوك بريطانيا وبها آثار ملوكهم القدماء ومخلفاتهم الشخصية، وفي ناحية منها قبر الجندي المجهول للحرب الأولى .

ويشاهد الإنسان من فوق هذا الجسر قصر البرلمان على الضفة اليمنى من النهر، وهو كذلك أحد عجائب لندن، ومن المعالم التى إذا رأي أى إنسان صورتها فى رسم من الرسوم عرف دون سؤال أنه منظر لندن..

وفي أحد أبراجه العالية ساعة لندن المشهورة «بج بن» وناقوس جرسها الذى نسمعه دوماً وزنه ١٠و١٣١ طناً وصنع سنه ١٨٥٨م (١٢٧٥هـ)

ولولا الرذاذ الذى كان يتحول أحياناً إلى مطر، لأطلنا الوقوف على الجسر لمشاهدة هذه المناظر التاريخية التى حول البرلمان، وكلية وستمنستر، ومنظر القوارب، ولكن خوف البلل جعلنا نعود من الجسر إلى ناحية الشوارع.. ومن ثم تقدمنا من شارع فكتوريا إلى ناحية قصر بكنجهام (Buckingham) مشياً على الأقدام، وبرغم من كونه قصراً ملكياً فبعض اجزائه تفتح فى أيام الأسبوع للزيارة ودخول الناس مقابل رسم.. وهذا القصر هو سكنى العائلة المالكة البريطانية منذ أكثر من مائة سنة، وقد بناه أحد الأمراء وكان لقبه «دوق بكنجهام» سنة ١٧٠٣م (١١١٥هـ) ثم

اشتراه الملك جورج الثالث لأسرته سنة ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) ومنذ ذلك الحين وهو قصر الأسرة المالكة.. وحرس القصر لهم لباس مخصوص ويجرى تغييرهم يومياً في شبه احتفال تقليدي.

وعندما وصلنا إلى القصر رأينا الحرس راكبي الخيول يقومون بهذه المهمة، وقد اجتمع الناس لمشاهدة حركاتهم وتقدمهم وتأخرهم، وكادت الحشود المجتمعة أمام بوابة القصر تقطع سير المرور فقام نفر من الحرس الملكى بتنظيم المرور بكل هدوء ولطف

وكنا واقفين مع الناس فلم أشعر إلا ورأس الفرس عند أذني فتقدمت مع الناس، وكان قصد الفارس أن نتقدم ونترك للمرور مجال.. وبقينا واقفين مع الناس حتى انتهت عملية تغير الحرس.

وأفراد الحرس يتساوون فى الطول واللون والملابس، ولا يستطيع الإنسان أن يفرق بين حارس وأخر لأول وهلة، بل لابد له من إمعان طويل إلى وجهه..

صعد أحد المتفرجين على السياج الحديدى للقصر، وكان الحارس بعيداً عنه وهو على فرسه فمد إليه سيفه المسلول بكل لطف ونبهه لينزل عن السياج.

ثم عدنا إلى الشقة لأن فضيلة الشيخ كان مدعواً عند معالى السفير السعودي الشيخ عبد الرحمن الحليسي لتناول الغداء، وقد استأذنت الشيخ محمد فى البقاء مع الأخ محمود ريثما يعود فضيلته.. فقال أحب أن تكونوا معى ولكن مادمتم ترغبون البقاء مع بعض فلكم الحرية التامة، ولا أحب أن أخالف رغبتكم.. وسنجتمع هنا إن شاء الله بعد أو قبل منتصف الليل.. فشكرته.. وخرج فضيلته مع الأخ عبد الكريم السعدون إلى معالى السفير السعودي.. وخرجت مع الأخ محمود أسد الله لنزور المتحف البريطانى.

وقد سمعت عنه كثيراً وشهرته طبقت الآفاق، وشيد هذا المتحف فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على يد المهندس السير روبرت سميرك (S.Robert Smirk) ومجموعة آثاره ذات قيمة تاريخية كبيرة، وتضم أنواعا من المدنيات التى مرت على العالم.

وبين الآثار المصرية القديمة رأينا «حجر رشيد» الذي أقرأ عنه منذ صغري، وكان مفتاحا للغة الهيروغليفية المصرية القديمة بواسطة شمبليون الخبير الأثري، وهو قطعة من الصخر أسود اللون، طوله ثلاثه أقدام، والكتابة التى فيها هى عبارة عن مرسوم من الكهنه إلى الملك بطليوس الخامس بمناسبة هداياه التى قدمها للمعابد، ويرجع تاريخ الكتابة إلى ٢٠٥ ــ ١٨١ قبل الميلاد، وهو مكتوب بثلاث لغات بالهيروغليفية، وباللغة الديموطيقية، واللغة اليونانية واكتشفة ــ كما تقول الرواية الإنجليزية جنود نابليون سنة ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) بالقرب من قلعة سان جوليان برشيد، ونقل إلى إنجلترا على حسب اتفاق أبرم فى الإسكندرية سنة ١٨٠٢م (١٢١٧هـ)

وثم آثار يونانية وبها قطعة من أقدم معبد فى اليونان يرجع تاريخها إلى القرن الثانى قبل الميلاد، ومخطوطات من (ماجنا كارتا) (Magna Carta) وهي وثائق تاريخ إنجلترا أصدرها الملك يوحنا سنة ١٢١٥م قبل الهجرة بستة قرون تقريباً.

ويوميات للرحالة أسكوت عن القارة الجديدة انتاركتيكا (Antractica) ــ أي الأراضى القطبية المتجمدة ــ وآثار أخرى شرقية وأسلامية. وأردنا أن ندخل مكتبته العظمية التى تتألف فهارسها وحدها من ألف مجلد، وتسع لخمسمائة إنسان، أي بها (٥٠٠) مقعد، وأخبرنا البواب أن كل المقاعد الآن مشغولة، ولذلك لا أستطيع أن أسمح لأحد بالدخول، وقال الأخ محمود: فى وسعى ــ إذا شئت ــ أن أراجع المدير وندخلها. فقلت له: إن الوقت لا يسمح بمراجعة المدير فما شاهدناه فيه الكفاية..

وخرجنا من المتحف البريطاني إلي شارع رسل ، (Russell St.) وهو عبارة عن شارع المكتبات للكتب الجديدة والمستعملة ..

ودخلنا مكتبة واحدة ، واستغرق مروري على أسماء بعض الكتب التاريخية ومعرفة أثمانها أكثر من نصف ساعة ، ولم أتمكن من الوقوف على كثير من رفوفها ، وأحببت أن أقتنى شيئا منها ، ولكن لأسعارها الغالية أولا ، ثم لكونها تصبح عبئاً ثقيلا فى الرحلة عدلت عنها على طريقة (حصرم ياعنب)

ومن شارع المكتبات أخذنى الأخ محمود إلى جامعة لندن ، لم يكن الوقت وقت زيارة ولا يسمح لكل واحد بالدخول ، ولكن لوجود الأخ محمود وهو كثير التردد عليها دخلنا ولم يسألنا أحد : ماذا تريدون وإلى أين تذهبون ؟ دخلنا أولاً قسم الطلبة ومن ثم إلى مكتبتها ..

وقال الأخ محمود : هنا وفى هذه المكتبة يقضى الأخوان محمد إبراهيم ، وعبد الوهاب أبو سليمان المعيدان من كلية الشريعة بمكة ساعات طويلة لتحضير رسالة الدكتوراه .. كتب الله النجاح لهما ولكم .. وأردت أن أمر على الكتب التاريخية الخاصة بالجزيرة العربية ، فإذا هي رفوف طويلة يحتاج المرور بها إلى وقت طويل ، ونحن أو أنا خاصة لا أكره أن أمر بالدنيا كلها ــ كما يقولون ــ فى هذه الفرصة القصيرة ، وكان بعض الطلبة الشرقيين من آسيا وإفريقيا منهمكين فى المطالعة والاستقراء برغم تأخر الوقت ، ولم يصرفهم دخولنا وخروجنا عن المطالعة .

ويرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) وتكونت من بعض مدارس أهلية ومعاهد وكليات ، ثم أعيد تنظيمها سنة ١٩٠٠ (١٣١٨ هـ) بموجب قانون الجامعة ، وقد نص هذا القانون على أن التعليم والأبحاث يضطلع بها أساتذة مختصون أو عالميون والطلبة المنتمون إليها من الخارج يدخلون فى اختباراتها وبذل الجهود فى توسيع إمكانات الجامعة .

ثم خرجنا من الجامعة وكان في النهار فسحة ولكن لدقائق فقلت للأخ: لنذهب إلى المتحف التاريخي، أومتحف التاريخ الطبيعي وفي شارع كورنوال (Cornwall)

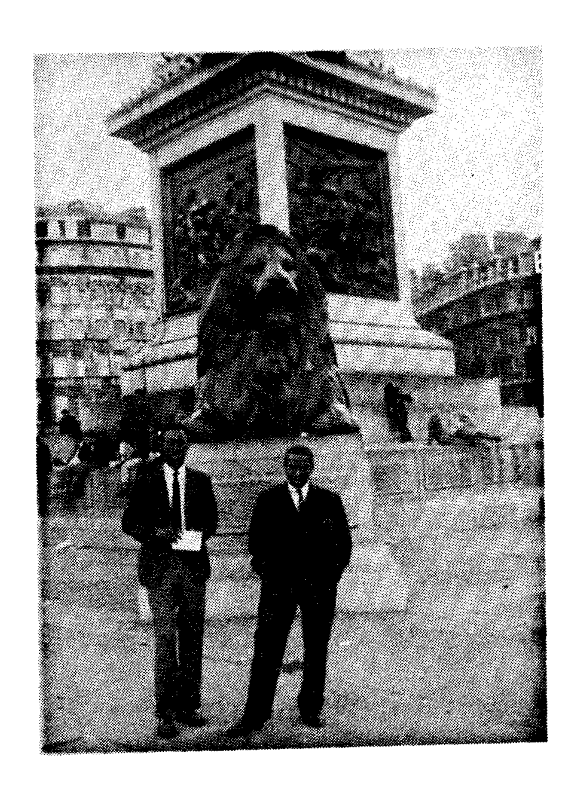
وقد نبهنا بواب المتحف بقوله: بقى عشر دقائق لانتهاء موعد الزيارة، فدخلنا مسرعين ومررنا بنماذج الحيوانات فى أحجامها الطبيعية وألوانها الحقيقية، ثم دخلنا قسم وسائل المواصلات وتطويرها من العربات والسيارات والقطارات مع شرح آلاتها كتابياً تحت كل واحدة منها، وفي وسع الإنسان الذى يحب أن يدرس تاريخ هذه الوسائل وتطورها أن يقف لحظات ويأخذ من المعروضات تاريخ كل ناحية من نواحي البشرية.. وقسم آخر يبين تطور المنازل والبيوت وتطور وسائل الإضاءة والأسلحة والحلى.. وبينما كنا عند الآلات الصناعية وتطورها، رأينا الناس يهرعون إلى الباب للخروج لدنو وقت إغلاق المتحف من غير أن ينبهم أحد الى ذلك، فأسرعنا مع المسرعين الى الباب.. وكان البواب يبتسم لخروجنا مسرعين.

ولم يكن بقربنا مكان نقضي بقية الوقت غير حديقة (هايد بارك) فتوجهنا إليها على الأقدام، وجلسنا فى مقصفها الهادئ الجميل المشرف على نهر سربنتين (Serpentine) والجسر الممدود فوقه، وكانت السماء غائمة، تنقطع الديمة من حين لآخر..

وأخذنا في المقصف الصغير الجميل قسطاً من الراحة مع تناول الشاي بالحليب مع شيء من الكعك.. وجلس بجوارنا نفر من الإخوان العراقيين عرفناهم بلهجتهم إذ تكلموا بالعربية، وأمامنا أرض منبسطة خضراء ممتدة إلى مسافات بعيدة وكان منظراً جميلاً جداً...

ثم تقدمنا إلى الجسر الجميل الصغير الممتد فوق نهير (سربنتين)، وعلى جانبي الجسر تمتد الأراضي المعشوشبة الخضراء إلى مد البصر انتشر فيها هنا وهناك عشاق الهدوء والسكون والمتنزهون عن صخب المدينة وضوضائها، فهذا

يـقـرأ فـى مجلة وهو يخطو رويداً رويداً مع زملائه ، وتلك جلست ترسم منظراً طبـيـعـياً من مناظر الحديقة ، وهذا وقف يشاهد جريان النهر سربنتين ، وهذه جلست مع أولادها تحت دوحة فينانة ، وهؤلاء الصبية يرتعون ويلعبون . .



وفي مـيـاه النهر قـوارب المـتـنـزهين والمتنزهات الشراعية والبخارية تمخر المياه في هدوء أو في سرعة كسرعة الصاروخ .

وتـقـدمـنـا من هـذه المـنـاظر إلى بحيرة صغيرة تعرف باسم (روند بوند) (Round Pond) وسط الحشائش جلس على أطرافها الرجال يتشاغلون في تـسـيير سـفـن صـغـيـرة يعملونها بأيديهم من قطع الأخشاب والخيوط ، وأشرعة

صغيرة فى حجم المنديل ، كأنها نماذج للقوارب الكبيرة ، وكلما ابتعد القارب مع التيارات الهادئة تهلل وجه صاحبه فرحاً وسروراً .. ويقوم من محله إلى الجهة التى يتجه إليها القارب ليستقبله هناك .. وقفنا عند هؤلاء برهة قصيرة ، وقلت للأخ محمود : لو فعل عندنا أحد الشيب مثل هذا لرمى بالجنون ، ولاجتمع عليه أولاد الحي وغير الأولاد واتخذوه سخرية .. ولكن كما قال شاعرهم كبلنج : الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا ..

الطيايير :

وتقدمنا فوق الحشائش المخضرة إلى ناحية أخرى ووجدنا هناك ما هو أكثر لعباً في نظرنا . . وجدنا شخصين لا يقل عمرهما عن الستين أحدهما جالس على أريكة خشبية ، والآخر واقف وهما يلعبان بما نسميه في مكة (بالطيرة) أو (الطيايير) أي طائرة ورقية مربوطة بخيط من النيلون فى بكرة تدور حول محور صغير إذا أطلق (للطيرة) الخيط ارتفعت وطارت فى الجو. وكانت الطيايير قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً فى الفضاء ، ولم نكن نراهما غير نقطتين بيضاوين تحت الغيوم .. وقفنا عندهما أكثر من عشر دقائق نتكلم ونضحك ، وكأنهما قُدّا من صخر لا يتكلما ولا يتحركان ولا يضحكان ولا يلتفتان وأعينهما على (الطيايير) وتركناهما ونحن نردد : لكل امرئ ، فيما يحاول مذهب ..

وتقدمنا إلى مسافة أخري حيث كان الناس يلعبون (التنس) وآخرون يلعبون (الجولف) أو الصولجان ، وفريق يلعب الكرة (راكت) .. وفي جانب آخر من الحديقة رأينا جماعة مختلطين يتمرنون على رمي النبال بالأقواس على أهداف بعيدة ..

إلى البوابة الرخامية :

وكان الظلام أخذ يعم الحديقة والأرض كلها ، وساعة مكة تشير إلى الثانية والنصف ليلا .. فمشينا الى البوابة الرخامية « ماربل ارك » واتصلنا من هناك بالشقة تلفونياً فلم نجد أحداً ، وخرجنا من الحديقة نحو الحى الذى

نحن فيه.. على الأقدام نسير الهونيا على خلاف عادة القوم.. فمن «ماربل ارك» إلى «بيز وتر» الشارع الرئيسى المؤدى إلى ناحيتنا، إلى شارع «موسكو» وسكة «بطرسبرغ» إلى الفندق «امباسي» الذى كانت شقتنا تابعة له.. وجلسنا فى صالة الفندق نتصل منها بالشقة تلفونياً من حين لآخر حتى جاء الشيخ إليها فذهبنا إليه واجتمعنا..

برج لندن:

وقال فضيلته إنه بعد خروجه من عند معالى السفير السعودي زار برج لندن، وقد غلط السائق فأوصلهم إلى برج لندن التاريخى الذي يقع شرق لندن على تل مرتفع، وهو بقايا آثار الرومان، ويعرف الجزء القديم منه بالبرج الأبيض، وشيد فى عهد الملك وليم الأول سنه ١٠٨٠م (٤٧٣ هـ) ثم شيدت الأسوار الخارجية لهذا البرج فى القرن الثالث عشر وبجوار هذا البرج برج المهد، وشيد في القرن الرابع عشر الميلادي (السابع الهجرى) وكان في الأساس عبارة عن قصر ملكي وقلعة وسجن، وأشهر من سجن فيه إدوارد الخامس وأخوه وجي فوكس ورودلف هيس الألماني، وأعدمت في هذا البرج شخصيات معروفة في التاريخ الإنجليزي، ولا تزال الفأس والخشبة (الوضم) محفوظتين في غرفة من غرف هذه القلعة.. كما يوجد به متحف للأسلحة القديمة..

ومن هنا عاد فضيلته إلى برج مصلحة البريد، وكان هذا هو المقصود.. وهو في الناحية الشمالية من وسط لندن على شكل مئذنة، ويرتفع عن سطح الأرض (٦٢٠) قدماً وعلى ارتفاع (٥٢٠) قدماً مطعم ومقهى ويدور في الساعة الواحدة دورتين ونصف دورة حول محور يستطيع الجالس في هذا المطعم أن يشاهد معظم أجزاء لندن القريبة من البرج، مع دورانه الذى لا يحس به الجالسون إلا بتغير المناظر.. وقد صعد فضيلة الشيخ إلى هذا المقهى لتناول الشاى والقهوة.. ثم نزل منه وقام بجولة في بعض الشوارع الرئيسية في وسط لندن ثم عاد إلى الشقة.

وبعد أن ارتحنا في الشقة قليلا خرج فضيلته لزيارة سمو الأمير متعب ابن عبد العزيز رداً لزيارته في المستشفى، وخرجت مع الأخ محمود إلى ميدان «ترفلجار» أو الطرف الأغر لمشاهدة منظر النافورات ليلاً.. وكان الميدان ـ على اتساعه ـ يبدو ضيقاً من كثرة رواده.. وعزمنا على العودة إلى الشقة مشياً على الأقدام، ولكن الرذاذ المستمر الذى كان يزيد مرة ويخف أخرى جعلنا نركب سيارة من سيارات الأجرة، ونعود إلى المقر، وكان فضيلة الشيخ قد عاد قبلنا، وبعد سهرة قصيرة على التليفزيون نمنا..

لقد كانت هذه الليلة هى ليلة مغادرة لندن، فلم نستسلم للنوم إلا بعد أن حزمنا الأمتعة وهى عبارة عن حقيبة الملابس وأخرى يدوية.. وبقى كل منا في فراشه برهة من الزمن يتقلب في بحر من الأفكار.. وتذكرت وأنا في تلك الحالة الشاهد النحوى:

ولولا المزعجات من الليالى   لما ترك القطا طيب المنام

وطُرْفة بالمناسبة :

وقرأ طالب كلمة (القطا) (وطيب) كأنها كلمة واحدة «القطاطيب» ولم يعرف معناها فسأل أستاذه وكان، لا يقل عن تلميذه في الفهم: ما معنى «القطاطيب» يا أستاذ؟ فقال له الأستاذ: قبيلة من قبائل العرب!

لم يكن هناك والحمد لله شيء يزعج ولكن فكرة السفر والرحلة دوماً تشغل البال..

وأخيراً نمنا.. واستقبلنا يوم الأربعاء ١٣٨٨/٥/٢٠هـ الموافق ١٩٦٨/٨/١٤م بإنهاء موضوع الشقة فاتصل الأخ محمود أسد الله بالفندق «أمباسي» وسأل الموظف المختص عن انتهاء إجارتنا فقال: ستنتهي الساعة (١٢) لأن هناك إذا كنتم تريدون المغادرة فليكن قبل الساعة (١٢) لأن هناك من يريدها.

وبنـاء عليه نقلنا الحقائب إلى صالة الفندق ودفع فضيلة الشيخ الحساب للمـوظـف المختص.. لقد قضينا في هذه المدينة عاصمة بريطانيا وأسكتلاندا عشرة أيـام، وسنـغـادرهـا بـعـد سـاعـات.. وقبل خروجنا منها ألقيت نظرة تاريخية عاجلة إلى ماضيها البعيد لنقارن بين الماضي والحاضر:

لقد غزا الرومان إنجلترا سنة ٤٣م وعمروا الجزء الشمالى من شاطئ نهر التـيـمـز فـي بـقـعـة صغيرة صارت تعرف باسم (لندينيوم) (Londinium) وأنشأوا عـلـى النهـر جـسراً كان سبباً في نمو الحركة التجارية فيها، وشيدوا حولهـا سـوراً مـدخـلـه من بوابة الجسر، .. ثم حل محلهم السكسون في القرن الخامس الميلادى، وسميت في عهدهم ــ المدينة باسم «لندن» ثم جاء دور النورمانديين (١٠٦٦م) وازدهرت لندن في أيامهم من الناحية التجارية، وتم تتويج وليم الفاتح (William I) أول ملوك إنجلترا من النورمانديين بها، وفي عهده بنى برج لندن على أطلال الرومان. وكان سكانها يومئذ لا يزيدون على ٥٠ ألفا.

وفي سنـة ١٣٨١م (٧٨٣هـ) قامت ثورة العبيد، أى الذين كانوا يعملون في الزراعة بقيادة (وات تيلر) (Wat Tyler) ضد الضرائب التى فرضت عليهم وجاءوا إلى لندن، وفتحوا باب الجسر بالقوة، واندفعوا إلى داخل المدينة ينهبون ويشعلون النيران في البيوت، وينشرون الرعب في قلوب التجار ورجال الحكومة، وتصدى لهم أمير المدينة (لورد مائر) (L. Mayor) وطعن (وات تيلر) (Wat Tyler) بخنجره فأراده قتيلا، وقطع رأسه ونصبه على رمح عند بوابة الجسر، وبذلك خمدت الثورة وقد أدخل خنجر اللورد (مائر) ضمن «شعار النبالة» ولا زال باقيا..

وفي القرن السادس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) بلغ سكان لندن (٢٠٠) ألف نسمة وكانت معظم أزقتها ضيقة مزدحمة بالبيوت الخشبية وغير الخشبية، كما كان الأهالى يقيمون سقوف الطبقة الثانية من بيوتهم على الأزقة على طريقة السوابيط أو السقائف.

وفى سنة ١٦٦٥م (١٠٧٦هـ) عم المدينة طاعون مات فيه عدد كبير من سكانها، ثم تعرضت في السنة الثانية لحريق هائل ذهب ضحيته أربعة أخماس لندن، ولم يبق من البيوت غير المبنية بالطوب. وبدأت في الازدهار الأخير منذ سنة ١٨١٥م (١٢٣١هـ)

مساحتها الحالية مع ضواحيها تقدر بـ ٦٩٣ ميلا مربعا، وسكانها (٨,٧٠٠,٠٠٠) ونهر التايمز يعتبر نهراً رئيسياً في إنجلترا يخترق لندن من الجنوب إلى الشرق، وطوله ٣٣٧ كم

هذه نظره عاجلة عن لندن وتاريخها القديم.. أحببنا أن نودع المدينة وأمامنا الصورة القديمة لها والصورة الجديدة التى شاهدناها..

الأستاذ فائز المارديني :

وجاء الأستاذ المارديني المترجم بالسفارة السعودية بسيارته، وجلس مع فضيلة الشيخ يشرح له الخطوات التى اتخذها لتسهيل مغادرتنا، ومراجعة شركات الطيران والتذاكر، ثم أكد ذلك بالاتصالات التليفونية.

إلى المطار :

ثم أخذنا الأستاذ الماديني في سيارته مع الأخ محمود إلى المطار من فوق جسر ممتد إلى مسافات شاسعة.. ولما كان اتجاهنا نحو الغرب لم نتعرض لمشكلة المرور وازدحامه الذى يصادفه الإنسان في وسط المدينة.. وسار سيراً سريعاً مع السيارات التى تقصد المطار فإذا رأى الإنسان كثرة السيارات المتوجهة إلى المطار ظن أن معظم أهل لندن مسافرون.. وعندما يقترب من المطار ويشاهد السيارات القادمة من المطار يظن أن الدينا كلها قادمة من المطار.

ووصلنا المطار.. فإذا هو عالم آخر .. أشكال مختلفة، وألوان متباينة، وأجناس متعددة، وجلست على أحد المقاعد العامة، وذهب فضيلة الشيخ

والأستاذ الماردينـي والأخ محمود لإنهاء إجراءات الجوازات و(إشارة) المغادرة..

ثم صعدنا إلى الطابق الثاني حيث لا يدخلها إلا المسافرون أو القادمون، ولا يسمح لغير هؤلاء بدخولها إلا أن يكون عنده بطاقة الدخول، أو يكون من السلك الدبلوماسى كالأستاذ الماردينى.. ولذلك اضطر الأخ محمود أن يودعنا ليتوجه إلى مقر دراسته بأدنبرة..

وقد تأثرت لتوديعة وكان لسان حالى يردد مع الشاعر:

وداعاً وداعاً أيها القوم إنّني مُفارقكُم لا عن صدودٍ ولا هَجْرِ
لئن أزفَ التّرحالُ عنكُم فإنَّ بي إليكُم لأشواقاً أحر من الجَمْرِ
أحبكُم قلْبِي اعترافاً بفَضْلكُم وأنكَر في يوم النّوى حِكْمة الصَّبْرِ

وقلت له: سيكتب الله لنا الاجتماع في الوطن إن شاء الله بخير وسلامة..

وصعدنا مع الأستاذ الماردينى إلى صالات الطابق الثاني، حيث اجتمع المسافرون إلى أنحاء العالم، وثم معارض لبيع الهدايا والتحف الخاصة بلندن، وكان المسافرون مزدحمين عليها.. وكل المعروضات بأثمان باهظة.

اللوحة الزجاجية:

وأرانا الأستاذ الماردينى اللوحة الزجاجية التى تظهر عليها بين حين وآخر أسماء الرحلات وأرقامها، والجهة المسافرة إليها، مع رقم البوابة التى يخرج منها المسافرون، فلكل رحلة وكل شركة بوابة، ولو خرج المسافر من بوابة أخرى لما استدل إلى الطائرة التى يسافر فيها، وقد تفوته الرحلة في البحث عن الطائرة والمراجعة.. ولذلك يحفظ كل مسافر رقم الرحلة ورقم البوابة التى يخرج منها.. وبقى لقيام الرحلة ما يقرب من ساعة، ولكن بالَنا لم يكن يخلو من قلق لأن وقع الانتظار مهما كان نوعه وقع أليم وقاس على النفس..

وعنـدما أراد الأسـتاذ فائز الماردينى أن يودع فضيلة الشيخ ويستأذنه فى العـودة ، تكلم مع المـوظفـة القـائمـة على لوحـة الأرقـام والأسماء أن تنبهنا إذا جاء ميعاد رحلـتـنـا ، وتـبين لـنـا اتجـاه السير إلى البوابة المطلوب .. فشكرناه على هذه العناية .

وهـنـا شـعـرنـا بـنـوع مـن الوحشة لفراق الإخوان ، وأدركنا أننا مسافرون ولابـد لنا أن نستقبل ظروفاً كهذه ، فما كل وقت يجد المسافر من يكون معه يساعده ويستأنس به ..

وكـنـا فـي صـالـة مـرتفعة تشرف على بقية الصالات ، ولكنها بعيدة عن اللـوحـة الـزجـاجـيـة ، ولـذلـك نـزلنا عنها واقتربنا من اللوحة ، وجلسنا أمامها وأعيننا تكاد لا تفارقها ..



الأستاذ التركى :

وفي أثناء جلوسنا ونحن نضرب أخماساً فى أسداس، سررنا برؤية الأستاذ عبد العزيز التركي الذى جاء لتوديع فضيلة الشيخ محمد ومحبّه، وجلس معنا يتحدث مبدياً رغبته في إطالة الجلسة في لندن، لأن المدة التى جلسناها لم تكن كافية لرؤية معالمها وزيارة بعض المدن المجاورة والريف الإنجليزى والساحل.. فشكره فضيلة الشيخ على عواطفه وعلى ما لقيه منه من الرعاية والاهتمام، وأخيراً ظهرت أرقام الرحلة (١٠٥) ورقم البوابة (٢٣).

فقمنا وقام الأستاذ التركي معنا حتى خرجنا من البوابة ودخلنا الممر الذى يشبه منفاخ الكاميرا، ولايدرك المار فيه هل هو في الطائرة أو في المطار..

وعند مدخل الطائرة، ودعنا الأستاذ عبد العزيز التركي .. استقبلتنا المضيفة وأريناها التذاكر، فأجلستنا في المقاعد الأمامية من الدرجة الأولى ولم يكن معنا فى الدرجة الأولى غير شخصين: أحداهما إنجليزى والآخر زنجى من زنوج أمريكا.

أما بقية الركاب فدخلوا إلى الدرجة الثانية، واستغرقت عملية دخول الركاب وجلوسهم والتأكد من جوازاتهم وعددهم ما يقرب من نصف ساعة، ثم أغلق باب الطائرة..

لقد ذكرت مغادرتنا للندن ووصولنا إلى المطار ودخولنا إلى الطائرة، ولكن إلي أين؟ لم أقل شيئاً عن ذلك.. فأقول الآن إنها رحلة (إلى الولايات المتحدة الأمريكية).

— ١١ —

بدء الرحلة للولايات المتحدة الأمريكية :

تحركت الطائرة الجبارة من طراز بوينج من طائرات (بان أميركان) على الأرض أولا ثم وقفت استعداداً للاندفاع إلى الفضاء، وفي ثوان معدودات اندفعت اندفاع النفاثات مرتفعة من الأمام منخفضة من الخلف، حتى بلغت في الارتفاع ٢٠٠ متر تقريباً، وتساوى مقدمها بمؤخرها في مستوى واحد، وظهرت لندن بخضرة حدائقها وبخطوط شوارعها المستقيمة، وميادينها المدورة أو المضلعة، وعماراتها الشامخة التي تبدو وكأنها أشكال هندسية، وقد زال عنها منظر العلو، ظهرت لندن كأنها خريطة مجسمة أو كنموذج هندسي، وأخذ المنظر يصغر حتى صار بياضا وسط زرقة البحار. وعندئذ تركنا النظر من النوافذ لأنه لم يكن أمامنا غير الماء والسماء.

الهدايا :

وقدمت لنا إحدى المضيفات الجرائد اليومية التايمز اللندنية، وهيرالد تريبيون الأمريكية ..

ثم جاءت مضيفة أخرى وقدمت لكل راكب زجاجتين من ماء الكولونيا في علبة جميلة من الكرتون ..

بعدها بدقائق قدمت المضيفة الأولى زوجاً من الخف المنسوج من الصوف لاستعماله بدلا من الحذاء في الطائرة ليقي (الجوارب) من التلف .

وقدمت الثانية غطاء للعيون على شكل نظارات من القماش الأسود يضعها الراكب على عينيه فلا يرى شيئاً ويساعده على جلب النوم إذا شاء ذلك .. وبهذا انتهى دور الهدايا ..

ثم بدأت المضيفات في تشغيل الركاب وخاصة ركاب الدرجة الأولى بالشراب والطعام بأن قدمن لكل راكب قائمة المشروبات، وطلبنا أولا البيبسي كولا، ثم مشروباً حاراً وهو الشاي أو القهوة.

وبين تقديم وآخر مايقرب من عشر دقائق.. وقد اجتازت الطائرة في دقائق معدودات أرض الجزر البريطانية، وأخذت تشق طريقها فى الفضاء فوق المحيط الأطلسى أو الأطلانطيقي.

أول من قطع هذا المحيط جواً..

وتذكرت وأنا فوق مياه المحيط الأطلسي، والذى كان يسميه العرب بحر الظلمات، وكان يعتبر نهاية الدنيا.. إن أول من قطع هذا المحيط جواً هو الطيار تشارلس لندبرع (Charles Lindberg) في شهر مايو سنة ١٩٢٧م (١٣٤٦هـ) وكنت يومئذ طالباً فى المعهد العلمى السعودى بمكة وقرأت خبره فى جريدة أم القرى من الغرب الى الشرق، أى من نيويورك إلى باريس دون توقف في ٣٣ساعة و٣٩ دقيقة، ثم قامت الطيارة إميليا ارهارت برحلة (Amelia Earhart) مثل رحلة لند نبرغ..

وأول من قطع المحيط من الشرق إلى الغرب هو موليزون (Mollison) الإنجليزى سنة ١٩٣٢م (١٣٥٠ هـ) من أيرلندا إلى مدينة نيوبرنزويك (New Brunswick) بأمريكا.. ونحن سنقطعه بعد سبع وثلاثين سنة في ٦ ساعات تقريبا بحول الله من الشرق إلى الغرب بدون توقف. وجاء- بعد المشروبات ــ دور الغداء والطعام، وهو كذلك يقدم على طريقة تعست العجلة، وكأن القصد من الغداء هو الطعام أولا، ثم صرف أفكار الركاب عن التفكير في الوقت والجو وما قد يحدثه هذا التفكير في البعض نوعا من القلق إذا ما فكر بأنه يطير بين الأرض والسماء، أو بين الماء والسماء.. فالاشتغال بالطعام والانتظار لما تأتى به المضيفة كل ذلك يصرف الفكر والنظر عن الطائرة والجو، ويظل الراكب مطمئنا كأنه جالس فى غرفته أو في عربة قطار فخم.

واستغرقت عملية الغداء وفترات تقديم هذا وذاك أكثر من ساعة، ثم بقى الأمر للرغبة والطلب، فمن يرغب شيئاً يطلبه.. وكانت المضيفة تعلن من حين لآخر عن حالة الجو والارتفاع..

الأعين على الساعة:

لم يكن لدينا مشروع مالى أو اقتصادى أو عمراني أو تجاري يشغل بالنا، أو يصرف ذهننا إليه، ولذلك كنا نشغل أنفسنا بالتحدث بعضنا مع بعض، ويتحفني فضيلة الشيخ بالطرائف القديمة الأدبية، أو من ذكرياته في الأسفار والرحلات، وأقص عليه بعض ذكريات رحلاتى.. ثم تسود فترة الصمت فتستولى علينا الأفكار هنا وهناك، و يندفع الإنسان وراءها ويتناسى أنه في الجو فوق مياه المحيط..

وفى كلتا الحالين كانت الأعين لا تفارق الساعة وعقاربها.. فالمقرر للرحلة من لندن إلى نيويورك ست ساعات تقريباً وكنا نفرح لكل ساعة تمضى بخير، ونستقبل الأخرى آملين أن تمر سراعاً في سلام وأمن، نرى تحتنا مياه المحيط وهي ممتدة إلى ما لا نهاية بالنسبة إلى نظرنا، ونرى أحياناً بياض الجزر اليابسة أو بياض الأمواج كخطوط منحنية فوق زرقة المياه.

ورأينا أحياناً نقطاً صغيرة وراءها خطوط قصيرة بيضاء، عرفنا بحركتها كدبيب النمل إنها عابرات المحيط، وكانت تبدو مع ضخامة هياكلها كنقطة مستطيلة.

فالله أكبر وما أعظم خالق هذا الكون، أن المحيط باتساعه وامتداده ماهو إلا قطرة صغيرة من مخلوقاته، وهذه السفن والفلك التى تجري في البحار والمحيطات، والتى يراها الإنسان عندما يكون فيها كأضخم عمارة متحركة لعظم آلاتها ومحركاتها وطبقاتها وكثرة عمالها، تقطع البحار ولا تتأثر بالأمواج العاتية تجرى رخاء إلى حيث تشاء.. هذه الفلك نراها الآن من فوق ١٣٠٠ متر كأنها عود كبريت أو نقطة مستطيلة.. فسبحان من بيده ملكوت السماء والأرض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. والعظمة لله وحده

المحيط الأطلسى:

لقد كنا نقرأ عن هذا المحيط عن ظهر غيب بأنه ثانى المحيطات فى الاتساع، وأن مساحته مع الخلجان والألسنة التابعة له تقدر بـ ٤١,٠٠٠,٠٠٠ ميل مربع وأن أوسع مسافة بين قارة أوربا وأمريكا على وجه هذا المحيط الواقعة بين الساحل الأوربى والمكسيك تقدر بـ(٩٠٠٠ ميل)

ويقول الجغرافيون: إن في هذا المحيط أخدوداً عميقاً على شكل حرف (S) يبدأ من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي، وهذا الأخدود يقسم قاع المحيط إلى قسمين أووادين كل واد عرضه ٥٠٠ ميل، والشرقي منهما أكثر عمقاً من الغربى.

ثم هضبة في القاع ممتدة من جزر أسكوتلاندا إلى كندا، وتعرف هذه الهضبة بهضبة التلغراف، لأن الخط التلغرافي «الكابلو» الممتد بين قارة أوربا وأمريكا الشمالية يمر من فوق سطح هذه الهضبة، أما عمق المحيط فيتراوح بين ٩٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ متر.

لقد قطع كولمبس مكتشف هذه القارة هذا المحيط سنة ١٤٩٢م (٨٩٨هـ)

ثم جاء بعده من سميت البلاد أو القارة على اسمه أمريكو فسبوشيو ـ سنة ١٤٩٧م (٩٠٣ هـ) واكتشف سواحل البرازيل وأرجواى.

الهجرات المنظمة :

وبدأت الهجرات المنظمة من أروبا سنة ١٦٢٠م (١٠٣٠ هـ) وأول الأوربين الذين هاجروا إلى هذه القارة هم الهولانديون.. وهم الذين استقدموا معهم جماعات من الفلاحين من فرنسا والنرويج والدانمارك وألمانيا وأسكوتلندا وأيرلندا، وبعد هؤلاء بدأ الإنجليز في القدوم إلى هذه الأراضي الجديدة، ثم تعاقبت الهجرات الأوربية ومعظم المهاجرين كانوا من الألمان والإيطاليين والمجريين.. وقد جاء هؤلاء المهاجرون أفراداً وجماعات وهيئات

وطوائف دينية ، وجاء بعضهم ليتفرغ في هذه البلاد لعبادة الله على طريقته ، وبعضهم دفعهم الفقر ولم تحل سنة ١٧٧٦م (١١٩٠هـ) أي في عهد الامام عبد العزيز بن سعود بن محمد إلا وكانت السواحل الشرقية من أمريكا الشمالية ، أى ساحل المحيط الأطلسي قد ازدحمت بثلاث عشرة مستعمرة لهؤلاء المهاجرين ، ويقدر عددهم بمليونى نسمة . وكان موضع نيويورك أكثر الأماكن ازدحاما بالسكان الهولنديين ، وكانوا يسمونه (نيونذر لاند) أى هولاندا الجديدة ، ثم تكاثر فيها الإنجليز وسموها نيويورك على (مقاطعة يورك الإنجليزية)

على علو ١٣٠٠ متر:

كانت الطائرة تحلق على ارتفاع ١٣٠٠ متر عن سطح المحيط ، وكنا تحت الغيوم ، وبعد مضى ما يقرب من خمس ساعات من الطيران المستمر، كأن الطائرة دخلت أو تعرضت لمنطقة العواصف .. فأخذت بضخامتها وطولها وعرضها وثقلها ، تتمايل وتهتز كالطير بلله القطر، وصار (دولاب) المقصف .. وكان أمامنا وما فيه من صحون وأقداح وملاعق وشوكات وسكاكين وزجاجات وعلب كل هذه الأدوات صار لها ألحان وموسيقى جاز، يبعث في النفس الهلع والفزع بدلا من الطرب والأنس، لأن معنى الأصوات الخارجة من دولاب المقصف أن الطائرة تضطرب ، وكل ما فيها من أدوات يتقلب بعضها على بعض.. وماذا نعمل نحن الذين نجلس بالقرب من النوافذ والمقصف نسمع أصوات أدوات المقصف وهى تصطدم بعضها ببعض، ونرى أجنحة الطائرة الضخمة والممتدة إلى مسافة بعيدة ، تعلوا وتنخفض كريشة في مهب الريح ، ماذا نعمل غير الدعاء والرضا بما قدره الله وقضى .. ومع اليقين التام والحمد لله ــ أنه لن يصيبنا الإ ما كتب الله لنا ، وهو نعم المولى ونعم النصير..

وارتفع الطيار بالطائرة حتى صار فوق السحاب ، وبلغ ارتفاعها عن سطح المحيط ١٥٠٠ متر، وهناك هدأت قليلا وتوقفت (قريعة) الصحون والزجاجات

المزعجة، واستمر كذلك ما يقرب من خمس عشرة دقيقة، ثم عادت حليمة لعادتها القديمة، وكأنها أصابتها مرة أخرى (النفاضة) والبرداء، وأخذ كل شيء فيها ينتفض ويتحرك وجلسنا كما يقول الشاعر:

وتجلدى للشامتين (أو للطائرين) أريهم   أنـي لـريب الدهـر لا اتـمـلـمـل

ونظرنا إلى الساعة فوجدنا أن الوقت المقرر للرحلة قد قارب الانتهاء، فحمدنا الله تعالى وشكرناه، وفكرنا أننا سنكون بعد قليل على أرض الولايات المتحدة الأمريكية بنيويورك..

ولم نكن نعلم أن مدة الطيران ستزيد ساعة أخرى. وأكملنا الساعات الست وزيادة والطائرة لم تنزل تحوم وتحلق في الجو.. ورأينا الشمس مرة من الناحية اليسرى، وأخرى من اليمنى، ومرة من الخلف، ومرة من الأمام.

لقد رأينا ساحل الولايات الشرقي والسفن الراسية عنده وهي لا تعد ولا تحصى.. والطائرة تكون مرة على الماء أو أخرى على اليابسة

المضيفة تعلن:

أعلنت المضيفة بالميكرفون أن الطائرة ستضطر للتأخير في الجو فوق المطار لعدم وجود مكان فى المدرجات.. ولكنى لم أفهم ما تقول.. فسألت زميلتها: عن سبب التأخير فقالت: إن المطار مزدحم بمئات الطائرات القادمة والذاهبة، وسيكون نزولنا بعد ساعة تقريباً.. وعندئذ أدركنا سبب التمشية الجوية فوق الساحل وفوق منطقة نيويورك.. وبقينا نشاهد منظر نهر هدسن، والنهر الشرقي، والجسور الممتدة فوقها وخضرة الأراضي المرتفعة كالتى كنا نراها في الصور.. وعمارة (أمبايرستيت) بشكلها المعروف.

سبع ساعات:

قضينا في الجو سبع ساعات ودقائق، ثم أبدت المضيفة أسفها للتأخير الاضطرارى، وطلبت من الركاب ربط الأحزمة استعداداً للنزول.. وأخذت

الطائرة تنخفض انخفاضاً تدريجياً.. **وكانت المناظر** الأرضية تزداد وضوحاً واتساعاً.. وأخيراً انخفضت انخفاضاً هائلاً وهي في طريقها إلى المدرج. وفي خفة ولطافة وضعت عجلاتها على الأرض، فحمدنا الله على السلامة والوصول إلى الأرض.. وكانت الساعة إذا ذاك بتوقيت مكة ٩ ونصف أى قبيل الفجر، أما الوقت فى نيويورك فالشمس كانت على وشك الغروب، وبدا قرصها أحمر قان يتوارى وراء دائرة الأفق، فتذكرت قوله تعالى

(حتَّى إذا بلَغَ مغرب الشَّمِس وجَدَها تَغْرُبُ في عينٍ حمِئة)

على الأرض :

وسارت الطائرة أو اندفعت فوق مدرجها إلى مسافة طويلة بسرعة زائدة على إرشاد مرشدى المطار، ثم وقفت بين مئات الطائرات الجاثمة، والتى كانت على وشك القيام أو الهبوط، ودوى عشرات منها يملأ الفضاء وهي تنخفض للنزول أو ترتفع للصعود .

الخروج :

وبمجرد ما وقفت وقف الركاب انتظارا للخروج، وبعد ثوان سمح لهم بالخروج.. خرجنا مع الخارجين، ونزلنا إلى الأرض بواسطة سلم الطائرة، كما هي الحالة عندنا في المطارات لا كما رأيناها فى لندن. ووضعنا لأول مرة أقدامنا على أرض الدنيا الجديدة.

الأستاذ عبد العزيز المنقور :

ومشت إحدى المضيفات معنا حتى أوصلتنا إلى بناية الجوازات، وعند مدخلها سألنا موظف مكتبه وسط المدخل: هل نحن مواطنون أم زوار؟ فقلنا: زوار، فأشار علينا أن ندخل من باب خاص، فدخلنا منه إلى موظفى الجوازات وعرضنا على أحدهم جوازتنا مع البطاقة التى ملأناها في الطائرة عن إثبات الهوية، فاطلع عليها وعلى سمة الدخول، ثم سألنا عن مدة إقامتنا في الولايات المتحدة فقال له فضيلة الشيخ محمد: شهراً واحداً،

وسجل المأمور ذلك في البطاقة الخاصة بالشخصية، ثم أعاد الجوازات إلينا، وأشار لنا بأن نتقدم إلى صالة الأمتعة فدخلناها وهنا تقابلنا مع الأستاذ عبد العزيز المنقور الملحق الثقافى السعودى في نيويورك، والمشرف على شئون الطلبة السعوديين في الولايات المتحدة.

وقد كان فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ اتصل به تليفونياً من لندن، وأخبره برقم الرحلة، و يوم مغادرتنا للندن، وساعة قيام الطائرة منها ووصولها إلى نيويورك على حسب إفادة مندوب شركة (بان أمريكان) مع زيادة كلمة إن شاء الله من عنده، وبناء على هذه المكالمة حضر الأستاذ المنقور قبل الموعد المحدد إلى المطار، ولتأخر نزول الطائرة اضطر لقضاء مايقرب من ساعتين في المطار..

وبمجرد ما رأيناه واجتمعنا به وتصافحنا زالت عنا وحشة الغربة التى لازمتنا منذ أن ودعنا الأخ عبد العزيز التركى عند مدخل الطائرة من لندن، وبعد أن انتهى الأستاذ المنقور من الترحيب وتبادل التحايا، ومحو جميع آثار الوعثاء النفسية بلطفه وحسن أخلاقه ونبله تقدم بنا إلى الصالة الواسعة حيث يجتمع الركاب لأخذ أمتعتهم..

ولوصول الأمتعة من الطائرة إلى هذه الصالة حمالة متحركة لا ترتفع عن الأرض إلا بأقل من متر على شكل قطار في شكل بيضوي يمتد إلى مسافة لا بأس بها، ويقف الركاب الذين يبحثون عن أمتعتهم حول هذه الحمالة الدائرة متباعدين في انتظار وصول الحقيبة أو الأمتعة.. وفي دقائق أو في ثوان تأتى الأمتعة مع حركة الحمالة إلى الإنسان فيمدّ يده ويأخذها، وإذا فاته شيء أو اشتبه عليه وقف قليلا حتى تعود الحمالة ثانية في دورته الثانية، وتظل دائرة حتى تنتهى جميع الأمتعة، ولكن الأمتعة لا تنتهي لأن حركة الطائرات لا تنقطع.. (كانت هذه الحمالة المتحركة أمراً غريباً بالنسبة إلينا، لأننا لم نرها في مطاراتنا في تلك الأيام ــ أما الآن فالحمد لله وجدت فى جميع المطارات وغدت شيئاً مألوفاً لدى الصغير والكبير).

— ١٢ —

فى مطار نيويورك وقفنا بجوار الحمالة المتحركة الأتوماتيكية الناقلة للأمتعة، ورأينا حقائبنا وهى تتقدم إلينا مع حركة الحمالة، وعندما وصلت إلينا تناولناها بأيدينا، ولم نر في المطار حاملا، بل يحمل كل إنسان حقيبته بنفسه، وإذا كانت الأمتعة كثيرة استعان بعربات كالتى تستعمل في المطارات لنقل الأشياء الثقيلة ،وأخذ الأستاذ المنقور إحدى هذه العجلات وحمل عليها الحقائب، ودفع بها بنفسه — أكرمه الله بكل خير وسعادة — إلى مأمور التفتيش الذى عرفه فحياه واكتفى بفتح الحقائب وإغلاقها، ووضع عليها إشارة السماح بالخروج، وجاء بها إلى الأستاذ المنقور.

وسار بنا الأستاذ المنقور في سيارته بين ممرات المطار وشوارعه التى لا يمكن للغريب أن يسلكها بسهولة لكثرة مداخلها ومخارجها.

من أحاديث السيارة:

وقد أخبرنا الأستاذ المنقور وهو يسير بين ممرات المطار أن مطار نيويورك يعتبر من أكثر مطارات العالم ازدحاماً في حركة الطائرات، فهو يستقبل أو يودع يومياً ألف طائرة وزيادة. وقد شاهدتم بأعينكم أنكم بقيتم في الجو ساعة كاملة انتظاراً لخلو مدرج من مدارجه، وكما تعرضتم للتأخير يتعرض معظم القادمين إلى هذا المطار لمثله، وهو عند أصحاب الأموال والشركات والمسئولين الكبار يعد مشكلة كبرى، لأن أوقاتهم تقدر بالدقائق والثوانى، وأن الدقيقة الواحده تكلف أمثال هؤلاء الألوف من الدولارات كسباً وخسارة، ولذلك تفكر الحكومة الأمريكية جدياً فى الأيام الأخيرة فى نقل

المطار إلى مكان أوسع، ولكن ضيق المساحة وكثرة السكان حالت حتى الآن في تنفيذ المشروع، وربما تحل المشكلة بإقامة عدة مطارات.

الأنفاق والجسور:

ومن الشوارع العامة دخلنا نفقاً واسعاً فقال سيادته: نحن الآن نسير تحت مجرى أحد الأنهار، ولكننا لم نشعر بأي اختلاف لا من ناحية الجو ولا من حيث الإضاءة، ثم خرجنا من النفق إلى الشوارع العامة، فإذا أنوارها وأنوار ناطحات السحاب أو النويطحات تتلألأ من كل جهة.. وكثير من هذه الناطحات لا يمكن للإنسان أن يرى طبقاتها العليا إلا إذا لوى رقبته إلى الخلف لآخر حد ممكن، ولو كان الرائى من ذوي الطرابيش القديمة لتدحرج طربوشة إلى الوراء كالكرة أو كالعلبة..

على جسر:

وعندما وصل الأستاذ المنقور إلى أول جسر من الجسور الممتدة على مجرى النهر الشرقي، وقف بسيارته عند مدخل الجسر، ودفع للجندى الواقف هناك ربع دورلا وقال: من نظام البلاد هنا أن كل سيارة تمر بأحد هذه الجسور ليلا كان أو نهارا لابد وأن يقف ويدفع سائقها ربع دولار، وكل جسر تمر به يوميا ألوف السيارات، وبهذه الضريبة الصغيرة تتمكن الشركات التى تشترك مع الحكومة فى بناء هذه الجسور من تغطية جميع ما ينفق عليها من النفقات العظيمة.

وسألة فضيله الشيخ محمد عن السائق الذى لا يقف عند المدخل، أو الذى يغالط الجندى ويهرب منه فقال الأستاذ المنقور: إن هناك آلة إلكترونية في نهاية الجسر تسجل رقم السيارة التى تمر دون توقف، وإذا عرف البوليس رقم السيارة فلا مناص لها من قبضة البوليس مادامت في الولايات المتحدة. وقد أراد أحد القادمين إلى هذه المدينة أن يجرب، فر سريعا بأحد الجسور دون توقف أو دفع ما عليه من الضريبة، ثم وقف على

مسافة من الجسر فلم يشعر إلا بأحد أفراد البوليس يتعقبه على دراجته النارية ونظر إلى رقم السيارة فوجده موافقاً للرقم الذى عنده، ثم جاء إلى السائق وسأله لماذا لم تقف ولم تدفع الضريبة؟ فقال له الرجل أردت أن أجرب وأرى يقظة البوليس الأمريكى، فضحك الجندى وأخذ منه المعلوم وسمح له بالمرور.

وقطعنا مسافة طويلة فى هذه الأحاديث الطريفة التى كان الأستاذ المنقور يتحفنا بها وهو يجرى بسيارته مع مئات السيارات.

فندق باركلى (BARKLEY)

وأخيراً وصلنا الفندق وهو فندق باركلى الذى حجز لنا به الأستاذ المنقور غرفة واسعة، والفندق كأنه قصر من قصور البارونات، عمارة فخمة وليست من ناطحات السحاب، له رتاج كبير، ثم صالة واسعة مفروشة بأفخم السجاد، وجدرانه مزينة بعدد من اللوحات الفنية إحداها تمثل معركة قديمة من معارك المهاجرين فى أمريكا، ومضاءة بأنواع من المصابيح والثريات الكهربائية، ومزودة بعدد من الأرائك الوثيرة، المتباعدة عن بعض هنا وهناك على الطريقة الأمريكية.

وبجوار الصالة عدة مكاتب أحدها للاستعلامات، وآخر للصيرفة، وقسم للبريد، وقسم للتليفونات، وكل هذه الأقسام تدار من قبل عجائز واعيات فى أداء أعمالهن. وثم قسم لبيع التحف والهدايا وبطاقات مصورة للبريد.

أما حركة الداخلين والخارجين فى الفندق فتكاد لا تنقطع عن الصالة، فهذا مسافر، وهذا قادم، وهذا ينتظر خلو غرفة من الغرف، وهناك بعض رجال الأعمال اجتمعوا حول مائدة يتباحثون في شئونهم، وآخرون جلسوا يتحدثون فى موضوع من المواضيع التجارية، والجالس منفرداً يأخذ الجرائد اليومية وينهمك فى قرائتها. أي أن كل واحد ينصرف إلى ما يهمه، فلا

يضيع وقته فى عبث أو حملقة.. إلى هذا أو هذه أو إلى الداخل والخارج ...

إلى الغرفة :

سجل الأستاذ المنقور فى قسم الاستعلامات أسماءنا وأرقام جوازتنا وأخذ مفتاح الغرفة، ثم صعدنا إلي الذور الخامس بالمصعد ودخلنا الغرفة وكانت غرفة واسعة جداً، مزودة بتليفون وتليفزيون يتبعها حمام كبير

وبعد أن اطمأن الأستاذ المنقور من ناحية راحتنا واستقرارنا استأذن للخروج على أن يعود إلينا غداً مبكراً.. فودعناه شاكرين له هذه المساعدات واللطف والإكرام.

ولم يكن بالنسبة إلينا مجال لأي سهر أو جلوس، ونوافذ الغرفة لا تطل إلا على ناطحات وناطحات وأنوار نوافذها المربعة أو المستطيلة في خطوط أفقية ورأسية لا تعد ولا تحصى، الأمر الذي لا يشجع على البقاء في النوافذ.. فاستسلمنا للنوم بعد أداء الصلاة..

هذه أول ليلة نبيتها فى نيويورك بالولايات المتحدة، وهي ليلة الخميس ٨٨/٥/٢١هـ الموافق ٦٨/٨/١٥م

واستيقظنا يوم الخميس مبكرين كعادتنا، وكانت الدنيا حولنا ساكنة وساكتة، وأنى لنا أن نسمع صوتا أو نري إنسانا والنوافذ كلها مزودة بالزجاج والستائر.. ونظرنا من النوافذ فكأننا على تل وأمامنا واد، لا نرى غير عمارات شامخة من ٣٠ طبقة أو أقل أو أكثر، والأرض لا تصلها أشعة الشمس إلا عندما تكون عمودية ورأسية، أما صباحاً ومساء فيعلوها نور كنور الأسفار..

رجل على خشبة:

ورأينا في العمارة التى كانت بجوار الفندق، وهى ذات خمسة وعشرين طبقة، فى إحدى نوافذها عاملا من العمال، وقف على خشبة مثل خشبة

(الرحمانية) المعروفة بمكة، أو السقالة، وبيده أدوات المسح ينظف بها النوافذ نافذة نافذة، ويظهر أن كل صاحب غرفة يقوم بعملية التنظيف على حسابه، لأن العمارة كلها قد تستغرق نظافة نوافذها شهراً أو أقل..

ولم نر منظراً يسترعى الأنظار غير منظر هذا الرجل المعلق بنوافذ إحدى الغرف.

طعام الإفطار:

واتصلت تليفونياً بقسم الخدمة (السرويس) الذى يهيئ للنزلاء الطعام والشراب، ويرسل إليهم على حسب طلبهم.. وطلبت منه الفطور لغرفة رقم كذا، وكنت أظن أن القسم يعرف نزلاء الغرف فيرسل الغداء على قدر عددهم..

ولم أكن أدرى أن (السرويس) لا يفهم شيئاً عن النزلاء، وأن الطلب لابد وأن يكون موضحاً بعدد، أى نريد فطور لعدد كذا.. أما طلب الفطور مجرداً من العدد فمعناه لإنسان واحد..

وأخيراً جاءت الخادمة بعربة ووضعت لنا منها ما يكفى لإنسان واحد، فقلت لها: نريد لاثنين. قالت: اطلب من السرويس.. وأردت أن أعيد الطلب، ولكن الشيخ قال: لا حاجة إلى الطلب ــ فطعام الواحد يكفى الاثنين. فقلت له هذا هناك في بلادنا ــ عمرها الله بالخير والنعم ــ أما هنا فكل شيء بمقدار كما قال الشاعر العربي:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولى على النار

إلى أن قال.. ولا تبول لهم إلا بمقدار.. فضحك فضيلته وقال: صدقت: ولكن اليوم نكتفي بهذا لأن هذا الطلب ما جاء إلا بعد مراجعتين أو ثلاث.. ونستعد للنزول إلى الصالة فميعاد الأستاذ المنقور قد اقترب.. وتناولنا الفطور.. ثم لبسنا ونزلنا إلى الصالة.. وفي طريقنا إلى المصعد

قابلتنا زنجية بدينة عيناها حمروان كجمرتين، جاءت إلي الغرفة لتنظيفها..
فقلنا: يا الله صباح خير..

إلى دكان التحف:

وفى الصالة دخلنا دكان التحف، وبعد (التفرج) على الموجودات اشترينا عدداً من البطاقات المصورة لمناظر نيويورك لإرسالها في البريد إلى الطائف..

الأستاذ المنقور:

وجاء الأستاذ عبد العزيز المنقور في الميعاد المحدد الساعة التاسعة فقمنا معه وقال سيادته: لنذهب الآن إلى المكتب ــ أى المكتب الثقافي السعودى ــ لتجتمعوا هناك بالإخوان الزملاء، ثم نقوم من هناك إلى حيث تريدون.. فقال له فضيلة الشيخ: سنكون معك ونذهب إلى حيث تأخذنا من معالم هذه المدينة، فأنت رائدنا ودليلنا هنا.. فشكر الأستاذ المنقور فضيلة الشيخ..

المكتب الثقافي السعودى:

لم يكن المكتب بعيداً عن الفندق، فأحب الأستاذ المنقور أن نصله مشياً على الأقدام، ونعم ما فعل، فلم نتمكن بعدها من السير على الأقدام، لبعد المسافات، والإنسان لا يتمتع من المناظر ورؤيتها إلا إذا مشى على الأقدام...

الشوارع:

لقد قطعنا للوصول إلى المكتب ثلاثة شوارع فرعية من الشارع العام، وكلها كانت مزدحمة بالسيارات الجديدة، السيارات الأمريكية الكبيرة التى لم نرها في لندن.. ومنظر السيارات ذكرني بشوارع جدة والرياض والمنطقة

الشرقية والكويت، حيث تستعمل هذه السيارات الفخمة للأجرة «تاكسى» ..

والمشاة رجالا ونساء لا يسيرون إلا في شبه جرى كأنهم مدعون إلى حفلة أو أن أحداً يسوقهم، وبمجرد ماتظهر إشارة سير السيارات في الشارع تندفع ذاهبة وآيبة، ويأخذ المشاة في التجمع عند المنعطفات وإشارات المرور، فلا تظهر الإشارة الخضراء إلا ويهرع المشاة لعبور الشارع في تجمعات منظمة ..

ولا ترى جندياً واحداً من جنود المرور عند إشارات المرور، بل كل يسير في نظام وحدود لا يخالفها ولا يجتازها ..

الشارع الخامس:

ومررنا بطرف الشارع الخامس (ففث أوفينو) (Fifth Avenue) وهو من أشهر الشوارع في نيويورك، إذا لم يكن في أمريكا كلها، طوله ستة أميال، ويمتد في قلب مدينة نيويورك من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ومعارضه ودكاكينه ومتاجره تستحق المشاهدة ويعد من معالم نيويورك ..

عمارة المكتب:

وصلنا العمارة التى بها مكتب الأستاذ المنقور ورقمها على ما أعتقد (٨٨٠) والمكتب يقع في الطابق السابع عشر، صعدنا إليه بالمصعد وهو عبارة عن حجرة صغيرة ...

ومفاتيح المصعد التى يضغط عليها الإنسان للوصول إلى الطبقة التى يريدها مفاتيح إلكترونية، لا تحتاج إلى ضغط فوقها، بل تتحرك أو تحرك المصعد باللمس أى إذا قربت أصبعك من الزر تحرك المصعد، كما أن باب المصعد يندفع بتجاذب البريق المشع من أطرافه إلى البريق الذى يشع من

الإطار الذى أمامه، وقد حدث مرة أن أحد الصاعدين كانت معه بعض الجرائد، وحالت دون وصول البريق فلم يتحرك الباب، إلا عندما دخل الرجل وأبعد الجرائد عن الباب إلى الجهة الثانية...

جولة في المكتب:

ودار الأستاذ المنقور بنا على جميع أقسام المكتب يعرفنا بكل موظف وعمله.. ولم أعرف شخصيا من بين الموظفين إلا الأخ الأستاذ جميل فطانى ابن صديقى وزميلى في الدراسة الشيخ ياسين فطانى، وعرفت شاباً آخر وهو لم يعرفنى وهو عثمان العثمان، وقد سبق أن درس وهو طفل صغير في مدرسة الأمراء بالرياض...

وعرفت بعض الموظفين بوجوههم، ثم جلسنا في مكتب الأستاذ المنقور، وبمجرد ماجلس الأستاذ المنقور على مكتبه بدأ يشتغل بفكره ولسانه ويده وأذنه في آن واحد، فهو معنا بأحاديثه ويدخل عليه الموظفون والطلبة فيستمع إليهم وإلى شئونهم، فيتصل حالا بالجهات المسئولة في شرق الولايات المتحدة أوغربها أوشمالها وجنوبها، وينجز تلك الشئون ويتصل به الطلاب من جامعاتهم تليفونياً، فينهى أعمالهم وطلباتهم من مكتبه، وقد حضر عنده عدة طلاب بعضهم قدامى والبعض جديد، ولكل واحد منهم مشكلة فحلها ـــ قواه الله ـــ في الحال باتصلاته الشخصية مع الجهات المسئولة، وقد أنجز لأحد هؤلاء المراجعين مشكلة مالية، أى أن الطالب كان في حاجة إلى مبلغ، فاتصل الأستاذ بأحد البنوك وأنجز له طلبه بوجاهته وبشخصيته، وهولطيف مع الطلبة، وجيد مع المجدين يساعده بجاهه وبشخصيته ومركزه المحترم بين القوم، فلا يخرج الطالب من عنده إلا وهو مسرور، وفي الوقت نفسه شديد على من تبدر منه بادرة إهمال في الواجب أوالدراسة، أوأى ناحية من نواحى حياته، فقد لاحظنا على طالب دخل عليه ـ للمراجعة في شأن من شئون الدراسة ـــ إهماله بهندامه وهيئته، كأنه يحاكى أويحاول أن يحاكى (الهيبيز) في بعض أحوالهم، مع أنه كما فهمنا من سيادته أنه من الطلبة الجيدين والمتفوقين فى

دراسته، مع ذلك اشتد معه في الخطاب وقال له: لا أراك مرة أخرى بهذه الحالة، وإذا رأيتك، أخذت اللازم نحوك.. وأمر بعد خروجه من عنده محاسب المكتب ألا يصرف له راتبه الشهرى مرة أخرى إذا جاء بهذه الحالة.. وقد اعتذر الطالب بأن اشتغاله بالدراسة وانصرافه إليها جعله يهمل ناحية نفسه وهندامه...

ودخل عليه طالب سعودى وقال: إن الطالب ـ فلان ـ وصل أمس أوقبله ونزل معه إلى المكتب، ثم تاه في الشارع ولا يعرف اسم الفندق، والضائع لا يعرف الشوارع ولا الطرق.. فاتصل الأستاذ المنقور في الحال بعدة جهات وعدة فنادق في الجهة التى كانوا فيها، وأرسل الطالب المخبر في سيارته إلى ناحية الشارع الذى جاء منه.. وأخيراً وبعد دقائق تمكن من العثور على الطالب الضائع.

البحث عن أبناء الشيخ محمد:

ورغب فضيلة الشيخ أن يتصل بأحد أبنية اللذين يدرسان في غرب الولايات المتحدة بولاية كاليفورنيا فاتصل الأستاذ المنقور حالا بالجامعات التى يدرسان فيها تليفونيا، وعرف أنهما الآن غير موجودين في الجامعة، أوأنهما في رحلة مدرسية...

ثم أبدى فضيلته رغبته لزيارة ولاية كاليفورنيا للاجتماع بأبنائه فرحب الأستاذ بالفكرة، وفي الحال طلب مندوب الخطوط الجوية لشركة (ت دبليو) عنده في المكتب، ونظم معه لفضيلة الشيخ رحلة إلى غرب الولايات المتحدة، وقطع لها التذاكر اللازمة، وكان فضيلة الشيخ يؤمل أن يصله أحد أولاده ليرافقه في هذه الرحلة.

ـ ١٣ ـ

مكثنا في مكتب الأستاذ عبد العزيز المنقور إلى ما قبل انتهاء الوقت الرسمي، وقال الأستاذ المنقور لفضيلة الشيخ محمد: سيكون غداؤنا اليوم بالمقصف أوالمطعم التابع لمقر (هيئة الأمم المتحدة) وسيكون معنا الأستاذ عبد الرحمن البسام سفير المملكة العربية السعودية في تونس، وسعادة الأستاذ عبد الرحمن القاضي قنصل المملكة العربية السعودية في نيويورك.. فشكره الشيخ على هذا الإكرام...

إلى مقر هيئة الأمم :

وخرج بنا الأستاذ المنقور في سيارته إلى مقر هيئة الأمم المتحدة، ولم يكن بعيداً بالنسبة إلى راكبي السيارة.

وقد عرفت مدخله من بعد من أعمدة الأعلام، أعلام الدول المشتركة كما كنت أراها في الصور والجرائد.. وأمام المدخل نافورة جميلة المنظر، ثم دخلنا المبنى وحدّث عن فخامته ما شئت أن تحدث، ثم صعدنا إلى الطابق الثاني وللصعود إليه درجتان من الناحية اليمنى: درج سحاب (أى أوتوماتيكى) ومن اليسار درجة عادية.. وكان السكون والهدوء يسود جميع أجزاء المبنى.. ومن الطابق الثانى أخذنا الأستاذ المنقور نحو اليسار في ممرات واسعة هادئة مضاءة بضوء خافت غير مزعج.. وانتهى بنا السير إلى صالة كبيرة في صالة الطعام، وكانت مزدحمة بأجناس مختلفة ، أى أنها تمثل هيئة الأمم حقيقة.

ولم يكن بين الحاضرين من يتميز عن غيره إلا الإفريقي ببشرته السوداء،

أوالصيني والياباني بطابعه المغولي وبصفرة بشرتهم.. ومعظمهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم باللغة الفرنسية...

وأجلسنا الأستاذ المنقور على المائدة رقم (٤) والموائد كلها بالأرقام.. وكان معالي الأستاذ البسام وسعادة الأستاذ القاضي قد سبقونا إلى هذه الصالة.. وقام الأستاذ المنقور بدور التعارف بين الجميع...

وبعد هنية بدأ دور الغداء بتناول عصير الليمون أوالبيبسي كولا، ثم جاءت قائمة الطعام فعهد فضيلة الشيخ محمد إلى الأستاذ المنقور بمهمة اختيار ما يناسب من الأطعمة، فاختار الأستاذ من أشهى الأطعمة أنواعاً وأشكالاً وألوانا، واجتمعت أمامنا أطباق مختلفة، وحمدنا الله أن كانت مائدتنا منعزلة في جانب من الصالة، ولوكنا وسط الحاضرين لصارت مائدتنا محط أنظارهم ولو بطرف خفي لكثرة ماجمع عليها الأستاذ المنقور من المشوى والمقلي، والمحمص والمسلوق، والسوائل والبقول الخضراء والحمراء والصفراء، والحلويات العربية والأمريكية أسبغ الله عليه من نعمه وخيره وفضله.

وكان معالي الأستاذ البسام وزميله الأستاذ القاضي يضفيان على الجميع بروحهما المرحة اللطيفة جواً كله مرح وفرح وسرور وابتهاج..

وبعد تناول الغداء طلب الأستاذ المنقور لكل واحد ما رغب فيه من القهوة أوالشاي أوالعصير..

إلى صالات هيئة الأمم المتحدة:

ثم قام الإخوان بنا إلى قاعة الجمعية العامة لاجتماعات هيئة الأمم، وشرح لنا الأستاذ القاضي طريقة إبداء الآراء من قبل الأعضاء، وأخذ أصواتهم في موضوع من المواضيع.. وكل عضو أمامه على المقعد ثلاثة مفاتيح (أوأزرَّة) أحمر وأصفر وأخضر، وأمام منصة الرئيس ثلاث دوائر صغيرة، لكل دولة من الدول، فإذا ضغط أحد الأعضاء على أحد المفاتيح أضيئت دائرة

من الدوائر الثلاث.. فاللون الأخضر معناه الموافقة في التصويت، واللون الأحمر يدل على المعارضة، وعدم الموافقة، واللون الأصفر لنوع من التردد أوالحياد، أى عدم الموافقة والمعارضة..

ومن قاعة الجمعية العامة انتقلنا إلى قاعة الأمانة العامة، ثم إلى قاعة مجلس الأمن، والقاعات واسعة وسقوفها عالية، وجدرانها المرتفعة مزودة بالوسائل المانعة للصدى.

ووجدنا في قاعة الجمعية العامة عدداً من المرشدات على مقاعد خاصة، أمامهن أحد الموظفين في هيئة الأمم يلقى عليهن محاضرة في فن الإرشاد والقيام بمهمة الإرشاد عند اجتماع الجمعية، ودخلنا القاعة، وخرجنا ولم يلتفت أحد منهن أوالمرشد إلينا...

وعند خروجنا من مقر هيئة الأمم المتحدة شكر فضيلة الشيخ محمد الأستاذ المنقور على هذه الفرصة الذهبية التى جمعتنا بهؤلاء الإخوان الأفاضل الكرام، ومكنتنا معهم بمشاهدة هذه المنظمة الدولية التى يتردد اسمها على الأسماع بواسطة الراديو أوالتليفزيون أوالصحافة، كلما انزعج العالم بنبأ خطير وأمر جلل...

وعاد الأستاذ المنقور بنا إلى مكتبه، حيث نظر في المعاملات المجتمعة أمامه.

ابن فضيلة الشيخ محمد يتصل به تليفونياً:

وفي أثناء جلوسنا بمكتب الأستاذ المنقور، اتصل بفضيلة الشيخ محمد ابنه خالد تليفونياً من غرب الولايات المتحدة، وأطمأن على صحته وصحة أخيه، واعتذر له ابنه عن الحضور إلى نيويورك نظراً لاشتغاله بالدراسة، وأنه سيكون بإذن الله بعد شهر في الطائف.

إلى (أمباير استيت) أطول عمارة في العالم: (Empire State Building)

وبعد أن انتهى دوام المكتب الرسمى، وانصرف الكتاب قال الأستاذ المنقور: سنذهب الأن إلى أكبر معلم من معالم مدينة نيويورك أوالولايات المتحدة كلها، وهو (عمارة أمباير استيت) أطول عمارة شيدها الإنسان حتى الآن في العالم، وتعد الآن من عجائب الدنيا الثمان التى كانت سبعاً وصارت بهذه الأعجوبة.

وأخذنا الأستاذ المنقور إلى هذه العمارة التى تقع في قلب منطقة (مانهاتن) (Manhattan) مقر الحركة التجارية، ومركز ناطحات السحاب، وترتفع هذه العمارة من الأرض إلى أعلى نقطة فيها (١٤٧٢ قدماً ــ أو٤٤٨ مترا) وأعلى نقطة فيها هي نقطة انتهاء البرج الحديدى المستخدم للبث التليفزيونى، وعن طريقه تنقل البرامج التليفزيونية إلى ثمانية ملايين جهاز من أجهزة التليفزيون في نيويورك وضواحيها والولايات المجاورة.. وقاعدة هذا البرج تبدأ من عند الطبقة الثانية الواقعة على ارتفاع (١٢٥٠ قدماً) ويستطيع الإنسان أن يرى من نقطة قاعدة البرج إلى مسافة ٨٠ ميلا في يوم صحو، وبها منظارات مكبرة لا تؤدى عملها إلا إذا وضع فيها مبلغ معلوم، وبها كذلك عدد من المعارض لبيع التحف والهدايا والمرطبات، وترسل من هذه الطبقة ألوف البطاقات سنوياً إلى مختلف أقطار العالم...

ويستخدم للصعود ما بين ارتفاع (٨٠٠ قدم إلى ارتفاع ــ ١٢٠٠ قدم) مصعد كبير بسرعة سبعة أميال في الدقيقة الواحدة، ومجموع طبقات العمارة (١٠٢) طبقة وبها (٦٥٠٠) نافذة، وتنظف هذه النوافذ الزجاجية مرتين في كل شهر. ويبلغ طول الأسلاك المستعملة في التليفونات داخل العمارة ٣٥٠٠ ميل، ويقدر وزن العمارة كلها ٣٦٥,٠٠٠ طن، وعدد العمال الذين يعملون فيها ١٨٦٠ منهم ٢٠٠ امرأة عملهن تنظيف الأماكن العامة.. وتستهلك العمارة أكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ كيلوواط من القوة الكهربائية شهرياً، وعدد الدرج من المبدأ إلى الطابق الثاني بعد المائة ١٨٦٠ درجة.

ويدخلها يومياً ٣٥٠٠٠ زائر، وتكاد سلسلة الزوار لاتنقطع عن العمارة، ولكن من غير ضوضاء أوضجة، فالجميع يسيرون في (طابور) ويؤخذ من كل زائر عند دخوله دولاران.

وتقدمنا من الباب إلى ممر يسير فيه الناس واحداً إثر آخر، حتى وصلنا في هدوء وسكوت إلى أول الدرج السحاب، ومنه إلى صالون كبير مزدحم بزوار العمارة، الصاعدون منهم في جهة، والنازلون في جهة أخرى، ثم تحركنا من الصالة في صف مستطيل إلى أحد المصاعد، وهو عبارة عن غرفة مغلقة اجتمع فيها مايقرب من خمسين شخصاً، وعندما تحرك لم نشعر بحركته مطلقاً، ولكن حينما وصلنا إلى الطابق السبعين شعرت بضغط خفيف على الصدر، وشعر فضيلة الشيخ كذلك، وبعد الطابق السادس والثمانين خرجنا من المصعد وارتفعنا إلى بقية الارتفاع في مصعد آخر.... وانتشر الزوار في الشرفات (البلكونات) المحجوزة أطرافها بحواجز زجاجية.. وإذا نظر الإنسان إلى الأرض وإلى المسافات البعيدة يشعر بأنه في الجو ويرى بجلاء تقسيمات نيويورك وخريطتها ومافيها من أنهار وبحيرات وحدائق وعمارات وناطحات السحاب كعمارة شركة أرسى أى R. C. A. - المرتفعة والتي يبلغ ارتفاعها (٨٥٠) قدما وبها مايقرب من سبعين طبقة.

وكان الزوار يأخذون صوراً لمدينة نيويورك، والبعض يتناول المرطبات، وبالرغم من ارتفاع المكان كانت الشمس حارة، فاضطررنا إلى تبريد الجسم ببعض المرطبات المثلجة، كما اشترينا بطاقات بريدية وأرسلناها إلى الطائف كتذكار..

ولولا حرارة الشمس لأطلنا المكث، ولكن الحرارة جعلتنا نستعجل وندخل فى (طابور) النازلين، ووصلنا إلى الشارع بالطريقة التى صعدنا بها.. وبنيت هذه العمارة سنة ١٩٣١م. (١٣٥٠هـ).

إلى الفندق :

وعاد بنا الأستاذ المنقور إلى فندق باركلي ــ زاده الله نشاطاً وقوة ــ وقال : إن أمين صندوق مكتبه الأستاذ عثمان العثمان دعانا جميعاً إلى حفلة عيد ميلا ابنه ، وأن الحفلة مقتصرة علينا ومختصرة ، وسآتيكم الساعة التاسعة مساء للذهاب إليه إن شاء الله.

ولم تكن الساعة التاسعة بعيدة عن الوقت الذى جئنا فيه إلى الفندق ، فأخذنا قسطاً من الراحة بالاضطجاع على السرير، ثم نزلنا إلى صالة الفندق قبل التاسعة بدقائق ، وجاء الأستاذ المنقور في الوقت المحدد فقمنا معه ، ولم يكن محله بعيداً عن فندقنا ، فوصلنا إلى شقته في دقائق ، وكان عنده الأستاذ جميل فطاني ، والأستاذ العجروش وبعض زملائه ، وسهرنا معهم إلى الساعة الحادية عشرة ليلا ، وبعد تناول العشاء والشاى ومشاهدة منظر إطفاء الشموع ، خرجنا من عنده شاكرين له على هذا اللطف ، داعين لابنه بالعمر الطويل في ظل والديه الوارف .. وأن يجعله قرة عين لهما.

إلى بعض الأحياء الشعبية:

وقال الأستاذ المنقور: لقد شاهدتم في غدواتكم وروحاتِكم فخامة أحياء نيويورك وشموخ عمارتها ، وصخب شوارعها الواسعة .. فلنلق الآن نظرة على بعض أحيائها الشعبية ، لتبقى في ذاكرتكم تلك المناظر، وهذه الصور، وقد تذكركم بالأسواق الشعبية عندكم ، والتى تعرض فيها المعروضات في (الدواوير) والبسطات ، وتحت ظلال الأشرعة ..

وسار بنا سيادته من الأنفاق التى تحت الأنهار، وفوق الجسور الممتدة فوقها ، حتى وصل إلى المنطقة الجنوبية حيث تغيرت المناظر من ناطحات السحاب والمعارض الفخمة ، إلى بيوت صغيرة ومباسط للخضرة والفواكه ، وأنواع من الأطعمة والأقمشة وغيرها من البضائع والمقاهى الشعبية ، ومعظم رواد هذه الأحياء والشوارع الزنوج رجالاً ونساء.. وأطفالاً .. وتذكرت وأنا

أمر بتلك المناظر التى لا تخلو من بعض مشاهد البؤس، مقالا كتبته مجلة (نيوزويك) الأمريكية في عدد فبراير سنة ١٩٦٤ عن الجوع في الولايات المتحدة وصورت مناظر البؤس والفقر من مدن مختلفة منها: مدينة نيويورك ولوس أنجلوس، وديترويت، وسان فرانسسكو، وكنت أستغرب من تلك الصور، ولكن بمرورى من هذه الأحياء تصورت صدق مانشر في تلك المجلة، أمثلُ هذه المناظر تشاهد في أغنى بلاد في العالم، إنها لعبرة لمن يعتبر؟.

وسألت الأستاذ المنقور عن المواصلات تحت الأرض مثل (مترو) في باريس (واندرجروند) في لندن، وتعرف هنا في الولايات المتحدة باسم (سب وى) (Sub Way) فقال سيادته: إنها ليست كما رأيتموها في لندن، ولا يستعملها هنا إلا المضطر وأمثال هؤلاء الذين مررنا بهم في الأحياء الشعبية.

رحلة إلى سان فرنسسكو مع الأستاذ جميل ياسين فطاني:

لقد أبدى فضيلة الشيخ الرغبة في مشاهدة غرب الولايات المتحدة فرحب الأستاذ المنقور بهذه الرغبة ليأخذ فكرة عن الطلبة السعوديين في تلك الجهة.

وسمح للأخ الأستاذ جميل ياسين فطانى بأن يرافق فضيلته، وقد سررنا بمرافقته، لأن دماثة أخلاقه وهدوئه يذكرنا بأبيه الشيخ الفاضل ياسين محمد نور فطانى، وبصلاته الطويلة بحكم عمله في رئاسة القضاة سابقاً مع فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ، وصلاته بى بحكم الزمالة المدرسية والصداقة..

وقد أوصلنا الأستاذ المنقور بعد الجولة القصيرة في الأحياء الشعبية إلى الفندق، على أن نكون غداً على أتم الاستعداد للرحلة إلى سان فرانسسكو.. وقررنا أن نأخذ معنا الحقائب اليدوية الصغيرة، والحقائب الكبيرة نبقيها لدى الأستاذ المنقور..

وبناء على هذا الرأى لم نتم إلا بعد أن هيأنا الحقائب، وما نأخذه معنا والتى نتركها، وبتنا تلك الليلة ليلة الجمعة ١٣٨٨/٥/٢٢هـ الموافق ١٩٦٨/٨/١٦م فى أحلام رحلة الغد إلى سان فرانسسكو، والتى ستكون في المسافة مثل رحلتنا من لندن إلى نيويورك أى تستغرق ست ساعات في الجو..

ـ ١٤ ـ

إلى سان فرانسسكو:

خرجنا يوم الجمعة ١٣٨٨/٥/٢٢هـ الموافق ١٩٦٨/٨/١٦م مع الأستاذ عبد العزيز المنقور إلى مكتبة بعد تصفية الحساب مع أهل الفندق، ومكثنا في مكتبه حتى أنهى الأعمال الرسمية، ونظر في أكداس من الأوراق التى على مكتبه، والبرقيات الواردة والصادرة، وزاره في هذه الأثناء معالى الأستاذ عبد الرحمن البسام، والأستاذ سعد أبو معطى، الذى انتهى من دراساته العالية في الولايات المتحدة، ويستعد للعودة إلى الرياض.. وبقينا نتحدث مع هؤلاء الإخوان في شئون مختلفة في أثناء اشتغال الأستاذ المنقور في إنجاز معاملاته.

إلى المطار:

ونظر الأستاذ المنقور إلى الساعة فقال: لقد اقترب موعد قيام الطائرة التى ستقطعون فيها الرحلة إلى سان فرانسسكو.. ولم يأت الأستاذ جميل ياسين فطانى الذى سيرافقكم في الرحلة، ومن المستحسن أن ننتظره عند مدخل العمارة، وبناء عليه أخذنا حقائبنا ونزلنا معه إلى أسفل العمارة، وبمجرد ماخرجنا من المصعد إلى باب العمارة رأينا الأستاذ جميل فطانى أمامنا حاملا معه حقيبة الرحلة، فحمدنا الله تعالى على وصوله، فالرفيق ـ كما يقول المثل ـ قبل الطريق.

إلى مطار شركة (تى دبليو ـ أى): (T.W.A)

وهو يشغل جزءاً كبيراً من مطار نيويورك العالمى، وكل شركة كبيرة من شركات الطيران لها محلات خاصة في المطار..

والبناية التى بها مكاتب هذه الشركة مشيدة على شكل فراشة أوهيئة طائرة، ولا نرى منها من بعد غير سقوفها المنحدرة والممتدة إلى اليمين واليسار، والمقوسة.. وإذا مادخلها الإنسان رأى أمامه ممرات واسعة ممتدة كالأنفاق تنتهى إلى صالات واسعة، وغرف كبيرة مكونة من طابقين، ومكاتب لقطع التذاكر واستقبال أمتعة الناس ووزنها وإرسالها إلى الطائرة.. كل ذلك يتم بطريقة أوتوماتيكية.. وقدم الأستاذ المنقور التذاكر إلى الموظفة المختصة فأشرت عليها، وبذلك سمح لنا بالدخول إلى صالة المسافرين، حيث ودعنا الأستاذ المنقور متمنياً لنا رحلة سعيدة ممتعة.. كما شكره فضيلة الشيخ على لطفه ومساعدته القيمة في إنجاز هذه المهمة في يسر وسرعة.

وبعد لحظات قمنا مع المسافرين وتوجهنا إلى الباب الخاص لخروجنا ومنه سرنا في ممر يشبه الطائرة مسافة قصيرة ولم نشعر بعدها إلا بوجودنا داخل الطائرة، ولم نر فى أثناء سيرنا سلماً ولا مدرجاً ولا أرض المطار.

واستمرت عمليات دخول الركاب وعدهم والتأكد من جوازاتهم نصف ساعة، ثم أمرنا بربط الأحزمة، ثم ارتفعت الطائرة وظلت ترتفع في الجو حتى بلغ ارتفاعها عن سطح البحر (٩٠٠) متر، ثم دارت نحو الغرب.. وشاهدنا من نوافذها ضواحى نيويورك الغربية.

وكانت الطائرة تجتاز أراض كلها خضراء تتخللها مياه الأنهار أوالبحيرات، وخرجنا من ولاية نيويورك على ولاية بنسلفانيا (Pennsylvania) ثم على ولاية أوهايو (Ohio) ، فولاية أنديانا (Indiana) ثم ولاية ميسورى والينوى (Illinois) (Missouri) وإلى هذه الولاية كانت الأرض التى تحتنا عبارة عن خضرة مستمرة يتخللها بريق المياه لكثرة الأنهار والبحيرات. ثم مررنا من فوق ولاية كنساس، (Kansas) ، ومن هنا أخذ لون الأرض يتغير، وظهرت بقع حمراء ــ كما نراها في بلادنا عندما تمر الطائرة فوق المناطق الرملية كالنفوذ والدهناء، تخترقها خطوط المياه النهرية، ثم جاءت منطقة الارتفاعات وسلاسل جبال روكى (Rooky) الممتدة من

الشمال إلى الجنوب، وهو أطول وأعلى سلسلة جبلية في الولايات المتحدة، بل وفي أمريكا الشمالية كلها، وكثير من قممها العالية مكسوة بطبقات من الجليد وتنبع منها أنهار كثيرة كنهر ميسوري (Missouri) ونهر مكنزى (Mackenzie).

ثم مرت الطائرة من فوق ولاية كلورادو (Colorado) ومن فوق بحيرات مالحة، ومرتفعات نيفادا (Nevada) هى كذلك تشبه أراضى النفوذ والصحاري الأخرى في بلادنا، ولا يفرق بينهما إلا وجود الأنهار أو البحيرات، ثم حلقنا فوق جبال نيفادا وأوديتها الخضراء وأنهارها التى لا تعد ولا تحصى، ومنحدرات الجبال كلها خضراء.. ثم مررنا من فوق أراض حمراء رملية كرمال الربع الخالى، تتخللها مناطق زراعية خضراء.. حتى وصلنا مدينة سان فرانسسكو، أى بعد أن قطعنا الولايات المتحدة أو القارة الأمريكية الشمالية من الشرق إلى الغرب في مسافة تقدر بـ(٢٥٦٦) ميلا..

أما داخل الطائرة فبعد أن ارتفعت على ارتفاع ٩٠٠متر، وأخذت اتجاهها نحو الغرب واستوى طيرانها على متن الرياح بدأت مضيفات الطائرة في أداء مهماتهن من تقديم مقدمات الطعام، ثم الطعام، ثم ما يريده الراكب من المشروبات الباردة أو الحارة.. واستغرقت هذه العملية أكثر من ساعة ثم بدأ عرض سينمائي من فلم ملون صامت إلا إذا شاء الراكب أن يسمع الصوت فيطلب من المضيفة سماعه ويربطها أو يوصلها بموصل للصوت في كل مقعد، ويضع السماعة في أذنه فيسمع ويرى ولا يؤثر الصوت على من يريد السكون والهدوء، وكان المعروض فصلا من فصول رواية إنجليزية قديمة.. وقد تحمس الركاب في أول الأمر للاستماع والمشاهدة، ولكن العرض لما طال ومضى عليه أكثر من ساعتين أخذ السأم والملل يدب إليهم، وأخذت رءوسهم تتمايل يمنة ويسرة من جراء النعاس أو النوم، وانتهى العرض بعد ما يقرب من ساعتين ونصف ساعة، ثم مرت فترة السكون والنعاس أو النوم، ولم يستيقظ الركاب إلا على صوت المضيفة وهى تطلب

منهم ربط الأحزمة، وذلك بعد ست ساعات من الطيران المستمر الهادئ، وحمدنا الله تعالى أن حفظنا من زعزعة الرياح الهوج التى قابلتنا ونحن نقترب من سماء نيويورك..

ورأينا مدينة سان فرانسسكو العظيمة الممتدة على شبه جز يرة تحيط بها مياه المحيط الهادى.. وشوارعها كأنها خطوط مستقيمة أفقية ورأسية، وسط أراض خضراء، ومن ناحية شرقها توجد أراض حمراء رملية.. وكان الأستاذ جميل ياسين فطانى يشرح لفضيلة الشيخ المناظر والمشاهد.

وأخيراً نزلت الطائرة إلى الأرض ولم نشعر بلمسة عجلاتها بالأرض وصلت إلى أرض المطار بكل هدوء، وجرت فوق المدرج بسرعة هائلة، ثم وقفت أمام خرطوم ممتد من بناية الشركة، وخرجنا من الطائرة بالطريقة التى دخلنا بها.. ولم نر أنفسنا إلا أما المكاتب.

ومادمنا داخل الولايات المتحدة فلا جوازات ولا إقامة.. بل ذهب بنا الأستاذ جميل فطانى كبقية الركاب إلى جناح من المكاتب، حيث وجدنا لوحة كبيرة فيها أسماء الفنادق الشهيرة في المدينة، وبجانب كل اسم تليفون خاص، وبمجرد ماترتفع السماعة تتصل بالفندق، فاتصل الأخ جميل فطانى بعدة فنادق، وكلها اعتذر أصحابها بعدم وجود أماكن خالية.. فقال أحد الموظفين: إن معظم فنادق المدينة المشهورة محجوزة الآن أومشغولة، وذلك لوجود مؤتمر إقليمى للولايات المتحدة فيها.. وأشار علينا الرجل نفسه أن نركب الأتوبيس التابع لشركة الخطوط، وندخل إلى داخل المدينة، ويقف الأتوبيس عند مكتب الشركة وسط المدينة.. وهناك تجدون بين الموظفين العاملين في المكتب من يرشدكم إلى فندق مناسب.. وعملا بمشورة هذا الرجل ركبنا الأتوبيس بأجرة زهيدة، ودخلنا مدينة سان فرانسسكو، وبدأنا نمر بضواحيها وبيوتها الصغيرة وسط حدائق، أو بجوار معامل ومصانع، وكلما اقتربنا من المدينة ارتفعت العمارات، وازدحمت على جانبى الشوارع، وأخذ ازدحام الناس يزداد، كما أن حركة السيارات كانت نشطة جداً.. وفي

بعض التقاطع توجد ثلاثة جسور فوق بعضها، فالشارع الآرضى يقطع الطريق من الشرق إلى الغرب، وفوقه جسر تسير حركة مروره من الشمال إلى الجنوب، وفوقه جسر الثالث تجرى فيه السيارات من الشرق إلى الغرب، ويستطيع من يكون على الجسر الثالث العلوى أن ينعطف بسهولة إلى الجسر الثانى، ومنه إلى الشارع الأرضى.. وكذلك من يكون في الشارع الأرضى أن يتجه بواسطة هذه الجسور إلى أيه جهة يريدها دون توقف أوتعطيل على حركة المرور..

العمارات الشاهقة:

والعمارات داخل المدينة تشبه ناطحات السحاب، ولكن ليست في الارتفاع الذى تمتاز به عمارات نيويورك، وكلما توغلنا داخل المدينة كثرت وقفات الأتوبيس نظراً لإشارات المرور وأخيراً وصلنا إلى مركز الشركة حيث نزلنا.

ولم نحتج إلى سؤال إنسان مّا بشأن الفنادق، بل بمجرد ما خرجنا من مكتب الشركة رأينا أمامنا فندقين ومن ورائهما فنادق أخرى.. ودخل الأستاذ الفطانى فندق (كاليفورنيا) وهو مكون من (١٧) طبقة، واتصل بمديرة الاستعلامات فقالت: انتظروا دقائق وارتاحوا في صالة الفندق، فعن قريب تفرغ عدة غرف.. وبناء عليه جلسنا في الصالة التى كانت كخلية النحل من كثرة الداخل والخارج... وأخيراً وبعد مايقرب من نصف ساعة، اتصلت مديرة الاستعلامات بالأستاذ جميل ياسين فطانى، وأعطته ثلاثة مفاتيح، وكان بودنا أن تهيئ لنا غرفة واحدة بها ثلاثة أسرة.. واعتذرت بوجود غرفة على رغبتنا، فاضطررنا للموافقة، وأخذ كل منا مفتاحا وكانت غرفة فضيلة الشيخ في الطابق الثانى عشر، وغرفة الأستاذ جميل فطانى في الطابق الحادى عشر، وغرفتى في الطابق العاشر، وكل غرفة فيها تليفون وتليفزيون وحمام خاص.. واتفقنا أن يكون الاتصال ــ إذا لزم

الأمرـــ تليفونياً، كما اتفقنا على ألا نأوى إلى الغرف إلا عند المنام.. وأن تكون الصالة العامة محل جلوسنا واجتماعنا.

دقائق للاستراحة :

ودخل كل منا غرفته للاستراحة، و بقينا دقائق، ثم اتصل بعضنا ببعض تليفونياً، ونزلنا إلى الصالة العامة، وقررنا أن نقوم بجولة في المدينة على الأقدام في أول الأمر، وإذا شعرنا بتعب استعنا بأتوبيس البلد أوبسيارة من سيارات الأجرة..

وكأننا كنا قريبين من الحى الصينى، فأوصلتنا أقدامنا إلى هذا الحى، ومن الغرائب أن مدينة سان فرانسسكو اجتمعت فيها جالية كبيرة من الصينيين، وأن أكبر مجموعة من الصينيين خارج بلادهم توجد في هذه المدينة، وكلهم من البوذيين، وكانت شوارع هذا الحى الذى يعرف هنا باسم مدينة الصينيين ومتاجره ومعارضه كلها تزحم بالصينيين والصينيات، وجميع اللافتات والكتابات على المتاجر والعمارات مكتوبة بالحروف الصينية، وتحتها حروف لاتينية، قطعنا مسافة طويلة في هذا الشارع.. ثم فكرنا في ركوب الأتوبيس لتكون الجولة إلى مسافات أبعد، فركبنا أتوبيسا وبقينا فيه حتى نهاية مطافه، ووصلنا في هذه الجولة إلى الأحياء القريبة من ساحل المحيط الهادى أومياه الخليج.

والمدينة مقامة على عدد من التلال، لذلك كان الأتوبيس يصعد شارعاً ثم ينحدر، والفرق كبير بين أعلى نقطة في الصعود وأعمق نقطة في الانحدار.. عندما وقف الأتوبيس نزلنا وركبنا آخر يتوجه إلى ناحية الفندق ومررنا بشوارع أخرى.. وأخيراً رجعنا إلى الفندق..

جولة مع الصينيين :

وبعد أن ارتحنا في صالة الفندق تناول الأستاذ جميل فطانى دليلا

سياحياً من الفندق، ليرى برنامجاً مناسباً نقضى فيه جزءاً من الليل قبل أن نأوى إلى الغرف للنوم والراحة.. ووجد في الدليل رحلة نظمها نفر من الصينيين لنزلاء الفندق ومن يشاء لمشاهدة الحياة الصينيية في هذه المدينة، وكان الإعلان مزوداً بصور جملية لهذه الرحلة، فاختار الأستاذ الفطانى هذه الرحلة، واتفق مع منظم الرحلة أن نكون معه.. فرحب بنا ترحيباً حاراً.

بدء الجولة :

وجاء مندوب من منظمى الجولة إلينا في الفندق.. وأخذنا في سيارة (تاكسى) إلى عمارة كبيرة بها مركزهم، وصعدنا بواسطة الدرج إلى الجناح الخاص بهم، حيث بدأ المشتركون في الجولة يفدون إليه رجالاً ونساء من الأمريكيين والأوربيين والأستراليين.

وقد شرح لنا الأستاذ الفطانى أن جلوسنا في هذا البهو الكبير هو بدء لبرنامج الجولة.. والبهو موثث على الطريقة الصينية، مزين بالتحف الصينية، والفوانيس الصينية، ومقاعده وفرشه وستائره وقناديله وموائده مرتبة على الطريقة الصينية، الموائد دائرية قائمة على محور تدور عليه، وجلس على كل مائدة عشرة من أفراد الجولة والمائدة التى جلسنا عليها أكمل عددها منظم الرحلة بعدد من السائحات الأوربيات والأستراليات الدردبيسات.

ثم وضعت على الموائد أقداح الحساء وأطباق الأطعمة وصحاف الرز والمكرونة والحلويات. وقد تذكرنا ما كنا نسمع به من زمن بعيد أن الصينيين البوذيين لا يتورعون من أكل بعض الحشرات والحيوانات التى نتقزز من رؤيتها، والمحرمة شرعاً ــ فاستولى علينا الضحك من جراء ذلك، وأخذنا نمعن النظر إلى كل ما يوضع على المائدة من أن يكون شيئاً منها، ولكن لحسن حظنا كل ما وضع كان مما نعرفه: رز ومكرونة وبسكوت و(المقلية) ممزوجة مع الربيان و(عيدان) الرز أى لأكل الرز والمكرونة للصينيين ــ وكانت المائدة تدور حول محورها والأطعمة تأتى إلى الجالسين مع دورتها ــ ثم

قدم الشاى الأخضر والأسود في أقداح – ثم جاء منظم الجولة وأشار على الجميع بالنزول إلى الشارع – وفي الشارع خاف منظموا الرحلة أن يختلط الحابل بالنابل، أويتفرق أعضاء الجولة ولذلك أحاطوا بنا من كل جهة وساروا بنا صفوفاً على الأقدام كمسيرة صغيرة سلمية، إلى ناحية ما تبادر إلى ذهننا أنهم سيأخذوننا إلى حلبة المصارعة، أوإلى حفلة من حفلاتهم الوطنية، أوإلى لعب من ألعابهم أوغريبة من غرائبهم أوعجيبة من عجائب الصين أوإلى شيء طريف لم يسبق لأحدنا أن رآه..

هكذا كان حدسنا وظننا.. ولكنهم ويا لخيبة الأمل أخذونا إلى مسافة قصيرة، ثم أوقفونا على (بقالة) صينية فيها أنواع من البقول واللحوم والأسماك الطرية والجافة، بينها الجِرّي (بكسر الجيم والراء المشددة) وهو مايسمى بثعبان الماء، وكان موضع استغراب جميع أعضاء الجولة، ولا سيما النساء، وقد حمدنا الله تعالى أن القوم لم يقدموا لنا في عشائهم هذا النوع من السمك، ولو رأيناه على المائدة الدائرية لتأكد لدينا أنهم يأكلون (الحنشان..)

ووقف شارح الرحلة على هذه البقالة، وبدأ يشرح لمن معه بالإنجليزية التى كأنها الصينية، وكان الأستاذ جميل فطانى يشرح لفضيلة الشيخ ما يقول.

والشيء الوحيد الذى لفت نظرنا وكان غريباً في منظره وشكله وحجمه هو الزنجبيل المعروف لدينا بحجمه وشكله، ولكن الذى رأيناه كان في حجم سمكة كبيرة أويقطينية وكأنه أخطبوط بحرى مستطيل جاف، ولولا الرائحة لما صدقنا أنه الزنجبيل.

ومن البقالة تقدم أعضاء الجولة إلى جهة أخرى، ولعلنا نقف على شيء يسر الناظرين ويبهج النفوس، ولكن منظم الرحلة أوقفنا على بيت صينى في هندسته وشكله ونوافذه وطلائه، ومدخله صغير وأمامه درج إلى الطبقة الثانية.

وقال الشارح عنه: إنه دار صينية وهى كمنتدى لجماعة من الصينيين، وأنهم لا يستعملون المصاعد في دورهم.

ومن هذه الدار ساقنا سوء الحظ إلي شارع جانبى ضيق لا تخلو أرضه من مياه وأوراق متناثرة وروائح مختلفة كريهة. وقال رائد الرحلة: إننا نزور الآن مصنعاً من مصانع البسكويت، فانشرحت نفوسنا قليلا على أمل أننا سندخل الآن مصنعا عظيماً من مصانع البسكويت، ونشاهد كيف تصنع أنواع من (البسكويتات).. وإذا بنا نقف على (دهليز) بيت صغير فيه خمسة أوستة من الصينيين، أحدهم يعجن عجينة قد لا يزيد وزنها على عشرة كيلوات فوق منضدة، ثم وضعها فى مكبس مستطيل وضغط عليها بمضغط فخرجت العجينة على شكل أشرطة فتسلمها عامل آخر ووضعها في قوالب متنوعة الأشكال والأحجام، ثم يقطعها ويضعها في أطباق صغيرة و يدخلها في (فرن) صغير، ثم تلف في أوراق وتوضع في علب من الكرتون.

هذا هو معمل البسكويت.. لقد صدق فيهم المثل العربى: «لقد استسمنت ذا ورم..»

ومن هذا المصنع دخلنا بيتاً لم نعرف أنه معبدهم إلا بعد أن أرينا تماثيل (بوذا) على أشكال مختلفة، وكان مرافق الرحلة يشرح لأعضاء الجولة كل شيء فيه، وكان الإفرنج من الرجال والنساء يصغون بكل اهتمام، وكنا نحمد الله أن عافانا وشرفنا بعبادته والتوجه إليه وحده.

وخرجنا إلى الشارع قبل خروج أعضاء الجولة.. وإلى هنا انتهت الجولة في الحى الصينى، ثم جاء بنا إلى عمارة شامخة من ناطحات السحاب تعرف باسم (نوب هل) (Nob Hill) وصعدنا إلى آخر طبقة بواسطة المصعد، بها مشرب ومطعم، فانتشر أعضاء الرحلة حول المشرب لمشاهدة أنوار المدينة وشوارعها من علٍ، ورأينا الشارع الرئيسى في سان فرانسسكو وهو

الشارع التاسع عشر، وكان عبارة عن شعلة نور لكثرة مصابيحه وأنوار السيارات التى تجري فيه.

وشاهدنا جسر الخليج الممتد فوق مياه الخليج وأنوارها الوهاجة تبدو كخط من نوروهاج، ويزداد لمعانها بانعكاس الأضواء على صفحة مياة الخليج

وبعد ما يقرب من عشر دقائق أعلن منظم الجولة بانتهائها ونزلنا وعدنا في السيارات إلى الفندق حيث جلسنا في صالته نتحدث ونعلق على برنامج الرحلة تعليقات لا تخلو من انتقادات لعقلية هؤلاء القوم والسخرية به، وكيف يعيشون بهذه السخافات والخرافات في بلاد تعد نفسها من أرقى بلاد العالم مدينة وحضارة.. ولله في خلقه شئون.

ثم قمنا ونحن نردد «سماعك بالمعيدي خير من أن تراه..» وصعد كل منا إلى غرفته.. وحمدنا الله تعالى على أن مناظر الجولة لم تضايقنا في المنام بأحلامها المزعجة. إلا أن فضيلة الشيخ محمد اعتراه في آخر الليل نوع من الأرق، ولعل ذلك أثر من آثار الجولة الصينية (المهببة)..

إلى مدينة (استوكتن) (Stockton)

رغب فضيلة الشيخ محمد في الاتصال بابنه عبد العزيز الذي يدرس في أحد أقسام كلية المحيط الهادي بهذه المدينة التابعة لولاية كاليفورنيا، فقرر من الليل أن نقوم من الصباح الباكر برحلة برية إلى هذه المدينة.

وبناء على ذلك اجتمعنا يوم السبت ١٣٨٨/٥/٢٣هـ الموافق ١٩٦٨/٨/١٧م مبكرين فى صالة الفندق حيث رسمنا للرحلة خطتها، وأن تكون الرحلة بواسطة أوتوبيسات (جري هوند) (Grey Hound) هي شركة كبيرة للمواصلات الداخلية في الولايات المتحدة، وأوتوبيساتها فخمة جداً، ومواعيد رحلاتها محددة بالدقائق.

ثم تناولنا الفطور في أقرب مطعم، وأسرعنا إلى موقف شركة (جري هوند) حيث قطع فضيلة الشيخ ثلاث تذاكر، وكان ذلك قبل قيام الأتوبيس بعدة دقائق، وتحركت الحافلة من موقفها في الساعة السابعة بتوقيت سان فرانسسكو.. بعد أن امتلأت جميع مقاعدها ــ وهى أربعون مقعداً ــ من الراكبين والراكبات..

وجلس الأستاذ جميل فطانى بجوار فضيلة الشيخ يذكر له أسماء المواقع التى نمر بها.. وصادف جلوسى بجوار طالبة أمريكية، وعندما عرفت أننا من السعودية قالت: إن قريباً لها يعمل في السعودية بشركة أرامكو.. وذكرت لى بعض معلومات دلت على أنها على إلمام كبير عن البلاد السعودية، وكانت خير مرشدة بالنسبة إلىّ في التعريف بالأماكن التى مررنا بها..

سار الأتوبيس في شوارع سان فرانسسكو نحو الجنوب الشرقي، حتى وصلنا مدخل جسر الخليج (باي برج) (Bay Bridge) الموصل بين سان فرانسسكو وأوكلاند (Oakland) من فوق مياه الخليج وهو عبارة عن جسرين متصلين بأنفاق، ويعتبر هذا الجسر من أطول جسور العالم،فطوله ثمانية أميال ونصف ميل، وتم تشييده سنة ١٩٣٧م (١٣٥٦ هـ) وبلغت تكاليفه ٩٦ مليونا من الدولارات.. ويضاء ليلا من أوله إلى آخره بمصابيح صفراء لمقاومة كثافة الضباب. ومن نهاية الجسر دخلنا أراضى مدينة أوكلاند.. وهى إحدي المدن السبع الصناعية، ومناظرها لا تقل عن مناظر سان فرانسسكو الساحلية.

وبعد أن خرجنا من مدينة أوكلاند تغيريت مناظر الأرض، وتحولت من أراض خضراء عامرة بالقصور والحدائق (الفلات) الجميلة إلى تلال ومرتفعات قد جفت أعشابها، وبدأت كأراضى صحارينا أيام الصيف وفي غير موسم الأمطار.

ومررنا ببلدة وسط تلك الأراضى والمرتفعات قالت الطالبة الأمريكية: إنها بلدة (ليفرمور) ثم ببلدة أخري صغيرة يمر الأتوبيس من وسطها واسمها

(تراسى) ووقف الأتوبيس بهذه البلدة، حيث نزل بعض الركاب وكانت الطالبة الأمريكية من بينهم، وحلت محلها في المقعد عجوز ارستقراطية، لا تتكلم إلا بحساب وشيء كثير من العظمة الكاذبة.

وقبل أن نقترب من مرتفعات نيفادا (Nevada) دخلنا أراضى زراعية تتخللها أنهار ونهيرات حتى وصلنا..

مدينة استوكتن: (STOCKTON)

ونزلنا في موقف الشركة، والمدينة هادئة لطيفة من حيث الجو والمناظر الطبيعية واتساع شوراعها المشجرة.. وتقع شمال شرقى سان فرانسسكو، وعلى مسافة ساعتين تقريبا بالأتوبيس، وتعتبر ميناء هاماً على نهر سانت جوكن، وتبعد عن ساحل المحيط الهادي سبعين ميلا، وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها روبرت استوكتن أحد الملاحين التابعين لملاحة الولايات المتحدة، وقد بذلت محاولات جبارة لتوسيع مجري نهر (سانت جوكن) وتعميقه حتى صار صالحاً لدخول عابرات المحيط من المراكب الضخمة ووصولها إلى ميناء هذه المدينة.

وركبنا من موقف شركة (جري هوند) (تاكسيا) للوصول إلى الحى الذي يقطنه ابن فضيلة الشيخ محمد، وفي أثناء وقوفنا عند مرأب الشركة لاحظنا قلة سيارات الأجرة في المدينة، أو أن الحى الذي نزلنا فيه بعيد عن مركز النشاط التجاري وحركة المواصلات.

التليفون اللاسلكى في التاكسى:

والذي دلنا على قلة سيارات الأجرة في المدينة أو الحى الذي كنا فيه هو ما رأيناه من السائق الذي ركبنا معه أنه اتصل وهو يجري بنا في شارع ممتد إلى مسافة طويلة، اتصل بالتليفون اللاسلكى عدة مرات بمركزه، أي

مركز سيارات الأجرة، وتلقى منه عدة طلبات للوصول إليها .. وعندما وصلنا إلى النقطة التى نريدها طلب منه الأستاذ جميل فطانى أن يقف ويبقى معنا حتى يردنا إلى المكان الذي ركبنا منه .. فقال له : لدي عدة طلبات تلقيتها من المركز العام للوصول إليها ، وإذا أنجزت تلك الطلبات رجعت إليكم .. ثم ذهب .

البحث عن مسكن الطالب عبد العزيز:

وسرنا على الأقدام متتبعين رقم الدار الذي كان مع فضيلة الشيخ كعوان لمقر ابنه .. حتى وصلنا إلى بيت رجل مسئول عن ذلك الحى (أي كعمدة) وطرق الأستاذ جميل فطانى بابه ، فخرج له شاب أمريكى ،وسأله الأستاذ فطانى عن الطالب السعودي عبد العزيز الشيخ ، فقال الشاب الأمريكى : إنه انتقل من هنا قبل يوم أو يومين ، ويمكنكم أخذ معلومات وافية عنه وعن ناحية اتجاهه من جاره وهو شاب عربى أيضا ، وأرشدنا إلى محله فذهبنا إليه وهو شاب عراقى رحب بنا وأدخلناإلى غرفته .. ثم سأله فضيلة الشيخ عن ابنه فقال الشاب العراقى : إنه كان يسكن بجواري هنا ــ وأشار إلى غرفته المغلقة وأنه غادر منذ يومين إلى لوس أنجلوس ولم يترك لى عنوانه . فشكره فضيلة الشيخ على هذه المعلومات .. وسأله عن عمله هنا .. فقال الشاب العراقى : إنه جاء هنا لاستكمال دراسته العالية ونيل الدكتوراه على حساب نفسه ، وأنه يشتغل بعد الانتهاء من الجامعة والمحاضرات في أحد المصانع التى تعمل في تعبئة الأعلاف للدواب ، ويشتغل فيها في تدوير بعض المطاحن إلى جزء كبير من الليل ، ويتقاضى مقابل ذلك عشرين دولاراً يومياً .. وهذا هو مصدر رزقه في هذه المدينة ..

وقد أكبرنا في هذا الشاب طموحه وروحه العصامية ..وعرض علينا أن نقيل عنده ونرتاح فشكره الشيخ ، وخرجنا من عنده إلى الشارع ووقفنا برهة في انتظار سيارة من سيارات الأجرة ، فلم تمر أية سيارة ثم ذهب هذا الشاب العراقي إلى تليفون وطلب لنا سيارة رجعنا فيها إلى موقف شركة

(جري هوند) ثم ركبنا الأتوبيس المتوجه إلى سان فرانسسكو.. وعدنا إليها بنفس الطريق الذي سارت منه الحافلة في الذهاب..

من فكرة إلي أخري:

بعد وصولنا إلى سان فرانسسكو فكرنا في القيام بجولة بأحد الأتوبيسات الخاصة لهذا الغرض في أنحاء المدينة وعلى معالمها.. ثم عدلنا عن هذه الفكرة إلى فكرة أخري وهى زيارة جسر (البوابة الذهبية) (جولدن جيت برج) (Golden Gate Bridge) فهو من أشهر وأكبر معالم هذه المدينة، وأننا إذا تجولنا في أنحاء المدينة ولم نر هذا الجسر التاريخى العظيم فكأننا لم نر شيئاً في المدينة.. وبناء علي الفكرة الأخيرة قررنا الذهاب إلي مركز الشركة (جرى هوند) في أحد الأتوبيسات التابعة لها.

وتناولنا الغداء علي عجل بأحد المطاعم، وعدنا إلي موقف الشركة في سيارة أجرة، حيث ركبنا منه أتوبيساً متوجهاً إلي هذا الجسر، وما وراءه من الأراضي.. وسار الأتوبيس نحو الشمال ماراً من حدائق البوابة الذهبية وشوارعها الواسعة..

وعند مدخل الجسر سألنا السائق: هل نريد النزول أو نجتاز الجسر؟ فقال له الأستاذ الفطاني: بل نجتاز الجسر.. لأن روعة الجسر وفخامته لا يتجلي إلا لمن يسير فوقه راكباً أوماشياً.. فالجسر معلق بأمراس من الصلب في أعمدة حديدية ضخمة منحنية قائمة من قاع البحر، وارتفاع كل عمود يتساوى مع أية ناطحة سحاب مكونة من ٦٢ طابقاً، واستخدم في هذا الجسر أكثر من ١٠٠,٠٠٠ طن من الصلب، واتساعه أى عرضه يقدر بستين قدماً.

..ومن السهل أن تسير عليه ست سيارات بجوار بعضها، وهذا غير الأرصفة على الجانبين الخاصة بمرور المشاة والدراجات، وتعتبر المسافة بين عمود وآخر

أطول مسافة في أى جسر آخر من جسور العالم، وتقدر بـ ٤٢٠٠ قدم، وطول الجسر ميلان.. وتم بناؤه سنة ١٩٣٧م وبلغت تكاليف بنائه ٣٥,٥٠٠,٠٠٠ دولار.

النزول من الأتوبيس :

وعند نهاية الجسر نزلنا من الأتوبيس لنسير على الأقدام، وقطعنا على الأقدام مسافة لا بأس بها أملا في أن نجد استراحة أومقهى نجلس فيه انتظارا لعودة الأتوبيس.. وكانت السيارات الخاصة والتكاسى القادمة من سان فرانسسكو والذاهبة إليها تمر بنا وهى منطلقة كالصواريخ لا كالسهام... ولم نر أحداً يسير على قدميه في تلك المنطقة التى كانت عبارة عن مرتفعات ومنخفضات، بينها منطقة عسكرية كتب عليها ممنوع التصوير..

وعندما شعرنا بنوع من التعب من جراء السير على الأقدام أدركنا أننا لم نعمل بقول الشاعر العربى الذى يقول :

واحزم الناس من لومات من ظمأ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

فقد وردنا ولم نعرف كيف الصدور من هذه الأرض.. وقال فضيلة الشيخ : كان الواجب أن نأتى إلى هذا المكان في سيارة أجرة تبقى معنا ونعود فيها، أما الآن لوتأخر الأتوبيس أولم يعد، وقعنا في مشاكل لا قبل لنا بها، فالأرض خلوية لم نر فيها مركزا للتليفون ولا للبوليس لنستعين بأحدهما في طلب سيارة، وكيف يكون موقفنا إذا أقبل الليل ونحن في هذه الأراضى ؟

ـ ١٥ ـ

نحو جسر البوابة الذهبية بمدينة سان فرانسسكو:

وبعد وقفة ليست بقصيرة، سرنا في شبه هرولة نحو مدخل الجسر، جسر البوابة الذهبية قلقين متضجرين بالأفكار السوداء التى كانت تتراقص أمام أعيننا، وتصور لنا المشاكل التى قد نتعرض لها ـ لا سمح الله ـ لولم نجد وسيلة للانتقال إلى سان فرانسسكو ومسافة الجسر كما قلت ثمانية أميال، وبيننا وبين مبدأ الجسر كذلك ما يقرب من نصف ميل..

وفي أثناء ركضنا نحو الجسر وقلقنا النفسى، تداركنا الله بلطفه وكرمه وإحسانه، وسخر لنا سيارة من سيارات الأجرة تجرى في اتجاه مضاد لسيرنا، فأومأ لها الأستاذ الفطانى بيده، فوقفت وجاءت إلينا فركبناها شاكرين الله تعالى على أن أنقذنا من تلك الورطة المزعجة..

وعاد بنا السائق في سرعة متناهية كعادة السائقين إلى الفندق.

إلى لوس أنجلوس : (LOS ANGELES)

كنا حجزنا للسفر إلى مدينة لوس انجلوس في طائرات شركة (تى دبليوأى) (T.W.A) من أمس، وكان ميعاد السفر اليوم بعد غروب الشمس بثلاث ساعات تقريباً، وأراد فضيلة الشيخ محمد أن يتأكد من الموعد جيداً ـ بعد وصولنا إلى الفندق ـ فخرج مع الأستاذ جميل ياسين فطانى إلى المطار (مطار سان فرانسسكو) وبقيت وحدى في صالة الفندق مع عشرات النزلاء، ولم يكن لدى أحد من هؤلاء الجالسين عن يمينى وشمالى استعداد لتزجية الوقت في الكلام والمحادثة التى لا فائدة فيها، وكل

واحد منهم منهمك في أحاديث **الألوف والملايين والأسهم** والأرصدة والشركات، فتشاغلت أنا كذلك في كتابة البطاقات المصورة لإرسالها إلى الطائف، وكأنني مثلهم مشغول في أعمال هامة عملاً بقول الشاعر:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتململ

ولم يكن هناك والحمد لله ــ شامت، ولا للدهر ريب.. وبقيت منهمكاً في الكتابة حتى رجع الإخوان من المطار، وأخبرنى فضيلة الشيخ أن الأخ فطانى وجد في لوحة الرحلات الجوية ومواعيدها لدى شركة الخطوط الجوية الغربية (ويسترن ايرلاين) (Weslern Air Line) رحلة إلى مدينة لوس أنجلوس قبل ميعاد حجزنا في خطوط (تى دبليوأى) بساعة.. فاتصل الأخ بمندوب شركة (تى دبليوأى) ونقل الحجز منها إلى شركة الخطوط الجوية الغربية لنكسب ساعة ونتمكن من السفر إلى لوس أنجلوس مبكرين..

وكان ميعاد السفر قد اقترب، فأسرعنا إلى مكتب شركة الخطوط الجوية الغربية، ومنه في أتوبيس الشركة إلى المطار.

في الشوارع :

وفي مرورنا إلى المطار شاهدنا حركة المرور العظيمة التى تعم شوارع سان فرانسسكو والكتل البشرية في ألوان مختلفة، تتماوج من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، كلٌّ سابح في فلكه..

وبعد الوصول إلى المطار وإنهاء عملية قطع التذاكر، جلسنا في غرفة المسافرين وكانت مزدحمة بهم، وبعد دقائق أعلن بدخول الطائرة.. وكانت طائرة صغيرة نفاثة.. وامتلأت مقاعدها بالركاب سريعاً.

وتحركت وارتفعت عن الأرض في ميعاد قيامها بالضبط أى الساعة السابعة والنصف.. بعد غروب الشمس بساعة.. وكان دوى محركاتها أكثر من الطائرات التى ركبناها..

وارتفعنا في فضاء سان فرانسسكو، وبدت المدينة العظيمة وشوارعها وسواحلها على المحيط الهادى كخريطة بارزة ملونة ومضاءة فوق لوحة، ورأينا المدينة منقسمة إلى قسمين: المدينة العليا والمدينة السفلى، والسفلى تمتاز بعمارات من طراز ناطحات السحاب، والعليا مساحتها أوسع أراضيها مخضرة لكثرة حدائقها..

وشاهدنا جسر البوابه الذهبية وجسر الخليج بوضوح تام، كما رأينا شوارعها المتعرجة التى لا توجد لها مثيل في مدن العالم..

وقبل أن نغادر سماء هذه المدينة الأمريكية الكبرى، يستحسن أن نذكر بعض ماتشتهر به أوتنفرد به بين مدن العالم..

من ذلك: مواقف للسيارات تحت سطح الأرض، وتعد من أكبر المواقف للسيارات تحت سطح الأرض في العالم، أما سطح هذه المواقف الواسعة فهو حدائق عامة ينتشر فيها أفراد الشعب صبحاً ومساء، وليلا ونهاراً.

ومشهورة كذلك بنوع من المواصلات، وهى الأتوبيسات الكهربائية الخاصة لصعود الشوارع التى تشبه المنحدرات الجبلية والنزول منها.. ولتغيير اتجاهات هذه الأتوبيسات عند ملتقى الطرق والميادين، وضعت أسطوانات حديدية واسعة مع الأرض تقف فوقها الأتوبيسات، ثم تدور الأسطوانة وتغير اتجاهها إلى حيث تشاء، والاتصال الكهربائي يتم من تحت الأتوبيسات، وتسير بسرعة (١٢) ميلا في الساعة.

في الجو إلى لوس انجلوس:

لم يكن في الدرجة الأولى من الطائرة معنا غير ثلاثة أشخاص، أحدهم أمريكى، والآخر زنجى، والثالث صينى أويابانى..

وبمجرد ما ارتفعت الطائرة في الجو وأخذت طريقها نحو الجنوب بدأت

مضيفاتها في تقديم طعام العشاء والشاى للركاب متتابعاً لضيق الوقت وقصر المسافة، ولم ننته من تناول العشاء إلا وشاهدنا أنوار (لوس أنجلوس) وهي كبحر من النور الوهاج.. وظلت الطائرة تطير فوق هذه الأنوار الأرضية ما يقرب من عشر دقائق وأكثر، ولم نر على الأرض مكاناً خالياً من الأنوار، واستغربنا من نزولها وأين يكون ياترى؟... ثم اقتربت من فضاء المدينة، وظهرت عماراتها الطويلة كأعمدة من نور أوأبراج من الضوء..

وأخيراً رأينا بين أنوار المدينة مصابيح المطار الملونة المرشدة إلى المدرجات، ونزل الطيار بلباقة ومهارة فائقتين إلى الأرض وسارت الطائرة كالمعتاد على المدرج بسرعة زائدة.. ثم وقفت.

ونظام المطار وطريقة الخروج من الطائرة كانت كما شاهدناه في مطار سان فرانسسكو بحيث لا يشعر ركاب الدرجة الأولى بخروجهم من الطائرة إلى صالة المطار إلا بالمشى وتغير المناظر.. ومكاتب المطار وممراته ومظهره العام أكثر أناقة وفخامة مما شاهدناه في مطار سان فرانسسكو.

وانتقلنا من الطائرة إلى صالة واسعة نورها أشد من نور النهار، ونزلنا منها بطريق الدرج السحاب (الأتوماتيكى) إلى صالة أخرى حيث وجدنا أريكة (كنبة) مستطيلة جلس عليها الركاب من الناحيتين، والمتكأ في الوسط ــ أى مثل كنبتين متلاصقتين من ناحية الظهر ــ وبعد أن امتلأت المقاعد من الجانبين بالركاب.. تحركت الأريكة على عجلات مطاطية لا ترى، وليس لها صوت، تحركت ببطء وسكون بقوة الكهرباء، وأوصلتنا إلى مكاتب المطار حيث يتسلم الركاب أمتعتهم.

خرجنا من المطار إلي الأتوبيس التابع للخطوط الجوية الغربية، وتوجهنا إلي مدينة (لوس أنجلوس) من وسط شوارع واسعة وميادين فسيحة، وأنوار لا عد لها ولا حصر علي ألوان مختلفة وأشكال متنوعة وأوضاع غريبة.. وكل

شارع نمر به نجده في الازدحام أكثر من غيره من حيث المشاة ووسائل المواصلات المختلفة..

وأخيراً وقف الأتوبيس في الشارع الأكبر (جراند افينو) (Grand Avenue) عند مكاتب شركة الخطوط الجوية الغربية (ويسترن ايرلاين).

وبحسن المصادفة كان بجوار المكاتب فندق ضخم وكأنه ثلاث عمارات متداخلة في بعضها.. كتب عليها بحروف النيون البراقة (ماى فلاور Myflawer) أى زهرتي فاتصل الأستاذ جميل فطاني بمديرة الحركة فيه، واتفق معها علي المبيت وهيأت لنا ثلاث غرف في الطبقة العاشرة من الفندق، وقدمت لكل واحد مفتاح غرفته..

استراحة لدقائق:

وارتاح كل واحد منا لدقائق معدودات في غرفته، ثم اجتمعنا ثانية في بهو الفندق العام، بالرغم من أننا جميعاً كنا في حاجة ماسة إلي الراحة والنوم، ولكنا والحمد لله تغلبنا علي التعب والنوم بقوة العزيمة انتهازاً للفرص، وقررنا الخروج إلي شوارع لوس أنجلوس، لأخذ فكرة عامة عن مناظرها الليلية ومشاهدة صخبها وضجيجها، فقد ذكر المطلعون عن هذه المدينة أنها من أوسع مدن العالم مساحة، فساحتها تقدر بـ(٤٥٢) ميلاً مربعاً، ويبلغ مجموع طول شوارعها أكثر من (٥٤٠٠) ميل.

وقالوا عن تاريخها: إنها اكتشفت من قبل الإسبانيين سنة ١٥٤٢م الموافق لسنة ٩٤٩هجرية وكانت من قبل مسكناً لثلاثمائة من الهنود الحمر.. واحتلها الأمريكيون سنة ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) ولا زال الطابع الإسباني أو الأندلسي باقياً في كثير من عماراتها التاريخية كوجود نافورات في وسط أفنية الدار، ووجود حدائق الأزهار حولها أو داخلها..

وكثير من شوارعها الواسعة مزدانة جوانبها ومن وسطها بأشجار النخيل ضخمة الجذوع وقصيرة الارتفاع ...

مركزها الصناعي والتجارى:

تزدحم لوس أنجلوس بالمصانع التي تقدر بالألوف، منها مصانع للطائرات والسفن البحرية والعجلات، أى إطارات السيارات، ومعامل لتكرير البترول، وأراضيها الجنوبية مزدحمة بآبار الزيت.. وثم مصانع كبيرة لحفظ السردين وسمك التونا، ومصانع للنسيج وإنتاج الملابس النسائية والأدوات المنزلية من جميع أنواعها..

وميناؤها يعد أكبر ميناء عمله البشر، وتصدر منها مايقرب من عشرين مليوناً من الأطنان من مختلف المنتوجات إلي العالم.

وتعتبر أيضاً من مراكز العالم الزراعية الهامة، ويكثر بها النخيل والبرتقال وأنواع من الحمضيات، وحدائقها تستمر طوال السنة مزدهرة بأنواع مختلفة من الأزهار والورود والرياحين..

وبها جالية كبيرة من المكسيكيين، وعدد لا بأس به من الزنوج واليابانيين والصينيين، والفلبينيين ومعظم الفلبينيين عمال في المصانع.

كما هي مشهورة بجامعاتها ومدارسها وجوها المعتدل الذى يجذب السياح من جميع الجهات.. ومعروفة كذلك بنواديها الليلية ومطاعمها الغريبة الأشكال.

ومن أشهر معالمها: المركز البحرى في الجنوب، والمدينة الصينية، وحدائق المعارض، وهي تعتبر مركزاً لعدة مؤسسات علمية..

وأعلي عمارة فيها عمارة بهو المدينة (سيتي هول) (City Hall)

وارتفاعها (٤٦٤) قدماً عن سطح الأرض وتقع مدينة الأفلام السينمائية (هوليوود) في شمالها، والمواصلات متصلة بينها علي جميع أنواعها..

لقد كانت جولتنا برغم طولها لم تتجاوز المنطقة التي فيها فندقنا.. وتذكرت مدينة هوليوود ونحن في الجولة، فقلت لفضيلة الشيخ: من المستحسن أن تمتد جولتنا إلي مدينة هوليوود مدينة الأنوار والنجوم.. ولا سيما ونحن بجوارها، وليس بيننا وبينها إلا رمية حجر.. فلم يرفضيلته بأساً في امتداد الجولة إلي هذه المدينة من باب العلم بالشيء..

ـ ١٦ ـ

إلي هوليود:

وركبنا أتوبيساً متوجهاً إلي (هوليود)، واجتزنا في الطريق أراضي زراعية واسعة بعضها تشبه الغابات من كثرة أشجارها، وعندما اقتربنا من المدينة رأينا أنوارها ككتل ضوئية متوهجة، وأنوارها تفوق أنوار لوس أنجلوس.. كما أن ازدحام شوارعها يزيد علي ازدحام لوس أنجلوس. وبحكم التعب ومغالبة النوم لأعيننا اكتفينا بجولة قصيرة في شارعها الرئيسي لمشاهدة ما يقع تحت العين من المناظر..

وقد زار هذه المدينة أحد الصحفيين العرب سنة ١٣٦٤هـ فوصفها بقوله:

«إنها المدينة التي لا تغرب عنها النجوم.. مدينة النجوم الساطعة والكواكب المتلألئة اللامعة.. والأقمار المنيرة والشموس المتوهجة المتأججة، مدينة الأحلام الذهبية، والرفاهية، وهي أيضاً مدينة الشقاء والتعاسة، مدينة الفقر والبؤس والغيرة والحسد والحقد، مدينة الآمال الخائبة والأحلام المحطمة، المدينة التي تجمع بين الأضداد».

الاتصال التليفوني:

غرائب التليفون ــ وفي مرورنا بالشارع الرئيسي وقفنا عند مركز من مراكز التليفونات العامة لرغبة فضيلة الشيخ للاتصال بابنه خالد، ودخل الأستاذ الفطاني (كشك التليفون) الزجاجي، ووضع المبلغ المعلوم في ثقب الدراهم، ثم أدار القرص علي الرقم المطلوب فحضر ابن فضيلة الشيخ وتكلم معه، وطالت المحادثة فانقطع الاتصال، ووضع مبلغاً آخر ثم بدأ المكالمة ثانية فسمع صوت المراقبة علي المحادثة وهي تشكره وتقول: بقي لكم من

المبلغ كذا من السنتات، وبمجرد ما وضعت السماعة في محلها سقط من ثقب آخر الزائد من المبلغ أي أن التليفون الاوتوماتيكي أخذ ما يستحقه مقابل المكالمة ورد الزائد، وكانت ظاهرة غريبة بالنسبة إلينا في جولتنا بمدينة هوليود..

وفي أثناء اشتغال فضيلة الشيخ بالمكالمة التليفونية بقيت واقفاً علي أحد الأرصفة أشاهد بعض ما وصفه الصحفي العربي بهذه المدينة من وجود الأضداد ومن المتأججة وصور البؤس والحرمان.

ثم عدنا إلى موقف الأتوبيسات ووقفنا عدة دقائق في الانتظار حالما وصل الأتوبيس ركبنا ورجعنا إلى فندقنا (بلوس أنجلوس) حيث استسلم كل منا للنوم في غرفته، ولم يدر عن نفسه هل هو في بلده بالطائف أوفي الدنيا الجديدة علي ساحل المحيط الهادى بينه وبين أهله ألوف الأميال والكيلو مترات.

منظر الصباح في لوس أنجلوس:

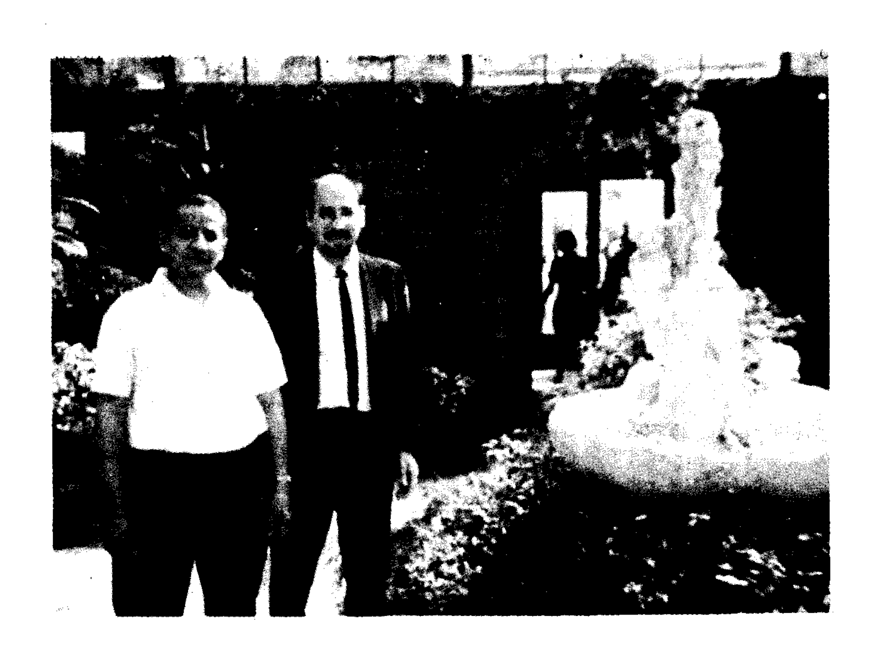
نظرت من النافذة من الطابق العاشر إلى الشارع الممتد أمام الفندق إلى حيث تختلط النظرات برطوبة الأرض وذرات الأبخرة.. والناس كأنهم دمى صغيرة متحركة، والسيارات كأنها لعب الأطفال، وهي تقطع الشارع في سرعة زائدة، وكلها من النوع الفخم الضخم ولمعان هياكلها يعكس الضوء كالمرايا.. والعمارات القائمة على جوانب الشارع كلها من طراز ناطحات السحاب يسودها الهدوء والسكون والظلام لكون أهلها ما زالوا في سباتهم العميق، كانت السماء تنتشر فيها القزع والشمس من ورائها تبدو لحظة وتحتجب أخرى، وإذا بدت أرسلت أشعتها الصفراء على رءوس ناطحات السحاب.

أما الشارع وأرض الشارع فلم تزل بعيدة عن ضوء النهار وما برحت في نور الأسفار.. وقد تذكرت وأنا أستقبل نسمات الرياح الباردة القادمة من

الشرق مدينة الطائف التي ابتعدت عنا بعد المشرق من المغرب. نعم ذكرتني بنفحات النسيم التي كنت أستقبلها وأنا في الهدا أوالطائف.. وذكرتني بمن فيها من الأهل والأولاد والإخوان.. وبقيت أستمتع بها في ذكريات قريبة وبعيدة.

الاجتماع في صالة الفندق:

واتصلنا بالبعض تليفونياً ثم نزلنا واجتمعنا في الصالة وتناولنا الشاى والقهوة مع بعض ورسمنا الخطة لزيارة مدينة (ديزني لند) (Disney Land) أو مدينة العجائب والغرائب أوالتي يسميها عشاقها ــ المملكة السحرية التي تحير الألباب.



إلي ديزني لند:

غادرنا الفندق الساعة العاشرة في أتوبيس فخم مزدحم بالركاب المتوجهين إلي (ديزني لند) ــ أو مملكة ديزني السحرية ــ والطريق واسع جداً

يسع ثلاث سيارات أو ثلاثة أوتوبيسات ذاهبة، ومثلها قادمة، وعند تقاطع الطريق يتحول الطريق إلي جسور متراكبة بعضها فوق بعض في طبقتين أو ثلاث.

وخضرة الأرض والأشجار الباسقة لاحد لها ولا نهاية.. ومررنا بحدائق كأنها تابعة للمدينة الصينية، لأن تماثيل بوذا كانت منتشرة في كل ميدان وعلي جوانب الطريق، كما توجد أوان خزفية عليها صور بوذا معروضة للبيع.

وكان عشاق المناظر الطبيعية منتشرين بسياراتهم وخيامهم وأسرهم وأطفالهم تحت الأشجار، وفوق الحشائش وأولادهم يلعبون ويمرحون ويتأرجحون.

وكلما اقتربنا من (ديزني لند) زادت وقفات السيارات المتقاطرة في ثلاثة صفوف أو أربعة والتي تقدر بالألوف.. وفي نقطة من الطريق وقفنا ما يقرب من عشر دقائق لوقوف حركة المواصلات من جراء عطل طرأ علي سيارة من سيارات النقل اضطر صاحبها بمساعدة من وراءه من أهل السيارات إلى دفعها جانباً تاركاً الخط للسيارات الواقفة، فاندفعت اندفاع السيل الحائر..

وأخيراً وصلنا ديزني لند:

وعلي يسار مدخلها فندق كبير به برج شامخ ليتمكن نزلاء الفندق من مشاهدة حديقة ديزني لند من أماكنهم.. وبجانب الفندق ميدان واسع جداً ازدحم بألاف السيارات التي كان أصحابها في الحديقة، وقطع الأستاذ جميل فطاني التذاكر للدخول، والتي تخول لصاحبها زيارة أى عجيبة من العجائب داخل الحديقة.. والتذاكر علي أنواع: بعضها خاصة بالتجوال في الحديقة وبعضها خاصة بدخول ناحية دون أخرى وبعضها للأطفال..

والأرض من عند مدخل الحديقة أو (ديزني لند) إلي المسافات الداخلية مكسوة بالأعشاب، وأطرافها وأجزاء من الأرض بين الممرات مزدانة بأزاهير

ملونة في تنسيق بديع، وفي بعض الأماكن كتب عبارات الترحيب بأزهار ملونة.. ومعظم السياجات الحديدية مغطاة بالنباتات المتسلقة ذات الورود والأزهار علي ألوان مختلفة وأشكال متنوعة.

(ديزني لند) (Disney Land) عبارة عن حديقة واسعة جداً علي شكل مثلث يحيط بها خط حديدى خاص يسير بهدوء، ويدور حول الحديقة مع أضلاع المثلث، وكثير من الزوار يبدءون به ليتمكنوا من مشاهدة معظم أجزاء الحديقة.. ويمر هذا القطار بجميع ما تمر به القطارات في العالم من الأنفاق والجسور فوق البحيرات والأنهار والطرق المعترضة، والمحطات (والمقصات) أوالتحويلات التي يتحول القطار عندها من سكة إلي أخرى.

قطار مرتفع: وهو عبارة عن عربات زجاجية علي شكل طائرة أوصاروخ تسير علي قضبان ممتدة علي أعمدة حديدية يبلغ ارتفاعها في بعض الأماكن عشرة أمتار عن سطح الأرض وتنخفض في بعض المحلات وتمر من وسط الحديقة ببطء.

ولما كانت مسافات الحديقة من محل إلي آخر بعيدة جداً أحببنا أن نركب هذا القطار لنتمكن من المرور بمعظم ما في الحديقة من عجائب وغرائب، ومشاهدتها.

وبدأ هذا القطار سيره من عند مدخل الحديقة متوجهاً نحو الشمال الشرقي، ماراً بالعمارة التي بها مكاتب تنظيم هذه الحديقة، والأرض الزراعية التي تبدو كغابة من كثرة أشجارها، ومن شمال الحديقة الشرقي دخلنا إلى داخل البحيرة الاصطناعية الكبيرة، فررنا من فوق مياهها وفوق القوارب المنتشرة في البحيرة، ومن فوق جبل اصطناعي وصخوره وقمته، ثم عاد القطار إلي الشرق فمر من فوق خطه الذى مرمنه آنفاً، ثم أخذ دورة أوسع من قبل، ورجع من خارج الحديقة إلي حيث بدأنا منه السير.. وكانت رحلة لطيفة جمعت بين الهواء والماء والبر.. وشاهدنا كثيراً من غرائب الحديقة..

وفي بقعة ما ارتفعنا عن الأرض ارتفاعاً كبيراً، وكان تحتنا ثلاثة جسور، الجسر الأول منها للقطار الأرضي وتحته تمر العربات، وتحت جسر العربات قوارب للمتنزهين وكان منظراً جميلاً جداً..

وبعد نزولنا من هذا القطار تقدمنا إلي ممر مكروسكوبي، وهو عبارة عن كراسي متقاطرة يجلس عليها الناس، ثم تسير بهم تلك العربات أوالكراسي، وتدخل نفقاً زجاجياً شفافاً.. وموضع الغرابة أن الذى يراهم من خارج النفق في أثناء اجتيازهم النفق يراهم وعرباتهم كحبات الفول أوالفاصوليا في الصغر، وقد شجعنا هذا المنظر للجلوس علي هذه الكراسي والقيام بهذه الرحلة، وأعتقد أن اسمها المكتوب هو (رحلة إلي القمر) وبمجرد مادخلنا النفق الزجاجي احلولكت الدنيا حولنا، وتراءى لنا أن الكراسي أوالعربة التي نحن عليها تدور في كهف مظلم يتخلله بصيص من النور من حين لآخر.. ومن كهف مظلم دخلنا كهفاً آخر رأينا فيه النجوم والسماء في منظر ليلي، ومنه انتقلنا إلي منطقة جليدية تتناثر الكتل الجليدية يمنة ويسرة، وعربتنا تسير وتتدحرج من بينها في ضوء كضوء القمر قبل سرار الشهر [وسرار الشهر آخر ليلة من الشهر] ونسمع مع هذا المنظر أصواتاً غريبة كهزيم الرعد وهدير الماء.. وأنين بعض الحيوانات.. وفي مثل هذه الأماكن ترتفع أصوات الركاب بالضحك والصياح والجلبة، ولا يعرف الإنسان نفسه هل هو علي الأرض أوهو عائم، أوهو يتقلب من عالم إلى آخر.. ويبدو أحياناً أن العربة أوالكرسي يصطدم بكتلة من الجليد أويهوى في مكان سحيق.. وبعد مايقرب من ثلث ساعة خرجنا إلي النور.. وكأن الإنسان كان في حلم طويل ثم استيقظ.

وثم قسم شيدته شركة جنرال إلكترك لشرح تطور القوة الكهربائية منذ اكتشافها إلي ما وصلت إليه الآن. وكان هذا القسم بجوار ما كنا فيه، فدخلنا مع مئات الداخلين وجلسنا علي كراسي في صف دائرى حول مكان يشبه المسرح ثم أطفىء النور فغدونا في شبه ظلام، وبقي النور أمامنا

علي حاجز زجاجي كبير، ثم بدأ الحاجز الزجاجي يتلوّن بألوان مختلفة ونسمع من ورائه أصواتاً غريبة.

ثم تخيلنا بأن المسرح يتحرك حركة دائرية، ورأينا أمامنا أنموذجاً بالحجم الطبيعي لبيت قديم من بيوت أمريكا، تضاء أطرافه بفوانيس صغيرة، وجلس صاحب البيت في ثيابه التاريخية، وله لحية كلحية (أبراهام لنكولن) وجلس عند رجله كلب يحرك رأسه يبصبص بذيله وينبح من حين لآخر ولو تغافل الجالسون عن حقيقة مجلسهم ومكانهم لاعتبروا الإنسان والكلب حقيقيين. وظلت المناظر تمر بنا وهي تمثل تطور الحياة الأمريكية من مبدئها إلى أن وصلنا إلى العصر الحديث.. وكأننا كنا في حلم من أحلام حديقة ديزني لند. ثم صحونا على الأنوار المضاءة.

وانتقلنا من هذا القسم مع جميع رفاقنا إلى محل آخر كتب علي مدخله ما معناه (شاهدوا روائع أمريكا) والمحل مقسم إلى صالات واسعة، وفي كل صالة عجيبة من عجائب الاختراعات الحديثة، ولازدحام الأماكن لم نتمكن من رؤية كثير مما فيها، بل اكتفينا بالاستماع إلى شرح المذيع وهو يشرح غرائب التليفونات والمواصلات اللاسلكية.

وأخيراً دخلنا صالة مدورة واسعة جداً، وربما يقدر عدد الداخلين مائتي شخص أوأكثر، والصالة مقسمة إلي شبه ممرات بينها حواجز خشبية جميلة، طول الواحد لا يزيد عن متر، وظل جميع الداخلين واقفين بين تلك الممرات.

ثم أطفئت الأنوار وأظلم المكان إلا من خيوط نور ضئيل ينبثق من خصاص السقف، وهدأ الجميع انتظاراً لما يأتى، وتحولت القاعة إلي صالة سينما علي طريقة (استريوسكوب) (Sterio Scop) أى السينما المجسمة، كما تحولت حيطان القاعة من كل جهة إلي شاشة سينما.. وشعرنا جميعاً بأننا وسط مركبة ــ برمائية ضخمة أوهي برما جوية ــ أى أنها تسير في

البر والماء والجو، وبدأ صوت المذيع يشرح بدء الرحلة بواسطة المكبرات التي لا ترى .

كان بدؤها من المحيط الهادى من جزائر (هونولولو) وهواى .. وقال المذيع : نحن الآن علي جزيرة هواى وشاهدنا سواحلها وأشجار النارجيل ، ورقصات (هولا) الشعبية .. وعندما سارت المركبة في مياه المحيط شعرنا بميلانه يمنة ويسرة ، وكان بعض الصغار والنساء تخيلوا أنهم في مركبة حقيقية ، وأنهم يتمايلون .. فأخذوا يتصايحون ويتمايلون في الاتجاه المضاد حفظاً لتوازنهم .. ونحن كذلك كدنا نصدق أن الصالة تحولت إلي مركبة لدقة التجسيم في الصورة ، وإذا رأينا موجة من موجات المحيط أمامنا ، شعرنا باهتزاز المركبة ولا نرى إلا اليد تقبض لا شعورياً علي خشبة الحاجز .. ثم وصلنا إلي سواحل الولايات المتحدة في سان فرانسسكو .. وبلاجاتها .. وكأن المركبة تمر من جانب المزدحمين علي الساحل ، ونرى الناس يبتعدون عن طريقها .. ومرت من شوارع المدينة وانحدرت إلي صحراء نيفادا و(وادى الموت) ثم ارتفعت علي جبال نيفادا الممتدة من الشمال إلي الجنوب ، ومرت من جانب الهوات السحيقة في المرتفعات الجبلية التي تعرف باسم (جراند كانيون) (Grand Canyon) والواقعة في ولاية أريزونا ويبلغ عمق هذه الهوة كيلو متراً ونصف كيلو تقريباً ويعتبر من المشاهد العالمية الطبيعية النادرة ، وكنت مشتاقاً لرؤيته فرأيتها بواسطة هذه المركبة الخيالية كرؤية العين الحقيقية .. وعندما انحدرنا من تلك المرتفعات ارتفعت الأصوات من ركاب المركبة كأنهم يتدحرجون إلي الأمام وتماسك بعضهم ببعض .. ثم ارتفعت أوارتفعنا علي سلسلة جبال روكي الشاهقة .. وسط ضجيج وضحكات من المشاهدين رأينا البحيرات المالحة في الأودية ومررنا بولاية (يوتاه) ثم بولاية كولوراد (COLORADO) وعاصمتها (دنفر) (DENVER) وعندما سارت المركبة في شوارعها رأينا المشاة يبتعدون عنها وينظرون إلي من بها وبعضهم يلوحون بأيديهم لها تحية منهم لركاب المركبة ، وكان صوت المذيع يشرح كل دقيقة وجليلة .. ثم مررنا بولاية كنساس

(KANSAS) ولاية الحبوب والبترول والمواشي والدواب ، ثم بولاية ميسوری
وعبرنا النهرين العظيمين نهر ميسوری (Misseuri) ونهر مسسبي
(Mississipi) وفي عبورنا بهذه الأنهار رأينا السفن النهرية تمخر عبابها
وترآى لنا أننا سنصطدم بإحدى تلك السفن . فعلا ضجيج الناس خوفاً منه .

ـ ١٧ ـ

وانتقلنا من ولاية كولوراد (COLORADO) إلي الشمال بولاية (ويومنج) (WYOMING) وولاية (ايداهو) (IDAHO) لمشاهدة حدائق (يلواستون) (YELLOW STONE) أى الصخر الأصفر التي تعتبر إحدى عجائب العالم ومساحتها تقدر بـ(٣٤٣٥) ميلاً مربعاً، ويزورها سنوياً أكثر من نصف مليون شخص من أنحاء العالم لمشاهدة غاباتها وقمم جبالها المكسوة بالجليد، وينابيعها الحارة التي تتصاعد أبخرتها إلي علو (١٢٠) قدماً.

ومن هذا المنظر انتقلنا إلي مدينة شيكاغو (Chicago) وشوارعها الواسعة.. ثم إلي العاصمة واشنطن (WASHINGTON) ورأينا معالمها وآخر المطاف إلي مدينة نيويورك من فوق قصورها ناطحات السحاب، وجولة على الجزر التي حولها، وهنا أعلن المذيع بانتهاء الرحلة وأضيئت الأنوار فلا مركبة ولا طائرة ولا شيء من كل ما كنا نتصوره، بل وجد كل واحد نفسه في المكان الذى وقف فيه عند دخوله.. ومن الغرائب الموجودة في هذه الحديقة والتي اكتفينا بالمرور بها أورؤيتها من القطار المعلق الذى تجولنا فيه في الحديقة.

١ ـ بحيرة اصطناعية فيها أنواع من الأسماك الغريبة ولها ميناء نموذجي لتكون المواني في المستقبل على هندسته.. وبجوار هذا الميناء غواصة صغيرة تسع أربعة أوخمسة ركاب. وتنزل بهم إلي ما تحت سطح الماء متنقلة من مكان إلي آخر، ثم تعود إلى مقرها، ويخرج الركاب ليدخل آخرون.. وقد رغب الأستاذ الفطاني في الدخول فيها لأخذ جولة تحت سطح الماء.. فقال له فضيلة الشيخ: كل شيء إلا النزول

تحت سطح الماء داخل هذه الغرفة، وإذا ماتعطلت لا سمح الله. ونزلت إلى القاع صرنا كما قال صاحب متن الرحبية: واجعل أباهم حجراً فى اليم!! وكانت فكاهة جميلة من فضيلته، والسبب الحقيقي للامتناع هو التعب الذى بلغ منا حده الأقصي.

٢ ــ جبل اصطناعي ولكنه في حجم تل كبير تنحدر المياه من جوانبه كشلالات، ويخترق من وسطه نفق يمر القطار منه في دوراته بالحديقة.

٣ ــ قرية صغيرة مزودة بطواحين الهواء، وبها بحيرة تجرى في مياهها القوارب البخارية.. وعلي جانب منها ــ مغارة ــ علي شكل جمجمة بشرية ضخمة..

٤ ــ أشجار من الصبار في مساحة محدودة على طرف هذه البحيرة، وكل شجرة لها شكل غريب إما على هيئة تمثال لإنسان، أو على شكل حيوان من الحيوانات..

٥ ــ مساحة واسعة: تصور الصحراء برمالها وشمسها وأعشابها، وبها بعض نافورات.

٦ ــ قرية صغيرة للهنود الحمر وأكواخهم وخيولهم لتوضيح حياتهم..

٧ ــ مسرح لرقصة النار.

٨ ــ بحيرة بها سفن شراعية تعرف باسم السفن الكولمبية (الشراعية) لراغبي الرحلات المائية.

٩ ــ مقبرة صغيرة ولم ندر هل هي مقبرة حقيقية أو صورة للمقابر.

١٠ ــسوق فرنسية لبيع الروائح الفرنسية.

١١ ــسوق للفضيات والأدوات المصنوعة من الكريستال.

١٢ ــحوض سباحة للأفيال.

١٣ ــغابة بها حيوانات مختلفة.

١٤ ــمعرض لصناعة النظارات.

١٥ ــمعابد مختلفة غريبة الأشكال.

١٦ ـأشجار ضخمة من أشجار سويسرا .
١٧ ـمنظر لقرية بها صائدو الرءوس البشرية .
١٨ ـسينما عامة .
١٩ ـمسرح للتمثيليات .
٢٠ ـمركز للفنون الجميلة والرسم .
٢١ ـقاعة للرسم الظلى ـ (سلهوتة) ٢٢ ـ ميداناً لفرقة الموسيقي .
٢٣ ـحديقة للشاى .
٢٤ ـحوض للجليد الصناعي للزحلقة .
٢٥ ـفرع لبنك أمريكا وبنك التسليف ومكتب للاستعلامات .
٢٦ ـمطاعم ومقاه مختلفة .
٢٧ ـمراجيح للأفيال .
٢٨ ـقلعة تاريخية .
٢٩ ـمراكز للإسعاف .
٣٠ ـمراجيح للكبار والصغار علي شكل طيارات .
٣١ ـنماذج لعالم الغد .

وغير ذلك مما لم يكن في وسعنا الإحاطة به ولا المرور عليه في فرصة كفرصتنا ..

وكنا بعد التجوال في هذه الحديقة في حاجة شديدة إلي الراحة وتناول الشاى ، وشيء من السندويتشات .. فخرجنا إلى المقصف القريب ولم نجد به كرسياً إلا بعد انتظار شبه طويل لخلو كرسى أثر كرسى .

وبعد أن ارتاحت أقدامنا ونشطت أجسامنا بالشاى والكعك .. فكرنا في الرجوع ، وكان المدخل مزدحماً بالداخلين ـ وهم أكثر ـ والخارجين ، ورجعنا في الأتوبيس إلى مدينة لوس أنجلوس والفندق الذى كنا فيه ، وكانت الساعة إذ ذاك الثالثة بالتوقيت المحلي وهو ميعاد سفرنا أوحجزنا في الطائرة للسفر إلي (مدينة شيكاغو) (Chicago) .

ولم نتمكن لضيق الوقت وحلول موعد السفر من الوصول إلى الغرف والاستراحة التي كنا في حاجة إليها، بل جلسنا في صالة الفندق وطلبنا من الخدم إنزال الحقائب، كما أنهي فضيلة الشيخ مع مديرة الفندق حساب المبيت والمقيل، وذهبنا إلى مكتب الخطوط الجوية لشركة ــ (تي. دبليواى) (T.W.A.) ومنه إلي المطار، وكانت أنظارنا علي لوحة الرحلات فإذا الرحلة التي حجزنا فيها قد أزيل رقمها، أى أن التجوال في (ديزني لند) وعجائبه أضاعنا من السفر وأفاتنا الطائرة.. ولكن الأستاذ جميل ياسين فطاني حفظه الله تدارك الأمر وفتش في الشركات الثانية عن رحلة إلى مدينة شيكاغو، فوجد في الخطوط الأمريكية الجوية (أمريكن ايرلاين) (American Air Line) رحلة إليها بعد دقائق.. وكان مكتب هذه الشركة بعيداً عن محلنا الذى كنا فيه، فسعينا إليه سعياً حثيثاً حتى أدركنا الموظف وغير لنا التذاكر من شركة (توا) (T.W.A.) إلي الخطوط الجوية الأمريكية بالدرجة الأولي، ثم عدنا إلي حيث ينتظر المسافرون، ولم ندخل الصالة إلا وكان الميكروفون والمكبر يعلن عن إقلاع هذه الطائرة التي قطعنا فيها، ويطلب من المسافرين الخروج إليها..

وطريقة الوصول إلي الطائرة لركاب الدرجة الأولي هي الطريقة المتبعة في المطارات التي مررنا بها، أى أن الراكب يسير في ممر ينتهي به إلي الطائرة.

وفي الساعة الخامسة والثلث مساء ــ أى قبل غروب الشمس ــ ارتفعت الطائرة وحلقت في سماء لوس أنجلوس التي ودعناها بنظراتنا علي عماراتها الشامخة، وميادينها الواسعة، وأنوارها التي بدأت تتلألأ.. وزرقة مياه المحيط الهادى، وعندما زادت في الارتفاع حال دون الرؤية إلي ما تحتنا الرطوبة وأبخرتها.. فانصرفنا عن النظر إلى الأرض إلى الاشتغال بما قدم لنا من الطعام، وإلى أسئلة المضيفات: تريدون هذا أوذاك، أوتشربون الشاى أو القهوة.

ومن مميزات هذه الطائرة وجود جهاز تليفزيون بين كل كرسيين، مع أنغام موسيقية هادئة مستمرة. وبعد ما يقرب من ساعة شعرنا ببعض الاهتزازات القوية والميلان نتيجة تغيير الاتجاه، أو أن المنطقة التي تحتنا كانت منطقة جبلية ذات هوّات كهوة (جراند كانين) (Grand Canyon).. ومررنا من فوق صحراء (موجاف) (MOJAVE) ونهر كولورادو، وبعد أن أظلمت الدنيا كنا نشاهد أنوار المدن التي نمر بها، وبقينا في الجو أربع ساعات، والمسافة بين لوس أنجلوس وشيكاغو (١٧٦٤) ميلاً، وعندما دنت الطائرة من مدينة شيكاغو انخفضت وشاهدنا أنوارها ممتدة كخطوط مستقيمة ومربعات ومثلثات، أى علي حسب شوارعها وميادينها وعماراتها وأنوار سياراتها.

وأخيراً نزل بنا الطيار بغاية الهدوء والسكون بمطار شيكاغو الدولي.. ويعتبر مطارها من أكبر مطارات العالم وأكثرها ازدحاماً.. وكان الخروج من الطائرة بنفس الطريقة التي دخلناها، ثم انتقلنا بواسطة الدرج السحاب الأوتوماتيكي — إلي مكاتب المطار، وكان الازدحام قد خف كثيراً لتأخر الوقت.. وبعد أن تسلمنا حقائبنا.. جاءنا مندوب من شركة الخطوط الأمريكية وعرض علينا أن نركب مع ركاب الطائرة في الأتوبيس التابع للشركة للدخول إلي المدينة وقال: وبجوار مكتبنا فندق (بلتيمور) (Bal Timore) الشهير تنزلون فيه، فرحبنا بالفكرة وركبنا الأوتوبيس، كل راكب بدولارين، ودخلنا المدينة.. مارين بشوارعها الواسعة كأنها الميادين، وكانت حركة السيارات فيها علي أشدها.. وعندما اقتربنا من مكتب الشركة رأينا عمارة فندق (بلتيمور) وأنوار نوافذها لا تحصى، وبعد نزولنا من الأوتوبيس دخلنا الفندق فاستقبلنا أحد موظفي الفندق وسألنا: هل حجزتم أماكن من قبل؟ فقال له الأستاذ جميل فطاني: لا، لم نحجز.. فاعتذر الموظف بعدم وجود غرف خالية، وأوضح سبب ذلك أن المدينة بها في هذه الأيام مؤتمر إقليمي للولايات المتحدة، ولذلك تجدون جميع فنادقها من الدرجة الأولي مزدحمة بالوفود أعضاء هذا المؤتمر..

— ١٨ —

في مدينة شيكاغو :

لقد أخبرنا مدير مكتب الخطوط الجوية التابعة لشركة (توا) (.T.W.A) الذى أشار علينا بالنزول فى فندق (بلتمور) (Baltimore)، أخبرنا بعدم وجود أماكن خالية فيه، وكان رجلاً لطيفاً سمحاً نادراً بين من قابلناه من أمثاله، فعرض علينا أن نركب أتوبيس المكتب ثانية، وأمر السائق أن يوصلنا إلى منطقة أخرى تعتبر منطقة الفنادق على درجات مختلفة، ولم يستغرق السير إلى هذه المنطقة أكثر من دقائق معدودات، ثم وقف السائق عند فندق فخم ضخم تعج صالته بالداخلين والخارجين والجالسين.. فدخلناه مع الداخلين واتصل الأستاذ الفطانى بمديرة الفندق فاعتذرت له بعدم وجود غرف خالية.. وهنا أحب فضيلة الشيخ محمد ــ أحسن الله إليه ــ أن أبقى فى صالة الفندق مع الحقائب وخرج مع الأستاذ الفطانى للبحث عن فندق آخر فدخلا عدة فنادق في الشارع نفسه، وأخيرا تسهل الأمر ووجدوا فندقاً ممتازاً استجابت مديرته طلبهم بأن هيأت لنا ثلاث غرف، وبعد الاتفاق معها، جاءا إلىّ وأخذ كل حقيبته وانتقلنا إلى صالة الفندق الآخر وقدمت لنا مديرة الفندق ثلاثة مفاتيح لغرف متفرقة في مختلف الأدوار، فغرفة فضيلة الشيخ في الدور الخامس عشر، وغرفة الأستاذ جميل فطاني في الطابق الرابع عشر، وغرفتي في الطابق التاسع، ثم صعدنا إلى الغرف ووضع كل منا حقيبته في غرفته، ثم نزلنا إلى الصالة حيث تناولنا الشاي والقهوة، ثم فكرنا ــ برغم تأخر الوقت وتعب الجسم من جراء الرحلة ــ في القيام بجولة قصيرة حول الفندق..

وتنفيذاً للفكرة سأل الأستاذ الفطانى مأمور حركة الفندق عن بعض معالم المدينة القريبة من الفندق نصل إليها مشياً على الأقدام.. أو في سيارة من سيارات الأجرة.. ولكن الرجل كان على جانب كبير من الحصافة والا تزان ـ فنصحنا أن الوقت فات، ونحن الآن بعد منتصف الليل ولا تجدون الآن غير النوادى الليلية.. وبناء على نصيحة هذا الناصح عدلنا عن فكرة التجوال وتناولنا في مطعم الفندق ما يدفع الجوع، ثم صعدنا إلى الغرف للنوم..

ذكريات قديمة :

ورجعت بي الذاكرة وأنا بين اليقظة والنوم إلى ذكريات عن هذه المدينة، وانى لى من ذكريات عن هذه المدينة وهذه أول مرة تطأ أقدامي أرضها..؟ لقد كانت ذكرياتى عنها بواسطة الخطابات المعروفة في فن الإنشاء (التعارف قبل اللقاء) فقد تسلمت خطابات باسم مدرس بمدرسة الأمراء بالرياض قبل الحرب العالمية الثانية من مفتش المعارف وعدد من الطلاب من عدة ولايات، وأحدهم كان من هذه المدينة، ووجدت في تلك المكاتبة خير وسيلة للتمرن على الكتابة الإنجليزية (ولو بلغة مكسرة) واستمرت المكاتبة بيننا سنوات، ثم انقطعت لقيام الحرب العالمية الثانية.. فقد اتصلت بهذه المدينة كتابياً، وهأنذا وصلتها الآن بنفسى وذلك بفضل الله ثم بفضل فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ، وتغلب علىّ النوم في مثل هذه الأفكار...

واستقبل كل واحد منا صباح شيكاغو، يوم ١٣٨٨/٥/٢٥ هـ وهو في غرفته الجميلة والمؤثثة بأجمل الرياش مستقبلا القبلة حامداً الله مستعيناً به في كل شأن من شئونه..

ونظرت من النافذة التي هي عبارة عن فتحة واسعة أو هي من جدار زجاجى سميك عليه السجوف.. فلم أر غير ناطحات السحاب والشارع كأنه ميدان

لاتساعه، وممتد إلى مد البصر، وكأنه حديقة غناء لكثرة ما فيها من الأشجار، والأراضي المكسوة بالأعشاب والأزهار..

كنت أنظر إلى هذه المناظر وكأني في أحلام اليقظة عن هذه المدينة التى تعد المدينة الثانية في الولايات المتحدة، وسكانها الذين يقدرون بأكثر من ثلاثة ملايين وهم كل يوم في ازدياد..

المدينة التى اشتهرت بمراكزها العلمية، وجامعتها ومتاحفها المختلفة، وحدائقها التى تمتد إلى مسافات شاسعة على سواحل بحيرة (متشجن) (Michigan) العظيمة... وقد تعرضت قبل اتساعها لحريق سنة ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) أكل عاليها وسافلها كمدينة سان فرانسسكو، ثم أنشئت مرة أخرى بتنظيم جديد وتنسيق هندسي بديع، ومع رقى مدنيتها وحضارتها مشهورة كذلك بعصاباتها الإجرامية الذين ألفت عنهم الروايات والقصص..

وفي مثل هذه الأحاديث النفسية نظرت إلي الساعة فإذا موعدنا للاجتماع في الصالة قد حل، فأسرعت واتصلت تليفونياً بالأخوين الكريمين ووجدتهم على أتم الاستعداد للنزول إلى الصالة، فنزلت واجتمعنا في الصالة، والصالة كأنها بهو من أبهاء القصور التاريخية فى الاتساع والنقوش والتحف..

إلى مطعم الفندق :

وفي الفندق مطعم فاخر في المأكولات التي يقدمها، وفي الحساب الذى يأخذه مقابل تلك المأكولات.. وبمجرد جلوسنا قدم لنا الخادم (قائمة أطعمة الفطور) فوقع اختيار الأستاذ الفطاني على ما نسميه (القطائف) وذهب الخادم وبعد لحظات جاء بالطلب وكان في بذلته يشبه (الباشوات) الذين كنا نشاهد صورهم في الجرائد المصرية وغيرها، ووضع أمام كل واحد منا حظه من الفطور: صحن القطائف مع كوب صغير كأكواب لعب الأطفال - ملئ بـ(الشيرة) وعلبة صغيرة من البلاستيك الشفاف بها كمية من

الزبد لو تركت للإنسان الحرية لأتى عليها في لقمة واحدة وكوب من الشاي أو القهوة، ومعه كوب للحليب لا يزيد فى حجمه عن (الكشتبان) إلا بشيء قليل .. لو رآه أطفالنا لأخذوه لعبة .. وتناولنا هذا الفطور الفاخر كبقية رواد المطعم أو المقصف، وعند المحاسبة قدم (الفاتورة) وسط كأس زجاجى فإذا هي تشير إلى (٦٠) دولاراً .. وتسلم ما في (الفاتورة) وظل واقفاً ينتظر شيئاً آخر... وأردنا أن نتغافل عنه ونخرج فقال: هذا (وأشار إلى الستين) عن الفاتورة فأين (التب)؟ (أى المنحة أو البقشيش) وبقي يضغط على كلمة (تب) (تب) كأنه ساعة دقاقة، فدفع له فضيلة الشيخ ثلاثة دولارات .. وأخذها وكأنه ولم يأخذ شيئاً .. فخرجنا ونحن نقول (رضي الله) عن مطاعمنا وحياة بلادنا وأطعمتها وسماحة نفوس أهلها ..

إلى المطار:

وبعد تناول الفطور غادرنا الفندق إلى مطار شيكاغو فى أحد الأوتوبيسات المتوجهة إلى المطار أى إلى شمال المدينة ومررنا بشوارع كأنها حدائق من كثرة أشجارها وبعض ميادينها مغطاة بالعشب والأزهار على أشكال هندسية بديعة أنيقة نميقة.

كما مررنا بنافورة (بكنجهام) (Buckingham) وهي عبارة عن نافورة عظيمة تحيط بها مئات من النوافير الصغيرة، وتصب مياهها في خطوط منحية نحو النافورة الكبيرة تبدو من بعد شآبيب الماء ومنظرها الليلى أجمل وأروع من النهار لأنها تضاء بأنوار مختلفة ..

والعمارات تشبه عمارات نيويورك، ولكن الفرق بين المدينتين أن هذه تمتاز باتساع الشوارع ولا تمنع العمارات الشاهقة عنها الضوء والشمس، بخلاف نيويورك التي تبدو شوارعها دوماً معتمة لضيقها وعدم وصول أشعة الشمس إليها ..

وأخيراً وصلنا المطار في أكثر من ساعة ونصف ساعة وذهب الأستاذ الفطانى رأسا إلى مكتب شركة (توا)(T.W.A.) واتصل بمديره وطلب منه تجزئة التذكرة: شيكاغو ـ واشنطن إلى شيكاغو ـ ديترويت ـ بفالو ـ واشنطن) فاتصل مدير المكتب فى الحال بالأستاذ عبد العزيز المنقور في نيويورك، المسافة بين شيكاغو ونيويورك ٧١٩ ميلا تليفونياً في أقل من دقيقة، وأخبره برغبة بفضيلة الشيخ، وبعد اتصاله قطع لنا التذاكر علي حسب الرغبة ثم حجزنا في شركة الخطوط الجوية الأمريكية، وكان بين ميعاد قيام الطائرة وبين وقتنا أكثر من ثلاث ساعات فعدنا في تاكسي إلى وسط شيكاغو.

وبدأنا جولتنا على الأقدام من الشارع الذى فيه فندقنا.. وأول ما استرعى أنظارنا فرقة موسيقية بالبذلات البيضاء، كأنهم الغرانيق، ولمعان آلاتهم الموسيقية يكاد يغشى العيون، وبجوار الفرقة رأينا طاليات مدرسة من المدارس في أزياء شعبية تشبه الأزياء الاسكوتلاندية الشعبية، وسأل الأستاذ الفطاني رجلا كان ينظم وقفاتهن وصفوفهم عن الأمر فقال: إنه احتفال تقليدى سنوى لمدينة شيكاغو وسيسير موكب الطالبات والطلاب من كل قسم مع هذه الفرقة الموسيقية في الشوارع الرئيسية، ويستقبل في أماكن مختلفة من قبل المسئولين بالترحاب والهتافات، كما سيحضر مندوب من قبل الرئيس..

وتقدمنا إلى شوارع أخرى، فرأينا في شارع من تلك الشوارع منصة عالية قيل إنها لمندوب الرئيس يقف عليها لاستقبال هذا الموكب، وكانت أمام هذه المنصة من الناحية الثانية أجهزة التصوير التليفزيوني وآلات التسجيل.

ونظرنا إلى الساعة فوجدنا ميعاد الطائرة قد اقترب ولولا ذلك لوقفنا مع الألوف الواقفة لمشاهدة هذا الموكب الذى سيمر بشوارع شيكاغو.

وتقدمنا إلى ناحية الفندق فرأينا عمارة غريبة الشكل كأنها برج عظيم

مكونة من (٦٢) طبقة.. منها اثنتا عشرة طبقة عبارة عن (كراجات للسيارات تسع أكثر من ألف سيارة ومن بعدها أى من الطبق الثالثة عشرة أدوار سكنية، ومكاتب للشركات وفتحات نوافذها تبدو كخلايا النحل...

وكان بودنا أن نطيل (التمشية) فنزور مكتبة شيكاغو الفخمة والتى تحوى أكثر من مليوني كتاب في مختلف الفنون، ونمر بمتاحفها التى تشتهر المدينة بها كالمتحف الفلكى وبه قبة النجوم والكواكب وحركاتها مثل التي رأيناها في لندن، ونستمتع برؤية حدائقها الجميلة، والتي اشتهرت شيكاغو من أجلها بكونها مدينة الحدائق، ففي حديقة (جارفيلد) أكبر مركز للنباتات المنقولة من أجواء مختلفة وأقاليم متنوعة من أقاليم العالم الحارة والباردة والمعتدلة، وتعد من أكبر حدائق التبليد في العالم..

كان بودنا أن نزور كل هذه الأماكن، ولكن ميعاد الطائرة جعلنا نقطع جولتنا ونكتفي بما شاهدناه، ونمد الخطى إلى الفندق لأخذ الحقائب ودفع الحساب، ثم أخذنا سيارة من سيارات الأجرة وأسرعنا إلى المطار، وسار السائق بسرعة (١٠٠) و(٩٠) كيلو متراً في بعض الأماكن التي كتب عليها ألا تزيد السرعة فيها عن (٥٠ و٤٠) كيلو متراً، أى أنه خالف نظم المرور عندما تكون حركة السيارات خفيفة ومع ذلك قطعنا المسافة في أكثر من ساعة إلى مكتب الشركة، وبمجرد دخولنا المطار، توجه الأستاذ الفطاني إلى مأمور الرحلات ومسجل الأسماء والتذاكر وفي هذه الأثناء أعلن عن قيام الطائرة والتوجه إلى الباب رقم كذا للخروج، فقمنا مع المسافرين وخرجنا إلى الطائرة، وكانت من النوع الصغير ولكنها نفاثة.. وحالما جلس الركاب في مقاعدهم تحركت وارتفعت، ولصغر الطائرة ظننا أن نظامها

الداخلى يكون مختصراً، ولكن الأمر بالعكس لم يتغير من النظام الداخلي شيء، وعندما استوت على متن الرياح وأخذت اتجاهها نحو الشرق قدمت المضيفات لكل راكب ما طلب من المشروب من الشاي أو القهوة أو غير ذلك.. ثم قدر من الطعام كالمعتاد..

التفكير في عصابات شيكاغو:

لقد فكرت وأنا في الطائرة عن عصابات شيكاغو وعن جرائمهم، وحمدت الله على أننا لم نر شيئاً ولم نسمع عنها مطلقاً، وبينما أنا في هذه الأفكار قدمت إلىّ إحدى المضيفات عدداً من جريدة (هيرالد تريبيون) (Herald Trrebune) الأمريكية اليومية وأول ما لفت نظرى عنوان بحروف كبيرة عن فقدان ٤٨ ألف دولار أمس الماضي، أى قبل وصولنا إليها بساعات، وذكرت الجريدة عن عصابة استأجرت شقة فوق معرض للمجوهرات (وذكرت اسم الحى والشارع واسم صاحب المعرض) وأن أفراد العصابة فتحوا من سقف المعرض فتحة ونزلوا منها إلى المعرض سرقوا منه ما قيمته (٤٨) ألف دولار، وأبلغ الحادث لبوليس المدينة وهو يتعقب هذه العصابة..

وحادثة أخرى ذكرتها الجريدة بأنها وقعت في اليوم نفسه، ولكن بعد غروب الشمس، وكانت بين رجال البوليس وجماعة من الشباب المتحلل المعروفين باسم (الهيبيز) فقد اجتمعوا في إحدى الحدائق وأرادوا أن يتخذوها مقراً لاجتماعاتهم، وارتكبوا بها عدة أخطاء مخالفة للأمن فتدخل البوليس، ولكنهم قابلوا البوليس بالعص والحجارة، فاستعمل البوليس القوة وتمكن من حجزهم في ذلك الجزء من الحديقة..

وكانت هناك حوادث أخر غير هاتين الحادثتين.. فحمدت الله على أن خرجنا من المدينة دون أن نرى شيئاً منها، وألقيت الجريدة جانباً لأنظر إلى الفضاء والسحب أو التحدث مع الراكب جارى الذى كان يبدو (منفوخاً) أكثر من اللازم، ومع ذلك فقد بادأنى ببعض الأسئلة ظناً منه أنني من

المكسيك أو من إحدى الجزر الغربية، فنفيت له هذا الظن ولم أزد.. وأخذت أنظر إلي الفضاء والأرض، وكان الجو قد اكفهر بالضباب فحرمت من النظر إلى الأرض وما بها من الجبال والأنهار والبحيرات، وبقينا في الجو أكثر من أربع ساعات أي أربع ساعات وثلث ساعة تقريباً..

تأخير الساعات:

وعندما اقتربنا من مدينة (ديترويت) (Detroit) أكبر مدن (متشيجن) (Michigan) الشمالية أشارت لنا إحدى المضيفات بأن نؤخر ساعتنا ساعة واحدة، وأن الوقت في ديترويت الآن هو(٥,٥) في حين أن المفروض أن يكون (٦,٥) لأننا قمنا من شيكاغو الساعة الثالثة والنصف.

في مطار ديترويت:

ونزلت الطائرة بكل هدوء في مطار ديترويت المدينة المشهورة بصناعة السيارات، وكان الخروج من الطائرة بواسطة السلم، والمطار بالنسبة إلى المطارات التى مررنا بها كان مختصراً وصغيراً ومكاتبه كذلك ليست في فخامة المطارات الثانية، ومن الطائرة مشينا إلى مكتب الشركة وكانت الحقائب قد سبقتنا إلى المكتب..

البحث عن فندق:

وذهب الأستاذ الفطاني إلى لوحة أسماء الفنادق، وكل اسم تحته جهاز تليفون متصل بالفندق رأساً، فاتصل بجميع الفنادق الممتازة، واعتذر أصحابها عن وجود غرف خالية، ثم جاء إلى دليل الأماكن الخاصة التي تعرف بالإنجليزية (موتيلات) وهي عادة تكون في الضواحي بعيدة عن وسط المدن، لأنها أماكن مهيأة لأصحاب السيارات الخاصة، أى الذين يسافرون بسياراتهم، إذا وصلوا أى مدينة قصدوا أحد هذه الأماكن (الموتل) ليكونوا هم وسياراتهم في مأمن من الأمطار والأخطار.



وقد وجد محلاً مناسباً في إحدى الضواحي واتفق مع صاحبه لإعداد غرفة بثلاثة سرر.. وقبل أن نغادر المطار أحب فضيلة الشيخ أن نحجز للسفر إلى مدينة (بفالو) (Buffalo) الشمالية من الآن لئلا نضطر للعودة إلى المطار ولم يجد الأستاذ جميل فطانى في لوحة الرحلات إلى مدينة (بفالو) غير رحلة واحدة في شركة الخطوط الجوية المعروفة باسم (موهاك) وهي شركة للخطوط الجوية داخل الولايات المتحدة، فحجز فيها للغد..

وأخذنا (تاكسياً) إلى (الموتل) الذى اتفقنا معه، وكان على مسافة لابأس لها، فلم نصله إلا فى (٤٠) دقيقة واسم الموتل (فلاكون)

(Flacon) فـي مـديـنـة ديترو يت التى تعرف باسم مدينة السيارات: ويقع (الموتـل) الذى نزلنا فيه في ضاحية جميلة من ضواحى هذه المدينة الصناعية قـريـبـاً مـن خـط الأسفـلـت الممتد بين قلب مدينة ديترويت والقرى القريبة منها، والأوتـوبـيـسـات العامة لنقل الأهالى تكاد لا تنقطع عن هذا الخط، ولها مواقف منظمة..

وهـذه الـضـاحـيـة أسـمها (ديربورن) (Dearborn) وهي منطقة زراعية هادئة وادعة، والموتل (فالكون) عبارة عن بيت مستطيل ذى طابقين مُسقّف علـى طـريـقـة (الجملون) بقر ميد أحمر كبيوت الريف الأمريكي والأوربي، بالسقف عدة مداخن صغيرة.

وخـصـصـت لـنا صاحبته غرفة مستطيلة في الطابق الأرضى واسعة بثلاثة سرر وخزانة للأمتعة وتليفون وتليفزيون وجميع ما تزود بـه غرف الفنادق.

وهـذا أول يـوم فـي رحـلـتـنـا منذ أن بدأناها نرتاح فيه بالاضطجاع على السرر الوثيرة في وقت كهذا، وهو قبل العصر تقريباً. والذى كنا نقضيه في الغالب إما في الانتقال والارتحال من بلد إلى آخر، وفي التجوال في المدينة الـتـي نـكـون فيها، أما اليوم وفي هذه المدينة أو في ضاحيتها التي تبعد عن قـلب المدينة (عشرين كيلو مترا) فقد ارتحنا ـ والحمد لله ـ وتمتعنا بالقيلولة إلـى مـا بـعـد العصر، ومادمنا في القيلولة فلا أترك فرصتها تذهب سدى في إغفاءة أو نوم عميق، بل شغلناه في التعرف إلى هذه المدينة الصناعية التي يـسـميها الأمريكان مدينة السيارات، وأحيانا يسمونها (مدينة المضايق) لكثرة مـا بـهـا مـن الـمـضـايـق المـائية لوقوعها بين بحيرة (سانت كلير)
وبحـيرة (ايرى) (Erie) وعلى نهر ديترويت المتصل ببحيرة (ايرى) ويعتبر في هـذه الناحية هذا النهر حداً فاصلاً بين أرض الولايات المتحدة وأرض كندا، وتـقـع عـلـى الـطـرف الآخـر من هـذا النهر مـديـنـة (اونتاريو)
و(ونـدسور) (Windsor) الكنديتان. والمتصلتان مع بعضهما البعض بجسر ممتد فوق النهر، ونفق من تحت مياه النهر.

وفي وسط هذا النهر جزيرة صغيرة تعتبر منتزهاً وحديقة فيحاء، لأهل ديترويت. وبها ملاعب مختلفة وبيوت جميلة لنزول الناس في الصيف خاصة، وقد صممت شوارع المدينة على شكل مربعات ما عدا أربعة شوارع هامة هي: شارع ود وارد، وجراتيوت، النهر الكبير وشارع متشجان.

وأول من سكن هذه المدينة من البيض هم فرنسيون من أهل كندا، فأسسوا مركزاً تجارياً لتصدير الفراء وذلك سنة ١٧٠٠م (١١١٢هـ) ثم أخذت المدينة تنمو تدريجياً حتى قامت بها صناعة السيارات، عندئذ أخذ الناس يهاجرون إليها، وأول سيارة من صنع ديترويت سارت في شوارع المدينة سنة ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) وتعرضت هذه المدينة سنة ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) لحريق هائل دمرها كلها، ثم أنشئت من جديد بعد ذلك الحريق.

الاتصال بمركز شركة جنرال موترز:

لقد كان في مقدمة الأهداف التي من أجلها رغب فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ في زيارة هذه المدينة الصناعية الاطلاع على مصانع السيارات والوقوف على صناعتها من قرب، وتنفيذاً لرغبة فضيلته اتصل الأستاذ جميل ياسين فطانى ــ بعد قيامنا من الراحة والقيلولة ــ بشركة جنرال موترز فتكلمتْ معه تليفونياً إحدى مديرات الأقسام بالشركة وقالت له: غداً تأتون إلينا، أى إلى مركز الشركة، لينظم لكم مدير العلاقات جولة في المصانع، وأعطته عنوان الشركة ورقم تليفون مدير العلاقات.

إلى المدنية:

وبعد أن ارتحنا جلوساً ونوماً قمنا لاستجابة نداء المعدة، وسألنا صاحبة الموتل هل لديها ما يدفع عنا غائلة الجوع. فقالت: ليس عندى شيء جاهزا ولكن بالطلب. والمفروض فى نزلاء الموتلات أن يكونوا مزودين بالضروريات من المأكل والمشرب، وكنا مجردين من كل ذلك، فقررنا أن نخرج إلى

قلب مدينة ديترويت بواسطة الأوتوبيسات العامة وهناك نتغدى في أحد المطاعم.

وخرجنا إلى الشارع العام، والشارع هنا أى في هذه الضاحية عبارة عن أرض زراعية ممتدة إلى مسافات، لا تحدها عمارات ضخمة، ولا مساكن عالية، وكل ما فيها من المبانى عبارة عن بيوت أرضية أو ذات طبقتين متباعدة عن بعض.. وخروجنا إلى الشارع معناه خروجنا إلى مزرعة أو حقول واسعة يمر من بينها طريق معبد بالأسفلت للسيارات، وقفنا قليلا عند موقف الأتوبيس ثم آثرنا التقديم إلى موقف آخر مشياً على الأقدام، لأن الجو والوقت والأرض والمناظر كلها تدعو وتشجع على التريث والسير الهوينا والاستمتاع بنفحات الهواء اللطيف..

ولم نتقدم قليلا عن مكاننا إلا ورأينا مطعماً لطيفاً رواده قليلون أو أنهم انتهوا من وروده، فدخلناه وتناولنا الطعام كغداء ولكن قبيل غروب الشمس.

ثم خرجنا ومشينا حتى وصلنا إلى موقف الأوتوبيس الثانى فوقفنا عنده على الحشائش المخضرة المتوجة بأزهار صغيرة ملونة كأنها نقط صفراء حمراء بيضاء في بساط سندسى أخضر، ولا يشعر الإنسان بملل لطول الوقفة في هذه المواقف التى لا يعرف فيها أحد أحداً ولا يعرفه أحد. والسيارات المارة تمر من فوق الخط في سرعة البرق.

ووصل الأوتوبيس ولم يكن به غير راكبين أحدهما زنجي والآخر أبيض. وتحرك بنا نحو المدينة بسرعة زائدة، ولا يقف لأحد في أثناء الطريق إلا في المواقف..

وبعد أن قطعنا مسافة لا بأس بها بدأت العمارات والمعارض التجارية وأماكن اللهو من سينمات ونواد ليلية ومسارح تظهر على الجانبين، يعرفها المار باللافتات المكتوبة والمنورة بأضواء ملونة ومعظم هذه المحلات كانت

لضآلة أنوارها في شبه ظلام من ظاهرها كما ظل الشارع إلى منتصفه في أضواء خافتة.... ثم بدأت أنوار المدينة وعماراتها الضخمة وشوارعها الصاخبة..

وفي أحد الميادين العامة نزلنا من الأتوبيس وسرنا على أقدامنا، وكانت أمامنا عمارات تشبه عمارات مدينة نيويورك في العلو والارتفاع، ولكن على قلة.. وكانت المعارض التجارية الكبيرة مضاءة بالأنوار من الداخل والخارج، وهي مقفلة بأبواب من الزجاج.. وانتهى بنا السير إلى ميدان تتوسطه مجموعة من النافورات ومياه كل واحدة منها ملونة بلون خاص، وإذا اجتمعت من علوها تكوّن من مجموع شآبيبها منظر كقوس قزح، وينتشر الناس حولها على مقاعد مستطيلة من الرخام الأبيض، وخاصة كبار السن من الجنسين طلباً للهدوء والسكون، وهرباً من صخب المدينة وازدحام الشوارع وضوضاء الملاهى..

جلسنا مع هؤلاء ولكن كل في فلكه سابح.. نشاهد مياه النافورات الملونة ترتفع إلى علو كبير ثم تتمايل يمنة ويسرة وتنزل في شكل قبة أو أقواس ملونة، وتقف عمارات شامخة وراء تلك النوافير.. وحركة الشوارع والتقاء الطرق كان له منظر غريب، ومناظر أخرى غريبة بالنسبة إلينا مألوفة عند القوم.. بقينا في هذا الجو الهادى أو المضطرب ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة، ثم أخذ الطقس يزداد برودة فآثرنا القيام والعودة إلى (موتلنا) والمسافة بين ديترويت وديربورن ما يقرب من عشرين كيلو متراً كما قلت.

وقمنا بجولة قصيرة في الشوارع القريبة من هذا الميدان، ثم جئنا إلى موقف الأوتوبيس المتوجه إلى ضاحية (ديربورن) حيث مقرنا و(موتلنا) وجاء الأوتوبيس وبه عدد كبير من الركاب فركبنا معهم وعدنا إلى محلنا، وقبل الدخول إلى (الموتل) مررنا بالمقصف التابع للمطعم الذى تغدينا فيه وتناولنا الشاى والقهوة، وأطلنا الجلوس تحت سماء ديترويت ونجومها في

أحاديث شيقة كان فضيلة الشيخ يتحفنا بها من ذكرياته ومحفوظاته وتجاربه في رحلاته وأسفاره..

ثم قمنا إلى غرفتنا وسهرنا على التليفزيون

ثم تغلب النوم على الجميع فنمنا ــ والحمد لله ــ نوماً هادئاً في جو لم نستغن فيه عن الغطاء.. أصبحنا يوم الثلاثاء ١٣٨٨/٥/٢٦ هـ وأصبح الملك لله، وكان برنامجنا اليومي زيارة: مركز شركة جنرال موترز G.M. (General Motors) - على حسب اتفاقنا معها، وتعتبر هذه الشركة ومصانعها من أكبر المصانع لإنتاج السيارات في العالم، ولها ما يقرب من مائة فرع في الولايات المتحدة، أما مراكز بيع منتوجاتها ففي كل مدينة رئيسية، وتتبعها شركات كثيرة بأسماء أخرى، والمركز الرئيسي لإجراء التجارب والأبحاث العلمية مقره في هذه المدينة.

وفي الحرب العالمية الثانية أوقفت هذه الشركة جميع إنتاجها المدني وكرست جميع قواها للإنتاج الحربي من دبابات ومصفحات وغيرها من الآلات الحربية. ولم تعد إلى نشاطها المدني إلا بعد عدة أشهر من انتهاء الحرب.

إلى مقر شركة جنرال موترز:

كان الأستاذ جميل ياسين فطاني عرف رقم الأوتوبيس الذي يتوجه إلى ناحية هذه الشركة، فانتظرناه في الموقف حتى جاء وتوجهنا فيه لكن إلي ناحية أخرى معاكسة للجهة التي كنا نسلكها للوصول إلى مدينة ديترويت.. والجهة التي سار إليها الأوتوبيس كلها أراض زراعية وبيوتها صغيرة منسقة ومعظم سكانها زنوج، وقد امتلأت مقاعد الأوتوبيس بهم وبهن، وكلما نزلت أمة صعدت أخرى..

وبعد أن توغل الأوتوبيس في خط سيره داخل الأحياء الشعبية حيث يقطن كثير من عمال الشركات والمصانع من الزنوج وغيرهم كثرت مواقفه ووقفاته، وانتهي بنا السير إلى نقطة يعود منها فى الأوتبيس إلى حيث بدأ السير منه، وقال لنا السائق: انتظروا هنا أوتوبيس رقم كذا فهو الذى يوصلكم إلى حيّ شركة جنرال موترز. فوقفنا لحظات لا لحظة واحدة، وكانت البقعة التي وقفنا فيها تشبه إلى حد كبير بعض الجهات في بلادنا من حيث المنظر، ولطول الوقفة كنت أتناسى أنني في الولايات المتحدة، بل كنت أظن أنني واقف على بعض الطرق الزراعية في المنطقة الشرقية.. وسيارات النقل لا تقف حركتها عن الخط..

وجاء أتوبيس رقم (كذا) فركبنا، وكان أفخم من الأتوبيس الذى دار بنا في الأحياء الشعبية وبعد أن سار بنا في الأراضي الزراعية مسافة غير قصيرة دخلنا منطقة صناعية عرفناها بكثرة ما بها من المداخن وسحب الدخان تملأ فضاء تلك المنطقة وكلما تقدمنا شاهدنا العمارات الضخمة، وأخذت الميادين تكبر وتكثر، وازدادت حركة السيارات، أما المشاة فيعدون على الأصابع..

ووقف الأتوبيس في منطقة تبدو لاتساعها كأنها مدينة.. وأشار لنا السائق إلى أربع عمارات ضخمة شاهقة وقال هذه هي عمارات شركة چنرال موترز..

المكتب الرئيسى:

سألنا حارساً يقف على العمارة الأولي عن المكتب الرئيسي، فأشار إلى الباب الذى نحن عنده، فدخلنا ومشينا فى ممر كأنه النفق لطوله. وأدى بنا هذا الممر إلى صالة واسعة إحدى غرفها كتب عليها (الاستعلامات) فدخلهاالأستاذ الفطاني وسأل من بها عن السيدة التى كلمته وارتبطت معه بوعد لزيارة المركز، فخرج معه خادم وأخذنا إلى صالة أخرى بها عدة

مصاعد، وأبوابها كأبواب الغرف، وصعد بنا الخادم إلى الدور العاشر ـ فيما أظن ـ ثم خرجنا وطرق الخادم علي غرفة حيث استقبلتنا السيدة صاحبة الشأن، وتكلم معها الأستاذ الفطاني، ولما عرفت قصدنا من زيارة المركز أخذتنا إلى مصعد آخر، وعرجنا به إلى الطابق الرابع عشر، ثم دخلنا غرفة استقبلنا فيها رجل ـ عرفنا فيما بعد من بطاقته أنه مدير مكتب العلاقات والزوار في القسم الخاص للعمليات التجارية لما وراء البحار واسمه السيد ليو. س. هنتز

ـ ١٩ ـ

استقبلنا السيد ليو. س. هنتز مدير مكتب العلاقات والزوار في القسم الخاص للعمليات التجارية لما وراء البحار بكل لطف وترحاب، وطلب لنا القهوة، ولما عرف أننا من البلاد العربية السعودية فرح وأبدى سروره أكثر وقال: إنه يعرفها حق المعرفة لوجود شركة (أرامكو) في المنطقة الشرقية منها.. ثم عرض عليه الأستاذ جميل فطاني رغبة فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ في زيارة بعض مصانع السيارات التابعة للشركة.. وهنا بدا علي وجهه نوع من التغير وأبدى أسفه الشديد لعدم تمكنه في الوقت الحاضر من تنفيذ هذه الرغبة معتذراً أن المصانع التابعة لشركتهم كلها تعمل الآن في وضع تصميمات لإخراج نماذج جديدة من السيارات (أى موديلات جديدة) وهذه الفترة تعد من أصعب الفترات بالنسبة إلي شركات السيارات، وكل شركة تعمل في سر وخفاء تام.. ولا يسمح لمخلوق بزيارة مصانعها ومعاملها في هذه الفترة خشية أن تتسرب المعلومات والتصميمات إلي شركات أخرى.

ومع اعتذاره وتأسفه أبدى استعداده لتنظيم جولة ــ إذا شاء فضيلة الشيخ ــ علي مستودعات الشركة ومخازنها.. مع رجائه أن يعيد فضيلة الشيخ زيارة الشركة في فرصة أخرى ــ أى بعد شهر تقريباً ــ ليتمكن من استجابة طلبه وتنفيذ رغبته..

فشكره فضيلة الشيخ محمد على لطفه هذا، واعتذر له عن زيارة المستودعات والمخازن ومبدياً تمنياته الطيبة، وأنه إذا وجد فرصة أخرى للزيارة فلا يتأخر...

ولم يكن الرجل ـ في أثناء حديثه معنا ـ ينقطع عن المكالمات التليفونية من عدة تليفونات على مكتبه. واستأذنه فضيلة الشيخ فقام الرجل وودعنا إلي باب المصعد مكرراً أسفه علي كونه لم يتمكن من تنفيذ رغبتنا..

ونزلنا من المصعد إلى مصعد آخر حتى وصلنا النهاية وخرجنا من العمارة.

وقفة أمام عمارات الشركة:

وقفنا في الجانب الآخر من الشارع أمام عمارات هذه الشركة أى شركة جنرال موترز) (General Motor's) وهي أربع عمارات ضخمة وشاهقة، وكل عمارة مكونة من ست عشرة طبقة وفي كل طبقة (١٨٠) نافذة أو (٩٠) غرفة إذا فرضنا نافذتين لكل غرفة، لأن الغرف التي دخلناها لم يكن بها غير نافذتين.. وإذا ضربنا (٩٠×١٦ صار الناتج (١٤٤٠) غرفة أى أن كل عمارة بها هذا العدد من الغرف، وإذا ضربنا هذا العدد في أربعة (عدد العمارات) كان الناتج (٥٧٦٠) غرفة ولو فرضنا أن في كل غرفة شخصين أو موظفين كان مجموع الموظفين الذين يعملون في هذه العمارات الأربع تقريباً هو (١١٥٢٠) موظفاً وموظفة.. لقد أجرينا هذه العملية الحسابية على الطريقة الأوربية ونحن واقفون أمام هذه العمارات، وكان بطل هذه العملية الحسابية وعدّ النوافذ هو الأستاذ الفطاني..

وبانتهاء زيارتنا لمقر شركة (جنرال موترز) قرر فضيلة الشيخ إنهاء زيارة مدينة ديترويت، وفكر في زيارة شلالات نياجرا (Nigra Falls) لاقترابنا منها وفي رؤية أراضى كندا.

وكانت المنطقة التي كنا فيها جميلة جداً من حيث المناظر واتساع الأراضي، فاستحسن الشيخ لزيادة الاستمتاع بها أن نتناول الغداء في أحد مطاعمها الجميلة ولم نتقدم قليلاً عن موقفنا إلا ووقفنا أمام مطعم جميل من حيث موقعه ومناظره وأماكنه وهدوئه، فجلسنا على مائدة فى الهواء الطلق

لتناول الفطور أو الغداء وكان ما قدم لنا يتكون من ثلاث بيضات وقليل من الزبد والمربة، وشرائح من الخبز، وكوب من الشاى أو القهوة وكلفت هذه الوجبة (٤٠) دولاراً.. وكانت أرخص (وجبة)..

إلي موتلنا بديربورن: (Dearborn)

ومن المطعم بعد تناول الفطور أو الغداء عدنا إلى (الموتل) واتصل الأستاذ الفطاني بصاحبته أى صاحبة الموتل العجوز وأخبرها بانتهاء إقامتنا، وأننا سنغادر موتلها بعد دقائق، فتمنت لنا رحلة موفقة ثم طلبت لنا (تاكسياً) تلفونياً..

إلي مطار ديترويت:

وتوجهنا إلي المطار، مطار ديترويت مع حقائبنا قائلين لصاحبة الموتل ولمدينة ديترويت (الوداع).

وبمجرد وصولنا إلي المطار ذهب الأستاذ جميل فطاني إلي الموظف المختص بقطع التذاكر وقطع ثلاث تذاكر إلي مدينة (بفلو) (Buffalo) الشمالية.

وكانت الطائرة علي وشك القيام، وبعد جلسة قصيرة مع الركاب في صالة الانتظار أعلن عن رقم الباب الذى نخرج منه إلي الطائرة، فخرجنا من الباب وعن طريق الممر وصلنا إليها وكانت من نوع بوينج تابعة لشركة موهوك (Mohowk) الجوية، والمسافة بين مطار ديترويت ومطار بفلو (٤٠) دقيقة تقريباً.

وارتفعت الطائرة في سماء ديترويت ورأينا أراضيها الخضراء تتخللها قنوات وبحيرات ونهر ديترويت، وبينما نحن ننظر إلى الأرض الخضراء والمياه الزرقاء، ونمعن النظر إلى مناظر الأرض سمعنا المضيفة تقول: بعد كذا دقيقة سنكون في مطار (بفلو) وطلبت من الركاب ربط الأحزمة استعداداً للنزول

وبعد أربعين دقيقة كانت الطائرة تنحدر نحو المدرج ونزلنا من الطائرة بسلم صغير اندفع من الطائرة نفسها ومطار (بفلو) مطار كبير أوإن الطائرة لأنها صغيرة جعلتنا نرى الأرض والمطار كبيراً..

برنامج الرحلة في بفلو:

وكان المقصود من رحلتنا إلى هذه المدينة أن نذهب إلى شلالات نياجرا، وبعد مشاهدتها وقضاء ساعة عندها نعود إلى المطار لنتوجه منه إلى (واشنطن) رأساً..

ولذلك وقفنا عند لوحة الرحلات الجوية التي يعلن عنها المطار يومياً، للبحث عن طائرة متوجهة إلى واشنطن.

فوجدنا آخر رحلة في هذا اليوم كانت إلى واشنطن لطائرة من طائرات الخطوط الجوية للولايات المتحدة، فاتصل الأستاذ الفطاني بمدير مكتب الشركة وسجل الأسماء ضمن ركاب هذه الرحلة، ووضعنا الحقائب بقسم الودائع في مكتب الشركة لنكون خفيفين في رحلتنا إلى الشلالات.

دقة الحسابات في شركات الخطوط الجوية:

كانت تذاكرنا من شيكاغو إلى ديترويت على شركة (تي ــ دبليو ــ اى) ولم نجد عندها طائرة متوجهة إلى ديترويت فأبدلها موظف الشركة على شركة (موهوك) الجوية والتي تعمل داخل الولايات المتحدة، وعند قطع التذاكر وجد فرقاً بين قيمة التذاكر أى أن تذكرة شركة (موهوك) كانت أقل من قيمة تذكرة (تي-دبليو-اى) فاتصل الموظف في الحال بالتلفون من شيكاغو إلى نيويورك حيث مكتب الشركة الرئيسي وأخبره بالفرق ليدفعه لمن قطع لنا التذاكر في أول الأمر.. وكل ذلك من تلقاء نفسه ومن غير أن يراجعه أحد في ذلك.

المعاملة الحسنة:

ومما لاحظته أيضاً في مطار ديترويت أن موظفيه وموظفاته كانت معاملتهم مع الناس والمسافرين والمراجعين جد حسنة، وفي غاية من اللطف، ولا أدرى أكان ذلك من باب المصادفة أم هي عادتهم دائماً، وقد رأيت أمام كل موظف وموظفة بعد وصولنا نفراً من المراجعين كل منهم يسأل عن شيء يخصه في السفر أوعن المواعيد ولم يكن أحد من أولئك المسئولين أوالمسئولات يبدى ضيقاً أوانزعاجاً للتفاهم أوترسله إلى مكتب الاستعلامات..

ـ ٢٠ ـ

إلي شلالات نياجرا:

فكرنا في أسرع وسيلة توصلنا إلي الشلالات، وترددنا في الأمر قليلاً: هل نركب القطار أونذهب في أوتوبيس، أونأخذ سيارة صغيرة بالأجرة ... ؟

وهنا استحسن الأستاذ جميل فطانى أن يسترشد بأحد موظفي المطار (مطار بفلو) فسأل موظفة من الموظفات وكانت على علم أننا حاجزون للسفر إلى واشنطن في اليوم نفسه، أى في آخر طائرة تقوم من (بفلو) إلى واشنطن. فأشارت علينا أن نأخذ تاكسياً كسباً للوقت، وذكرت لنا اسم إنسان في الجانب الآخر من المطار وقالت: بأنه خير من يساعدكم في البحث عن سيارة مناسبة وسائق متمرن علي هذه الطرق، ولما رأتنا غرباء عن البلاد ومن زوارها، أدركت أننا سنتعب في البحث عن هذا الرجل الذى أرشدتنا إليه، فتركت مكتبها ودفاترها وخرجت معنا للبحث عن الرجل، وسألت بعض زميلاتها عنه حتي أدركته جاءت إلينا فقالت للأستاذ الفطاني: اتفقوا مع هذا فهو يسهل لكم كل ماتريدونه من الرحلة إلي الشلالات.. ثم رجعت إلى مكتبها فشكرها الأستاذ الفطاني على هذه المساعدة، ثم تكلم مع الرجل وكان كما قالت الموظفة خبيراً بهذه الأمور، فقال بعد أن فهم قصدنا، وعرف أن جوازاتنا ليس بها إشارة للدخول إلى كندا: سأبحث لكم عن سائق يشتغل مع السياح في هذه الناحية وتتمكنون بمعيته من رؤية الشلالات من الجانب الأمريكي، والدخول إلى أراضي كندا.. وغاب عنا قليلاً ثم جاء به من غير سيارة وجمعه بنا وأفهمه قصدنا،

وتم الاتفاق معه للبقاء معنا خمس ساعات بمبلغ خمسة وعشرين دولاراً، ثم زوده الرجل بنصائح في موضوع التوسط لدى الجوازات عند الحدود ليسمحوا لنا بزيارة أراضي كندا، وكان السائق كذلك رجلاً طيب النفس لم يمانع في شيء بل كان يبدى ارتياحه لكل مانطلبه منه، ونفح فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ الوسيط مبلغاً من المال مكافأة لوساطته.

من المطار إلي مدينة بفلو نفسها:

ركبنا مع السائق في سيارته التي جاء بها من موقفها وتوكلنا على الله متوجهين إلى مدينة (بفلو) ولا تقل المسافة بين المطار والمدينة عن عشرين كيلومتراً أوأكثر. ومنذ أن بدأنا في السير نحو الشمال أخذ السائق يشرح لنا الأراضي التي نمر بها وكانت بعض أجزائها كالغابة لكثرة أشجارها الضخمة ومما قاله السائق: (ما معناه) إن أرض بفلو قديماً كانت عبارة عن غابة، وكانت موطناً للحيوان (بفلو) أى الجاموس، ويتفق كلامه مع الرواية الإنجليزية في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم. أما الرواية الفرنسية فتقول: إن كلمة (بفلو) مكونة من كلمتين فرنسيتين هما (بل) (Bell) ومعناها: طيب أوحسن، وكلمة أخرى وهي (فليو) (Fleure) ومعناها (نهر) أو(سيل) أوتدفق الماء – أى أن الكلمة كانت في الأصل (بل فليو) (Bell Fleuve) فاختصرت مع الاستعمال بـ(بفلو) وهي – أى هذه الكلمة الفرنسية – مأخوذة من منظر مياه الشلالات التي تعتبر أجمل مياه من حيث المنظر فى العالم ذكر هذه الرواية الرحالة الفرنسي (الأب هانبن) (Father Louis Hannepin) عندما زار هذه هذه الشلالات لأول مرة.

وسواء أكان هذا أصل التسمية أوكما قال السائق، فقد وصلنا المدينة في دقائق ومررنا بكنيسة تبدو عليها وعلي عمارتها آثار القدم فقال السائق: هذه أقدم كنيسة في هذه المدينة، بل وفي المدن الشمالية كلها، فقد مضي علي بنائها مايقرب من (٧٠٠) سنة وبها مكتبة يقدر عدد كتبها

(٣٦٠) ألف كتاب ثم تقدمنا وأرانا بناية المكتبة العامة للمدينة والتي وضع أساسها سنة ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) وبها الآن (٦٥٠) ألف كتاب وأشار السائق إلى قصر آخر من القصور القديمة أيضاً وقال: هذا قصر المهندس جوزيف اليكوت (Joseph Ellicott) واضع تصميم هذه المدينة سنة ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) وكان يدعي أباً لبافلو.

ومررنا بمسلة مصرية في ميدان فسألته عنها فقال: إنها تذكار للرئيس وليم ماكيلي (William Mack) الرئيس الخامس والعشرين للولايات المتحدة الذى اغتيل في هذه المدينة، وبجوار المسلة قصره الذى مات فيه..

ثم دخلنا منطقة المصانع والمعامل، فالمدينة مشهورة بكونها مركزاً هاماً للصناعة والإنتاج في الولايات المتحدة ـ بها مصانع للطائرات، ومصانع الحديد والصلب، وإنتاج المكائن والنسيج والمنتوجات البلاستكية والبترول ومشتقاته، والمعلبات والأدوية، ومطاحن للدقيق، وقد ساعد في ارتفاع مستواها الصناعي وجود القوة الكهربائية الهائلة التي تتولد من مياه الشلالات.

الحدائق العامة:

أما الحدائق العامة المنتشرة في هذه المدينة فحدث عنها ما شئت أن تحدث ومن كبرى حدائقها (حديقة دلوار) (Delaware Park) وبها بحيرة مساحتها (٤٦) فداناً تستعمل صيفاً حوضاً للسباحة وفي الشتاء تتجمد مياهها فتصبح مركزاً لهواة التزحلق.

وحديقتها للحيوان (Buffalo Zoologioal Garden) حديقة كبيرة بها (٢٥٠) حيواناً من ذوات الأثداء و(٣٠٠) نوع من الطيور و(٢٥٠) قسماً من الزواحف.

ويقدر الخبراء الأشجار التي غرست في شوارع بفلو وحدائقها العامة (٣٥٠٠٠٠) شجرة وهي غير الأشجار الموجودة في الأراضي المملوكة للناس أوهي ملك للحكومة.

ولها سواحل على البحيرات يقدر طولها (٢٧) ميلاً وموانئها لا تقف لحظة عن حركة الصادرات والواردات بواسطة بواخر البحيرات، وتوزع الواردات من البضائع والحبوب إلى داخل الولايات المتحدة بواسطة القطارات، فالمدينة ملتقى هام لشبكة القطارات في الولايات المتحدة.

ومن تاريخ هذه المدينة: أن أول من قدم إلى هذه الأرض تاجر فرنسي سنة ١٧٥٨م (١١٧٢هـ) وأقام بها كوخاً اتخذه مقراً لتجارة الفراء، ثم جاءت جماعة من الهنود الحمر ونزلوا بها واتخذوها قرية لهم وأطلقوا عليها اسم (بفلو) ثم تقدمت إليها جماعة من الهولنديين وخططوا أرضها كمدينة وسموها (نيوامستردام) (New Amasterdam) سنة ١٧٩٠م (١٢٠٥هـ) ولكن السكان الذين كانوا بها تمسكوا باسمها القديم (بفلو) الذى اشتهرت به، وسجل هذا الاسم في التخطيط الذى تم سنة ١٨١٦م (١٢٣٢هـ)، وبعد ثلاث سنوات من هذا التخطيط تعرضت لهجوم من جانب الإنجليز، واحترقت في أثناء الحرب، ثم أعيد بناؤها ونمت بعدها نمواً كبيراً لا سيما بعد فتح قناة ايرى بين بحيرة ايرى وبحيرة انتاريو الكندية.

ومن مميزات هذه المدينة أن آلة حمل الأثقال البخارية «الونش» (العفريتة البخارية) تم اختراعها وابتكارها فيها سنة ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ).

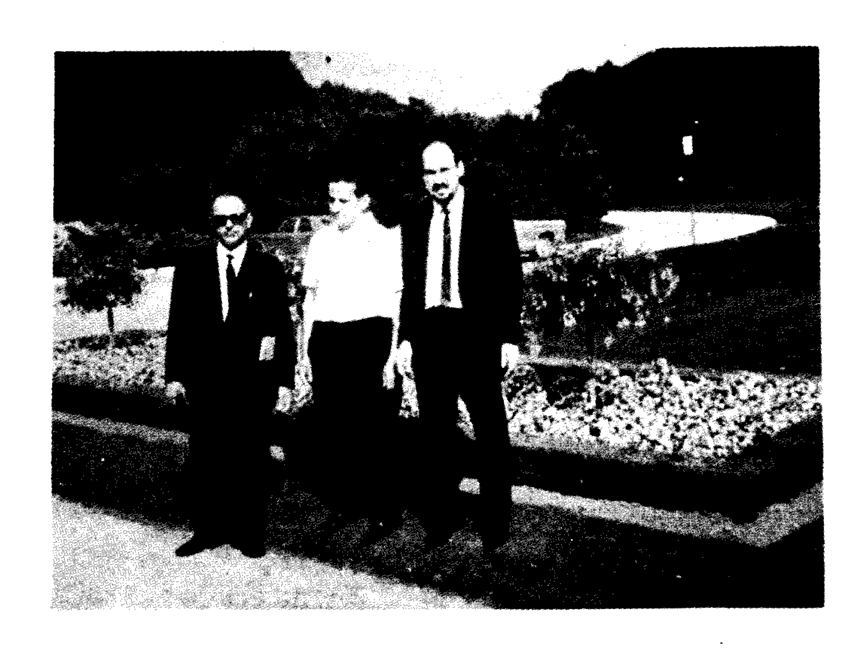
إلي كندا: (CANADA)

وبعد أن تجولنا في معظم شوارع بفلو الرئيسية توجهنا نحو الحدود الكندية والمسافة قصيرة بين مدينة بفلو ومنطقة الشلالات.

ـ ٢١ ـ

في أراضي كندا:

وكانت الأرض التي نسير فيها بالسيارة كأنها مكسوة بخمائل خضر تمتد على أحد جانبيها عمارات شامخة من الطراز الأوربي القديم، كأنها قصور تاريخية، وفي الجانب الثاني وهو الجانب الأيسر بالنسبة إلينا مساحات واسعة لا يحدّها البصر وكلها مخضرة عاشبة تزيد جمالها أزهار على ألوان مختلفة، تقسم تلك الأراضي إلى أشكال هندسية رائعة.



وظل السائق يسير في هذه الأراضي حتى وصلنا إلى حديقة التبليد (Botanical Garden) (الحديقة التي يعود فيها النبات الغريب مناخ البلاد) بها قسم خاص لأزهار العالم أى من جميع المناطق الجغرافية الاستوائية والمعتدلة والباردة والمتجمدة، وهذا القسم داخل أماكن محجوزة بحواجز من الزجاج، ولكل منطقة جوها الطبيعي بواسطة أجهزة التكييف كما يرى الإنسان موازين الحرارة (سنتيغراد) معلقة عند مدخل كل جناح، ووجدنا بعض شجيرات تشبه شجيرات بلادنا وحرارة هذا القسم ذكرتنا بحرارة أرضنا مع رطوبتها..

ساعة ضخمة من الزهور:

وبعد جولة خاطفة في هذه الحديقة مع مئات السائحين والسائحات خرجنا لرؤية الساعة المرسومة أرقامها بأنواع من الورد والرياحين الحمر فوق أكمة مكسوة بالعشب الرطيب، ولاتساع قطر دائرتها، وطول عقاربها تبدو من مسافات بعيدة وتدار عقاربها بقوة جريان الماء من تحت الأعشاب.. وهي تشبه في شكلها الساعات الموجودة فى بعض حدائق باريس وسويسرا... وإلى هنا انتهت جولتنا على الأقدام ثم ركبنا السيارة وجئنا إلي منطقة الشلالات (شلالات نياجرا الكندية) حيث وقفنا مأخوذين مع مئات من السياح بمشاهدة عظمة آيات الله وعجائب مخلوقاته في هذه الكميات الهائلة من المياه العذبة العظيمة المتدفقة من مسافات بعيدة، ثم تندفع بقوة في شكل نصف دائرة (أو على تعبير القوم حدوة حصان) وتنزل كالقطن المندوف المتطاير إلي عمق سبعة وستين ومائة من الأقدام ــ كان فضيلة الشيخ محمد يشاهد هذه المناظر ويردد قوله تعالى: **(صُنْعَ اللهِ الّذى أتْقن كلّ شيء إنه خبيرٌ بما تعْملونَ)** وقوله تعالي: **(أنزلَ مِنَ السماء ماءً فَسالت أوْديةٌ بقَدرِها)...**

وقلت لفضيلته: إن الخبراء يقولون: إن هذه المياه العظيمة ستنفد بعد عشرين ألف سنة.

فقال فضيلته: وذلك تصديق لقوله تعالى: **(ما عندكم ينفد وما عند الله باق..)** ويقدر الخبراء أن الكميات التي تنحدر من مياه نهر نياجرا إلي هذه الشلالات من ناحية كندا تقدر بـ(٩٥٪) وخمسة في المائة منها تنزل إلي الشلالات من ناحية الولايات المتحدة..

أما سرعة اندفاع مياه هذا النهر فيقدر بخمسمائة ألف طن في الدقيقة الواحدة. ويجرى نهر نياجرا هذا من الغرب إلى الشرق في مجرى واحد، ثم يتفرع قبل الشلالات إلى فرعين فرع ينحدر إلي أرض الولايات المتحدة، والفرع الكبير يتجه إلى أراضي كندا ويصب من علو (١٥٨) قدماً، وعرض علي شكل نصف دائرة مساحته (٢٥٠٠) قدم.

وعند اجتماع مياه الشلالين تتكون في مجرى النهر من شدة الجريات دوّامة، وهي كذلك تعد من المناظر العجيبة الغريبة.

ولمشاهدة هذه الدوامة من أعلاها، رؤية تضارب الأمواج بعضها مع بعض أنشئت عربة كهربائية تسير وهي معلقة بأسلاك من الصلب من جهة إلي أخرى يركبها السياح للمرور من فوق نقطة الدوامة ورؤيتها من قرب، ولكن العربة وهي معلقة في الأسلاك شيء مخيف..

ولم نجرأ للركوب فيها بالرغم من أن السائق أراد أن يأخذنا إليها، واكتفينا بمشاهدتها من بعد، ومن مكاننا وقال فضيلة الشيخ: (يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق).

إنارة الشلالات بألوان زاهية مختلفة:

وثم مولدات كهربائية قوية خاصة لإضاءة مياه الشلالات بأنوار ملونة زاهية ليلا، وخصصت لهذه المهمة عشرون مصباحاً قطر كل مصباح (٣٦) بوصة ومجموع قوتها الضوئية (٢١٠) مليون شمعة.

المياه التي يستفاد منها:

وقد قدر الخبراء أن الكمية التي يستفاد منها من مياه الشلالات في الناحية الأمريكية بـ(٢٠) ألفا من الأقدام المكعبة في الثانية الواحدة، وفي الناحية الكندية تقدر هذه الكمية بـ(٣٦٠٠٠) قدم مكعب في الثانية.

القوة الكهربائية:

وتقدر القوة الكهربائية التي تستخرج من جريان هذه المياه العظيمة واندفاعها في الجانبين بـ(١,٤٤٢,٨٥٠) حصاناً.

إلي النفق العلمي:

وبعد أن اعتذرنا للسائق عن الركوب في الحوامة الكهربائية المعلقة بين السماء والدوامة النهرية بأمراس من الصلب أخذنا إلي هذا النفق العلمي — أى أنه ليس نفقاً لمرور السيارات بل هو نفق للأغراض العلمية، ينزل منه إلي قاع الشلالات حيث تصطدم المياه النازلة بجنادل عظيمة في مجرى النهر..

وبعد أن قطعنا تذاكر للدخول دخلنا باباً صغيراً يمتد من بعده ممر، ثم انحدرنا بواسطة الدرج إلي صالة منخفضة عن سطح الأرض بعدة أمتار، ثم نزلنا كذلك بواسطة ممر شبه مظلم إلي صالة أخرى حيث قُدِّم لكل داخل معطف طويل يشبه البرنس المغربي، من البلاستيك الأسود الثقيل مبطن بطبقة من الإسفنج ضد الماء والبرد، كما نزعنا أحذيتنا ولبسنا جوارب سوداء من البلاستيك، (جورب وحذاء مع بعض كالذى يستعمله إخواننا البخارية في زمن الشتاء) وتصل هذه الجوارب إلي ما فوق الركبة، وغدا كل واحد منا وكل من معنا في النفق كرواد الفضاء، أوالذين نزلوا على القمر، ثم مشينا وكأننا (كتيبة من البعابع) في ممر لا يدخله النور إلا من كوات صغيرة عليها غطاء زجاجي سميك في غاية من الحذر والاحتياط خشية الزلق بين ضحكات النساء وصيحات الصغار، ولم يكن يبدو من الإنسان

إلا وجهه، وانتهي بنا السير إلى مصعد (أوهو مِنْزَل أى آلة للنزول) ودخلناه وعددنا يقرب من الثلاثين أويزيد، ونزل بنا المِنزل في ثوان إلى أكثر من ٢٠ متراً تقريباً، ثم خرجنا إلى صالة زجاجية ومنها تقدمنا إلى صالات مفتوحة في قاع الشلالات، أى عند مجرى نهر نياجرا من بعد الشلالات. وشاهدنا نزول المياه العظيمة، وكأنها العهن المنفوش دويها يصم الآذان والرياح قوية وباردة كالثلج، لولا هذه الثياب الواقية لما تمكنا من الوقوف لحظة في هذا المكان، وبالرغم من أننا بقينا في مؤخر الصالة المكشوفة تعرضنا لكميات كبيرة من المياه النازلة، وإذا تحركت الرياح نحونا فكأننا تحت وابل من الصيب، واضطررت إلى نزع (نظارتي) لأن المياه النازلة علينا وعلي نظارتي حجبت عني الرؤية..



وبعد وقفة قصيرة في هذا الجو الغريب عند قاع الشلالات، صعدنا مع رفاقنا إلى الصالة التي لبسنا فيها هذه الثياب الواقية، فنزعناها ثم خرجنا إلي النقطة التى دخلنا منها إلى هذا النفق.

ووقفنا مع مئات الواقفين عند مرتفع من الأرض المعشوشبة والمحجوزة بسياج من حديد مستمتعين بمشاهدة هذه المناظر الرائعة والتي لا مثيل لها في العالم، ولولا ضيق الوقت وكونه بالنسبة إلينا محدوداً لأطلنا الوقفة... ولكن الظروف حكمت بأن نبدأ في العودة إلي الولايات المتحدة ــ وسار بنا السائق نحو الأرض الأمريكية أو إلى حدود الولايات المتحدة وسلك طريقاً غير الذى سلك بنا في الذهاب، فمر بمحطات توليد القوى الكهربائية، وبالبرج القائم علي جانب من نهر نياجرا، ويرتفع عن سطح الأرض (٥٠٠) قدم وبرج آخر مشيد علي أعمدة من الصلب، وبرج ثالث يعتبر برجاً دولياً، وكل هذه الأبراج تعلوها مقاصف ومطاعم يصعد إليها السياح لقضاء ساعات في مشاهدة هذه المناظر الخلابة، ومربنا بمطار صغير لعدد من الطائرات (هليوكوبتر) يركبها السياح للتحليق فوق مياه الشلالات، ونهر نياجرا، وبقلعة فرنسية قديمة، وقلعة أخرى ولا تزال المدافع القديمة منصوبة علي عجلات خشبية كبيرة بجوار هذه القلاع، ومررنا بالبوابة التاريخية، ومنها إلي مركز الحدود الكندية حيث أعدنا أوراق المرور التي كنا نحملها..

وكنا في حاجة ماسة إلي العشاء فدخلنا مطعماً (كافيتريا) فتقدم فضيلة الشيخ محمد ومن ورائه الأستاذ جميل ياسين الفطاني، ومن بعده كاتب السطور، وكان الأستاذ الفطاني يرشدني ويرشد الشيخ إلي الخطوات التي نتبعها، وتناولنا الشاى كذلك في هذا المكان، وكان السائق معنا. وكان بجانب (الكافتيريا) معرض للتحف والهدايا، فاشترى الأستاذ جميل الفطاني بعض هدايا لصغاره، ومن ثم عدنا إلي مطار مدينة (بفلو) الذى بدأنا منه الرحلة إلي الشلالات وكندا.. حيث جلسنا في صالة الانتظار لقيام الطائرة التابعة لشركة الولايات المتحدة للطيران إلى عاصمة الولايات المتحدة واشنطن...

ـ ٢٢ ـ

إلى واشنطن العاصمة :

جلسنا في صالة المسافرين في مطار مدينة (بفلو) انتظاراً لقيام الطائرة النفاثة التابعة لشركة الولايات المتحدة الأمريكية للخطوط الجوية (U.S. Air Lines)، وكان ميعاد توجهها إلى واشنطن الساعة الثامنة أى مايقرب من ($٢\frac{١}{٢}$) ليلا بتوقيت مكة الغروبي، ولا يعرف الإنسان داخل مكاتب المطارات النهار من الليل إلا بالساعة.

وكانت أحاديثنا كلها عن شلالات نياجرا، وما شاهدنا بها من العجائب والغرائب وأراضي كندا الخضراء ومياهها العظيمة..

المغادرة :

ونودى من مكبرات الصوت على المتوجهين إلى واشنطن أن يخرجوا من باب كذا فخرجنا مع الخارجين وركبنا الطائرة، وكانت من نوع صغير فامتلأت مقاعدها بسرعة، وفي الموعد المحدد لها بالثواني تحركت وارتفعت في الجو، فشاهدنا أنوار مدينة (بفلو) وهي تتلألأ على مدى البصر، وعند دائرة الأفق تتصل الأنوار بنجوم السماء..

وبعد أن ابتعدنا عن سماء (بفلو) بدت لنا أنوار مدن أخرى، وكانت السحب تحول دون الرؤية أحياناً، ولم تمض أربعون دقيقة لمغادرتنا مطار بفلو إلا وأعلنت المضيفة للركاب بربط الأحزمة استعداداً للنزول في مطار واشنطن الدولي. وفي دقائق معدودات نزلت الطائرة إلى أرض المطار بكل

لطف واتزان، وكان نزولها على مدرج بعيد عن بقية المدرجات. ومن الطائرة دخلنا إلى الصالة التي نتسلم فيها الحقائب.

الاتصال بالفنادق:

وبجوار هذه الصالة صالة أخرى واسعة فيها قسم خاص لعدد من التليفونات كل تليفون متصل بأحد الفنادق المشهورة، وتحت كل تليفون زر إذا ضغط عليه الإنسان سقطت له بطاقة من فوق الزر بها وصف تام للفندق وعنوانه ومميزاته وموقعه. فاتصل الأستاذ جميل ياسين الفطاني بعدة فنادق من تلك الفنادق، وكان كل من يرد عليه يسأله أولاً: (هل حجزتم عندنا من قبل؟) أو (منذ كم يوم حجزتم عندنا؟) فإذا نفى الأستاذ جميل ذلك — قال له المتكلم: نأسف لعدم وجود غرفة خالية..

ثم ذهب إلي مكتب آخر وأخذ دليل الفنادق من إحدى الموظفات، واتصل بعدد آخر من الفنادق على اختلاف درجاتها، وكان رد كل واحد منهم لا يختلف عن رد أولئك المتقدمين..

ورأتنا الموظفة في شبه انزعاج فقالت للأستاذ جميل الفطاني أن يتصل بفندق (هارنجتون) (Harrington H.) فاتصل بمديرته وشرح لها أننا نريد محلاً للمبيت فقط.. وقد عرفت مديرة الفندق بكلام الأستاذ الفطاني أننا سياح ولسنا وفوداً أومندوبين لشركة من الشركات فقالت: تعالوا ونحن ندبر لكم محلاً مناسباً.

الدخول إلى واشنطن:

وفي الحال ركبنا تاكسياً ودخلنا العاصمة من جنوبها، لأن المطار في جنوب المدينة وعبرنا نهر (بوتماك) (Potomac) من فوق جسر عظيم عريض لا يدرك المار من فوقه أنه يمر بجسر، بل يظن أنه يقطع شارعاً كبيراً من الشوارع لا تساعه، ولكثرة حركة المرور والمواصلات الذاهبة والآيبة فوقه،

تم مررنا بحدائق (بوتماك) الشرقية العامة إلى الشارع الثاني عشر الممتد شمالاً إلى عدة كيلو مترات ، ومن كثرة أنواره يكاد يبدو شعلة من نور.. وفي منتصف الشارع وقف السائق أمام عمارة ضخمة شامخة ، وكأنها كتلة من النور من الأضواء التي تشع من نوافذها التي لا تعد ، وقال السائق : هذا هو فندق هانجتون (Harrington) الذى تريدونه .

وذهب فضيلة الشيخ محمد مع الأستاذ الفطاني إلى إدارة الفندق حيث تقابلا مع المديرة وقال لها الأستاذ الفطاني : إنه اتصل بها قبل لحظة تلفونياً فعرفته وقالت : من الصعب جداً في هذه الأيام أن يجد القادم إلى واشنطن أماكن في الفنادق المشهورة من غير حجز سابق ، لأن المدينة في هذه الأيام مزدحمة بالوفود والمندوبين القادمين إليها من جميع الولايات الأمريكية للاشتراك في عشرات المؤتمرات الداخلية .. وسأهيئ لكم محلاً بثلاثة سرر.. وأشارت علينا أن ننتظر في بهو الفندق ريثما يتم إعداد المحل — وفي الحال أمرت رئيس الحركة بإعداد المكان بثلاثة سرر وجلسنا في البهو وهو برغم اتساعه كان مزدحماً من كثرة الداخلين والخارجين والجالسين للتحدث أو للانتظار أو لجمع الحواس ، أو لقراءة الجرائد اليومية المسائية كل في فلكه دائر.

وفي أقل من خمس عشرة دقيقة أرسلت لنا خادمين حملا معنا الحقائب ، ثم ذهبا بنا إلى المصعد الذى ارتفع بنا إلى القمة أى آخر طابق في الفندق وهو على ما أعتقد الطابق الثاني عشر، حيث فتح لنا باب صالون كبير وقال هنا تبيتون .. وكان مهيئاً بثلاثة سرر، بين كل سرير وسرير مسافة لا تقل عن مترين ، فارتاح كل منا في سريره وحديثنا كله حول حقيقة هذه الصالة وما أصلها ؟ وهل هي صالة للطعام أو حلبة للرقص ، أو محل للاجتماع أو مستودع ، ولم تكن الأحاديث تخلو من تعليقات مضحكة وفي النهاية قال فضيلة الشيخ محمد : لنترك البحث عن حقيقة الصالة ولنحمد الله على أن سخر الله لنا هذه العجوز مديرة الفندق ، وهيأت لنا مكاناً محترماً للمبيت

نقضي فيه ليلتنا مرتاحين، ولو لم نجد هذا المكان لاضطررنا لمواصلة الرحلة إلي نيويورك.. ولنفكر الآن في العشاء... قبل أن يقوى علينا سلطان النوم فننام طاوين.

وبناء عليه نزلنا بهو الفندق، وأخذنا من مكتب الاستعلامات التابع للفندق بطاقة العنوان، ثم خرجنا إلى الشارع وكان ــ برغم تأخر الوقت ومضي الهزيع الأول من الليل ــ مزدحماً بمختلف المواصلات والمشاة، وكل يجرى بسرعة وقوة وكأنه على موعد يخشى فواته.

مشينا في الشارع الثاني عشر رويداً رويداً على خلاف طريقة القوم حتى وصلنا إلى عمارة (ايفننج استار) (Evening Star) أي نجمة المساء، ودخلنا هناك مطعماً وكان عبارة عن مقصف لا ينقطع رواده، ولكنهم في هدوء وسكون لا تسمع لهم إلا همساً ولم يكن شيء مزعجاً بالنسبة إلينا إلا موسيقى الجاز..

ومكثنا في المطعم ما يقرب من ثلاثين دقيقة، ثم عدنا إلي الفندق ولم يكن ثمة مجال للحديث أوالسمر، فاندفع كل منا إلى سريره ونام متدثراً (بالبطانيات) لبرودة الجو.

جولة صباحية:

واتصل الأستاذ الفطاني من صباح يوم الأربعاء ٢٧/٥/١٣٨٨ الموافق لـ٢٧/٨/١٩٦٨ بشركة تنظيم الجولات علي أهم معالم المدينة، واتفق معها علي جولة تستغرق أربع ساعات مقابل تذكرة لكل مشترك.

بدء الجولة:

وفى الساعة العاشرة بالتوقيت المحلى لمدينة واشنطن ــ أي قبل الظهر بساعتين تقريباً ــ جاء مندوب الشركة وكنا فى انتظاره فى بهو الفندق مع غيرنا من نزلاء الفندق السائحين والسائحات وكلهم من أوربا وأستراليا..

وأخذنا إلى مركز الشركة على الأقدام، ولم يكن بعيداً عن الفندق، ومن ثم ركبنا في أتوبيسات فخمة، وفي كل أتوبيس مكرفون ومكبر للصوت، ويقوم مندوب الشركة بشرح كل ما تقع عليه العين في أثناء الجولة.. وسار الأتوبيس نحو الشمال في الشارع الثاني عشر، ثم انعطف إلى الغرب إلى ميدان (لا فيت) Lafayett وحدائقه.

نقطة التجمع:

كان هذا الميدان بمثابة نقطة التجمع لأوتوبيسات هذه الشركة التي جاءت من جهات مختلفة، وبعد أن اجتمعت قام موظفو الشركة في تنظيم برنامج الجولات لأنها تختلف على حسب رغبات المتجولين، فجولة لأربع ساعات، وجولة لست ساعات، وجولة ليوم كامل مع تناول الغداء وخصصت لكل جماعة أتوبيسات.. فركبنا في الأتوبيس (أبوأربع ساعات).. وسرعان ما امتلأت مقاعده من السائحين..

وسار المركب البري رويداً رويداً كما بدأ مندوب الشركة في أداء مهمته بشرح كل ما نمر به من الشوارع والعمارات الضخمة والميادين والتماثيل.. أما إذا مر بأحد المعالم المشهورة وقف لحظة لإتمام الشرح..

ثم دخل الشارع الرابع عشر وتوجه نحو عمارات خزينة الدولة أي خزينة الولايات المتحدة Treasury Department وكأنه ـ أي مندوب الشركة أراد أن يبهر عيون السائحين وعقولهم بثروة الولايات المتحدة الهائلة.

مطابع النقود والطوابع: Bureau of Engruving & Primting

واستمر الأتوبيس في اجتياز الشارع الرابع عشر ماراً بميدان توماس Thomas وفندق (امباسادور) Ambassador الكبير، وميدان فرانكلين، Francline وبالإدارة العامة للبرق والبريد P.O. حتى وصلنا مباني مطابع النقود والطوابع والسندات المالية التابعة لخزينة الدولة.. ووقف

الأتوبيس ونزلنا مع المرشد لزيارة المطابع من الداخل ولنقر أعيننا برؤية ملايين الدولارات من بعد، ومن وراء حواجز سميكة زجاجية شفافة ـ والمطابع عبارة عن عدة عمارات كبيرة متداخلة بعضها فى بعض بممرات طويلة.

تاريخ هذه المطابع:

يرجع تاريخ تأسيس هذه المطابع إلى سنة ١٨٦٢م (١٢٧١هـ) ومن قبلها كانت مطبعة صغيرة تدار باليد فى نفق أو قبو تحت عمارة الخزينة، حيث لا يصلها نور الشمس، وكان الذين يديرون هذا العمل رجلان تساعدهما أربع نسوة ولم تكن المطبعة تخرج غير دولارات من فئة دولار واحد ودولارين.

ثم نمت هذه المطبعة نمواً مطرداً وتحولت إلى مؤسسة كمدينة يعمل فيها (٣٠٠٠) عامل وتشغل أرضا مساحتها (٣٥) فدانا.

وتطبع الأن فى هذه المطابع غير النقود والطوابع البريدية ثمانمائة نوع من الأوراق كأوراق السندات والشهادات على جميع أنواعها والصكوك..وتطبع من النقد ما قيمته اثنا عشر بليونا من الدولارات أي بمعدل (٩) ملايين دولار يوميا تقريباً، وتستعمل (٤٥٠٠) طن من الورق المخصوص و (١٢٠٠) طن من الحبر الخاص لإنجاز هذه الكميات من النقود سنوياً.

الجولة على مراحل طبع الدولار:

ومشينا مسافات طويلة مع المرشد فى ممرات لا مخارج لها ولا مداخل، لرؤية تكوين الدولار من كونه رزماً ضخمة من الأوراق حتى يخرج وهو نقد من مختلف الفئات ولكل مرحلة من مراحل الطبع خبراء يدققون النظر فى كل صغيرة وكبيرة تمر على الورقة، وفى النهاية تتساقط رزم الدولارات كالمطر..

ورأينا فى هذه الجولة كتلة مستطيلة من هذه الرزم ، قال المرشد عنها إنها تتكون من مليون دولار.

ورأينا رزماً أخري مغلفة فى ورق كتب عليها بأرقام كبيرة (٣٥٠٠٠٠٠٠) دولار..

وبعد هذه الرؤية الجافة للدولارات انتقلنا مع المرشد إلى مطبعة الطوابع البريدية، وقال المرشد: إنها تنتج سنوياً (٢٥) بليونا من مختلف الطوابع ، والكمية التى تطبع يوميا (مائة مليون) طابع.

ومما لاحظناه فى أثناء مرورنا بهذه المكاتب، وجود عدد كبير من الزنوج بين الفنيين والإداريين وأحد الخبراء الذين يدققون الدولارات فى النهاية زنجى بدين الجثة..

ولم يسمح المرشد لأحد مرافقيه بأخذ الصور داخل الممرات.

ــ ٢٣ ــ

إلى المتحف التاريخي والصناعي: Museum of History and Technology

وبعد انتهائنا من مشاهدة مباني مطبعة النقود والطوابع، خرجنا وركبنا الأتوبيس، وعندما تكامل عدد الركاب.. أمر المرشد السائق بالتوجه إلى المتحف التاريخي والتكنولوجي. فتحرك السائق نحو الشارع الثاني، ثم جنح ذات اليمين إلى الشارع الكبير (ماري لاند) Maryland Ave وبعد عبوره أدار مقود السيارة إلى الشمال حتى وصل إلى مباني المتحف في الشارع الحادي عشر. ومباني المتحف تابعة لمؤسسة علمية تعرف باسم مؤسسة (سمثسنين) Smithsonian Institution التي أسسها الباحث الطبيعي الإنجليزي (جيمس اسمثسون) J. smithson سنة ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) والمؤسسة تتكون من:

١ ــ بيت المؤسس

٢ ــ متحف للفنون والصناعة والعمارة.

٣ ــ جناح خاص لأبحاث الفضاء والجو.

٤ ــ صالة كبيرة للتحف الفنية.

٥ ــ المتحف التاريخي والتكنولوجي الذي زرناه.

٦ ــ متحف للفنون الجميلة.

ووقف المرشد أمام بناية المتحف، وقبل نزول الركاب نبههم بالوقت المحدد للزيارة، وأنه إذا انتهى الوقت فلا ينتظر أحدا ــ ثم أخذنا إلى داخل المتحف، وبدأنا الجولة مع رفاقنا والمرشد من الطابق الأرض، والمتحف يتكون من ثلاث طبقات.. وقد لاحظ فضيلة الشيخ محمد أن متابعة المرشد في السير أمر متعب فقال: دعونا من متابعته وشروحه الطويلة عند كل

حاجة، والتى يجعل فيها (من الحبة قبة)ــ ونحن والحمد الله عارفون المعروضات فنمر بها مرور الكرام ونترك شروحاته ــ أي المرشد ــ لربعه .. وبناء عليه تقدمنا عن رفاقنا والمرشد. فدخلنا قسم صناعة النسيج ــ فى أمريكا ــ وتطورها من الأنوال اليدوية إلى الآلات الأوتوماتيكية ،ومن الأقمشة الخشنة إلى أقمشة حريرية ونيلونية دقيقة ــ ثم دخلنا صالة الصناعات الثقيلة من الحديد والصلب وتطورها، ومنها انتقلنا إلى قسم الأدوية وتطورها من الأعشاب والمساحيق إلى الأدوية المصرية والآلات المستعملة حديثاً فى الحقل الصحى.

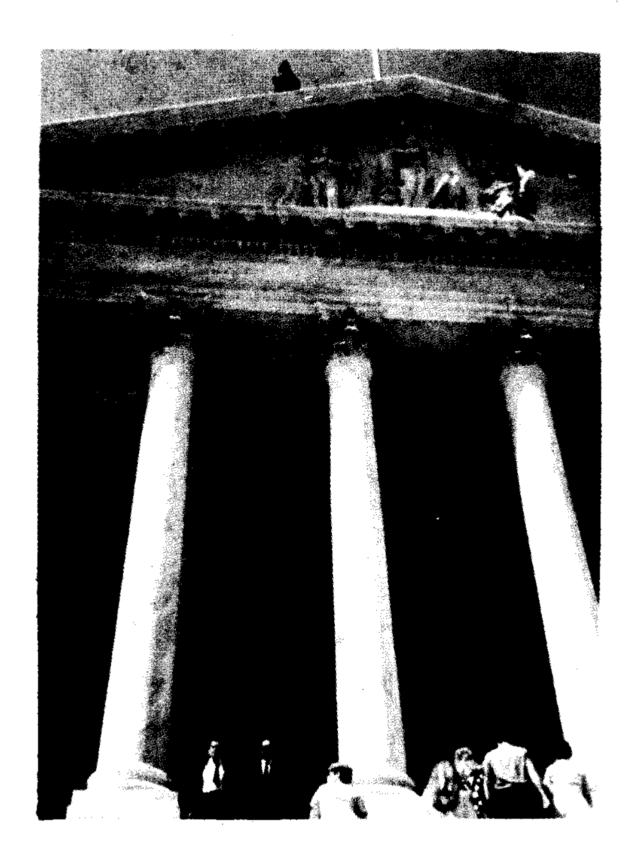
ثم جئنا إلى قسم البترول ووسائل الاستصباح والصناعات التى نمت من مشتقات البترول. وذكرنا هذا القسم بمعارض الزيت التى تقيمها شركة أرامكو فى مختلف أجزاء المملكة عندنا. ومن قسم البترول تقدمنا إلى قاعة الذرة والطاقة الذرية، ثم إلى قسم الآلات الصناعة وتطورها ووسائل المواصلات فى أمريكا وكل شىء معروض بحجمه الطبيعى، أي العربة الخشبية المستعملة لركوب الناس قبل قرن معروضة فى غرفة خاصة.

ثم صعدنا إلى الطابق الثانى قبل رفاقنا، وكنا حريصن جدا على ألا نفترق عن بعضنا ولو افترقنا لأضعنا الوقت فى البحث عن بعض، ولا نجتمع إلا بعد القيل والقال وكثرة السؤال..

والمعروضات التى شاهدناها فى الطابق الثانى تتلخص فى: صور من نمو الحياة الأمريكية ونمو الأسرة الأمريكية، وتطور الأزياء وتماثيل لشخصيات أمريكية.

والدور الثالث يرى فيه الزائر: تطور الآلات الموسقية والنقود الأمريكية والطوابع، وتطور صناعة الزجاج والفنون الجميلة، وتطور الآلات الحربية والاكتشافات البحرية، ونماذج لبعض السفن وبعض المراسيم التاريخية والأوسمة..

وانتهينا من مشاهدة الثلاث الطبقات قبل رفاقنا، وخرجنا من المتحف إلى الحديقة التى تحيط بكل مبانى المؤسسة، حيث جلسنا تحت دوحة فينانة بالقرب من الأتوبيس.



وجاء المرشد بربعه وركبنا معهم وقال المرشد: الأن سنزور البيت الأبيض.. White House

البيت الأبيض: (White House)

وتحرك الأتوبيس نحو الشمال، وأخذ المرشد يصف لنا ما يمر به من الأماكن والعمارات، فمررنا بمباني المعهد العسكري ودار المحفوظات الوطنية

والمكتبة العامة ــ إلى الشارع الكبير شارع (بنسلفانيا) Pennsylvania Ave
Army institute ومنه مال نحو اليسار مجتازاً الشارع الثامن والتاسع والعاشر والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، عرضا حتى وصلنا إلى حدائق البيت الأبيض من ناحية المدخل..

وأوقف السائق سيارته ونزلنا جميعاً ورتبنا المرشد في (طابور) (كل واحد خلف الآخر) للتقدم إلى البيت الأبيض، لأن عدد السائحين القادمين إلى هذا المكان كبير جداً. وكانت صفوفهم تتقدم من جهات عدة نحو الباب وكل واحد يحمل بطاقة للدخول

كان السير بطيئا وحرارة الشمس شديدة ، لا سيما على الرءوس الحاسرة، فتضايقنا، ولحسن حظنا تقدم (الطابور) ودخلنا تحت ظلال أشجار كبيرة.. ومنها إلى ممر واسع بين أرض مخضرة بالعشب تتوسطها (نافورة) يرتفع ماؤها إلى مسافات عالية في الجو، ثم تتناثر ذرات الماء على شكل رذاذ على العشب، وانتهى بنا السير السلحفائى إلى رتاج البيت الأبيض، حيث قدم كل واحد تذكرته إلى الضباط الواقفين، ثم دخلنا إلى الصالة الأولى بعد المدخل، والصالة على شكل دائري Vermeil Room ، وعلى جدارها بين النوافذ رسوم بالألوان تمثل مناظر من أمريكا الطبيعية، ولدقة الرسم والألوان يظن الرائى بأول وهلة أنه ينظر إلى منظر طبيعى حقيقى من النافذة، وعندما يدقق النظر يدرك أنه رسم على الجدار.

المكتبة : LIBRARY

وبجوار هذه الصالة غرفة كبيرة للمكتبة، بها ــ على حسب رواية المرشد ــ ٢٧٠٠ كتاب وكلها مجلدة ومذهبة ومنسقة فى خزائنها الزجاجية تنسيقاً بديعاً.

الغرفة الصينية : CHINA ROOM

وبجانب المكتبة غرفة تعرف باسم الغرفة الصينية في وسطها منضدة مدورة فخمة مغطاة بحرير أبيض وفوقها تمثال صغير.

غرفة الإدارة : OFFICE OF CURALOR

وبجوار الصالة المدورة التى دخلناها أولا غرفة كبيرة باسم غرفة الإدارة التى تشرف على البيت الأبيض وصيانته، وعلى شئون خدمه.

الغرفة السياسية: DIPLOMATIC RECEPTION ROOM

ثم دخلنا الغرفة السياسية وهى خاصة لاستقبال الشخصيات السياسية ،وعلى جدارها من الأطراف الأربعة لوحات فنية لمناظر طبيعية لأشهر الفنانين.

ثم صعدنا إلى الطابق الثانى وأول غرفة دخلناها تعرف باسم (الغرفة الشرقية) East Room وهى واسعة جداً، وليس بها كراسى، وأرضها مفروشة بسجاد أصفر من أفخر الأنواع، وفى صدر الصالة بعض تحف تاريخية منها آلة بيانو بديعة الصنع، وطلاء جدارها أبيض، وأثاثها ذهبى اللون، وسقفها مزين برسوم شرقية رائعة، وتتدلى من سقفها ثلاث ثريات ضخمة من الكريستال الممتاز، وتقام فى هذه الغرفة أحيانا تمثليات وحفلات موسيقية لضيوف البيت الأبيض. وانتقلنا من الغرفة الشرقية إلى:

الغرفة الخضراء: Green Room

وجميع ما فيها من الأثاث والتحف ملونه بلون أخضر فاتح وفى صدر الغرفة مدفأة من الرخام، وفوقها ساعة من البرنز اشتراها الرئيس جيمس مونرو Monro وعلى منضدة أخري محبرة من البلور الأخضر مزينة بسيور من البرونز الأصفر، وعلى أحد جوانبها صورة (صقر) طائرة، و يرجع

تاريخ هذه المحبرة إلى اوائل القرن التاسع عشر، واراثكها (كنبها) من مخلفات لويس السادس عشر Loois XVI الفرنسى ، ثم دخلنا :

الغرفة الزرقاء: (Blue Room)

وهى على شكل بيضوي ، وكانت قديماً غرفة للاستقبال ، وعلى أحد أطرافها رسم بالحجم الطبيعى للرئيس الخامس جيمس مونرو (James Monroe) صاحب نظرية : (أمريكا للأمريكيين) ومن الغرفة الزرقاء انتقلنا إلى : الغرفة الحمراء (Red Room) وجميع ما فيها ملون بلون أحمر فاتح ، ومزودة بلوحات فنية لشخصيات أمريكا ، وصور لأشهر البحارة الأمريكيين والفرنسيين ، وعلى منضدة فى الوسط دواة كان الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية جفرسن (Jefferson) يستعملها فى كتاباته . ومن الغرفة الحمراء دخلنا صالة الطعام والخامسة لإقامة الحفلات والمآدب لضيوف البيت الأبيض من الشخصيات البارزة ، والمائدة على شكل حدوة حصان وفى صدر المائدة صورة مكبرة للرئيس أبراهام لنكولن وبجانب هذه الصالة غرفة الاستقبال السياسية ، وبها لوحة تاريخية طولها عدة أمتار تمثل دخول الأمريكيين إلى قارة أمريكا .

ومن ضمن التحف التاريخية فى البيت الأبيض غرفة نوم للرئيس أبراهام لنكولن Abraham Lincoln ، وعلى أحد جدارها كتب ما ترجته : (من هذه الغرفة أعلن أبراهم لنكولن تحرير أربعة ملايين عبد ، ووقع وثيقة التحرير يوم ١٨٦٣/١/١م (١٢٨٠هـ) وأصبح جميع العبيد أحراراً للنهاية ، كما مُنِعَ استخدام الرقيق في الولايات المتحدة) .

والطابق الثالث ــ اعتذر المرشدون عن الصعود إلى غرفه لوجود الرئيس جونسون وأفراد أسرته ، وإلى هنا انتهت الجولة فى البيت الأبيض ثم توجهنا مع المرشدين والرفاق إلى مشاهدة (الكابتول U.S. Congress أو بناية الكونجرس الأمريكى ..

ـ ٢٤ ـ

إلى الكونجرس الأمريكي ـ أو الكابيتول:

بعد انتهائنا من البيت الأبيض، توجهنا مع رفاق الأتوبيس إلى الكابتول من شارع بنسلفانيا الواسع الممتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وقبل أن نقطع هذا الشارع في صمت، من المستحسن أن نذكر نبذة قصيرة عن تاريخ البيت الأبيض الذى انتهينا من مشاهدته.

كتب جورج واشنطن ـ الرئيس الأول للولايات المتحدة ـ في يومياته يوم ١٢/٧/١٧٩٠م (١٢٠٥هـ) ما يأتي: (قدّم إليّ اليوم بعد الظهر قرار التخصيص محل مؤقت وآخر دائم ليكون مقراً لرئيس الولايات المتحدة، كما تقرر نقل مقر الرئيس من رئاسة الاتحاد بنيويورك إلي جهة أخرى لاتخاذها عاصمة دائمة للحكومة..)

ثم اختار الرئيس واشنطن للعاصمة ومقر الرئاسة أرضا علي نهر (بوتوماك) (Potomac) وأطلق عليها اسمه فكانت (مدينة واشنطن).

ووضع مهندس أيرلندى (جسر هوبان تصميماً لبيت الرئاسة، وأعطى علي تصميمه جائزة مالية.. ولم تنتقل العاصمة إلى واشنطن إلا في عهد الرئيس (جون ادمز) (John Adams) سنة ١٨٠٠م (١٢١٥هـ) وهو أول من سكن في هذا القصر، ولم تكن عمارته تمت، وبعد نزوله في هذا القصر كتب إلى زوجته هذا الدعاء ـ الذى أمر الرئيس روزفلت بحفر كلماته علي باب من أبواب هذا القصر:

«اللهم أنزل رحمتك على هذه الدار وعلى من ينزلها، ولا تدع لغير الأمين المفكر مجالا للحكم من تحت هذا السقف».

وعلي مرور السنين زيدت فيه أجنحة كثيرة، وفي حرب سنة ١٨١٤ أحرقه الإنجليز بغاراتهم عليه، فأعيد بناؤه وطليت جُدُره باللون الأبيض ومن ذلك التاريخ سمي بالبيت الأبيض، وتعرض لحريق آخر سنة ١٩٢٩ (١٣٤٨ هـ) فجددت بنايته بالضخامة التي عليها الآن..

الكونجرس:

وأخيراً وصلنا الميدان الواسع العظيم الذى يقع الكونجرس في وسطه، والميدان عبارة عن حدائق عامة، وتحت هذه الحدائق مواقف للسيارات تسع لـ(١٩٠٠) سيارة ومع كثرة السيارات من السهل جداً على كل سائق أن تخرج سيارته متى شاء.

ويتكون الكابتول من ثلاث عمارات متصلة بعضها مع بعض، ومساحة هذه العمارات فدانان ونصف فدان، والعمارات بها خمس طبقات تتكون من (١٠٢) غرفة.

ومدخله الرسمي مرتفع لا يصل إليه إلا بصعود مايقرب من خمسين درجة، ولكن المرشد أدخلنا من غير المدخل الرسمي إلى أولى صالاته، وهي صالة مدورة فوقها قبة الكونجرس، والقبة ثلاث طبقات.. وجدار هذه الصالة من جميع جهاته مزين بلوحات فنية كبيرة جداً، تجمع بين مناظر تار يخية لقدوم الأمريكيين إلي هذه الدنيا الجديدة، ومناظر طبيعية، ولدقة رسمها ومهارة رساميها يظن الرائي أنه يشاهد منظراً واقعياً. وكانت الصالة مزدحمة بالسائحين، ويقدر عدد الزائرين الذين يدخلون الكابيتول سنوياً بالملايين، وبعد أن ألقينا نظرة عامة على اللوحات بدأنا ــ على حسب شرح المرشد ــ في إمالة الرءوس إلى الوراء ــ لنرى المناظر المرسومة في سقف الصالة، وأخذ المرشد يقرأ اللوحات المكتوبة في السقف والتى تسجل تاريخ أمريكا.. وهنا التفت فضيلة الشيخ محمد إلينا وقال: لقد وافقنا المرشد وجاملناه فى المرور علي اللوحات الجانبية، أما فى ثنى الرقبة والنظر إلى

السقف فلا نجامله ولا نوافقه، ودعونا نعمل كما عملنا في المتحف نتركهم ونتقدم حتي تنتهي قبلهم.. وكانت الصالة وغير الصالة كلها، مزدحمة بالزوار والمرشدين وهم بلغات مختلفة بعضهم يشرح لجماعته باللغة الإنجليزية، وبعضهم يشرح بالألمانية، وبعضهم بالإسبانية والفرنسية..

وقد أراحنا فضيلته بهذا الرأى من ــ لَوْلَوَة ــ (بسكون الواو الأولي وفتح الثانية) الرقبة إلى الوراء، وأسرعنا إلى بقية أطراف هذه الصالة، وقال المرشد، إن وزن القبة وما حولها من الأعمدة والحيطان يقدر بمليون طن.. وفوق قمة القبة تمثال الحرية من البرونز طوله ـــ ١٩ قدماً ووزنه (٧ $\frac{1}{2}$) أطنان.

ومن الصالة المدورة دخلنا ممراً واسعاً ممتداً إلي مسافة بعيدة، وعلى جانبي الممر أعمدة من الرخام، بين كل عمود وآخر تمثال لرئيس من رؤساء الولايات المتحدة بحجمهم الطبيعي، وفي صدر تلك التماثيل تمثال للرئيس أبراهام لنكولن وهو جالس علي كرسيه، والغرف التي دخلناها هي: غرفة الرئيس، وهي آية في الفخامة والنقوش والرسوم التاريخية، وأحد جدرانها الكبيرة مغطي بمرآة علي طول الجدار وعرضه.. وبها عدة مكاتب تاريخية للرؤساء المتقدمين في مقدمتها مكتب الرئيس أبراهام لنكولن..

وصالة المؤتمرات واجتماعات الكونجرس وهي واسعة جداً، وكراسيها دائرية في عشرة صفوف منحنية، وأمامها منصة الرئيس والسكرتيرين، ولهذه الصالة طبقة ثانية مزودة بمقاعد مدرجة لجلوس الصحفيين والمشاهدين..

وقاعة اخرى للمؤتمرات، وهي كذلك صالة كبيرة لاستراحة السيدات. وغرفة للاستقبال، وغرفة لموظفي الإذاعة وأجهزتها، وغرفة للجان الفرعية، وغرفة للمطالعة الخاصة بأعضاء الكونجرس، وغرفة للمحفوظات، وبجوارها المكتبة وهناك صالات وغرف كثيرة لم ندخلها كغرفة المحفوظات الخارجية،

وغرفة رؤساء الولايات، وغرفة لرؤساء الأقليات، وغرف أخرى خاصة بأعضاء مجلس الكونجرس ـ أى للسنتورات ـ ومجموعها ـ (٥٢) غرفة وصالة.

إلي الطابق الثاني:

ثم صعدنا مع الصاعدين إلي الطابق الثاني، وهو عبارة عن بلكونات دائرية تشرف على الصالة الكبرى، حيث يجتمع مجلس الكونجرس.

وأجلسنا أحد المرشدين علي المقاعد المشرفة علي مقر الرئاسة وشرح للحاضرين طريقة انعقاد الكونجرس، وأن الصحفيين والمشاهدين الذين يسمح لهم بالوصول إلى هنا وأن هيئة السكرتارية تسجل كل مايدور في الاجتماع من الأبحاث.

ونظرنا إلي الساعة فوجدنا وقتنا المحدد للزيارة أوشك على النهاية فنزلنا قبل رفاقنا إلى الصالة الأرضية.

الاتصال بنيويورك:

ولم يكن الرفاق نزلوا بعد فانتهز فضيلة الشيخ محمد هذه الفرصة واتصل بنيويورك بالأستاذ عبدالعزيز المنقورتليفونياً.. وأخبره بأنه سيتوجه إليه اليوم، وطلب منه أن يحجز لنا في أحد الفنادق غرفة، ولم تستغرق هذه المكالمة والاتصال دقائق معدودات. مقابل عدد من (السنتات).

انتهاء الجولة:

وخرج أعضاء الرحلة أورفاقنا في الأتوبيس إلي حدائق الكونجرس حيث ركبنا الأتوبيس وساربنا سيراً هادئاً، وبدأ المرشد في أداء واجبه في إرشاد الركاب إلى معالم واشنطن، فمر بعمارة ذات طابق واحد وقال: إنها مركز للأبحاث الذرية التي أوجدت القنبلة الذرية، والتي ألقيت علي هيروشيما، وحمدنا الله تعالى أن لم يكن معنا في الأتوبيس أحد من اليابانيين

الذى لو سمع كلاماً كهذا لانفعل وتأثر، وربما حدث منه مالم يكن في الحسبان من ضربات (الجودو) أوغيرها ثم مررنا بحديقة الأزهار والنباتات العالمية أى حديقة التبليد.

وكلما مر بشيء ولو بتمثال حيوان من الحيوانات مثلاً أطال الشرح عنده.

وأخيراً وصلنا الفندق والحمد لله بسلام.

إلي المطار:

بانتهاء هذه الجولة التي أوقفتنا على المهم من معالم واشنطن، أنهي فضيلة الشيخ محمد زيارته لواشنطن، وأسرعنا إلى مطارها.. حيث ذهبنا قبل كل شيء إلى لوحة الرحلات المتوجهة إلى مدينة نيويورك.. ولم نجد رحلة إليها إلا لدى شركة أمريكية داخلية للطيران، وهي الشركة الشرقية للخطوط الجوية، وكانت طائرتها على وشك القيام، فراجعنا مأمور التذاكر وأخذنا منه التذاكر، ثم اقتربنا إلى ناحية المخرج إلى الطائرة.

علبة هدايا للأخ جميل فطانى:

لقد ذكرت عند وصولنا إلى مدينة (بفلو) بعد عودتنا من شلالات نياجرا أن الأستاذ جميل اشترى من هناك بعض هدايا لصغاره، ولكنه نسى ربطة الهدايا عند النزول في الطائرة التابعة لشركة الخطوط الجوية المتحدة، ولم يتذكر ذلك إلا قبل قيامنا من واشنطن بدقائق، فاتصل في الحال بمطار بفلو الشمالية تليفونياً، واتصل بمكتب الشركة وأخبرها أنه نسي علبة لونها كذا في الطائرة، فرد عليه موظف الشركة بأن وجدناها وستصلكم إلى نيويورك.. وكان الأمر كما ذكر.

خرجنا من باب رقم (٢١) إلي الطائرة ولم تكن من الطائرات الكبيرة، ولكنها نفاثة وسرعان ما تكامل الركاب وأقلعت وارتفعت في طريقها إلى نيويورك.

ـ ٢٥ ـ

في سماء واشنطن:

لقد ارتفعت الطائرة النفاثة في سماء واشنطن، وشاهدنا المدينة وهي عبارة عن خطوط مستقيمة أفقية ورأسية، ممتدة إلى مسافات وكلها مضاءة، لأن الوقت كان ليلاً والشوارع الأفقية الممتدة من الشرق إلى الغرب تعرف بالأسماء، أسماء بعض الولايات، أما الشوارع الممتدة من شمال المدينة إلى الجنوب وهي طويلة جداً تعرف بالأرقام بدلاً من الأسماء..

ومن الشوارع الأفقية ــ أى من الغرب الشمالي إلى الشرق الجنوبي، شارع بنسلفانيا الذى فيه البيت الأبيض والكونجرس، يقدر طوله بأربعة أميال ونصف الميل.. ومن المستحسن أن نذكر ونحن فوق مدينة واشنطن بعض معالمها المشهورة:

١ ــ تذكار واشنطن أى النصب التذكارى الذى أقيم للرئيس جورج واشنطن، وهو عبارة عن مسلة طويلة كالمسلات المصرية، أقيمت في حديقة عامة على شاطئ نهر بوتوماك وطولها (٥٥٥ قدماً و½٥ بوصة) وعرض كل ضلع من أضلاعها الأربعة (٥٥ قدماً و½١ بوصة) وفكر في إقامة هذا النصب التذكارى باسم جورج واشنطن أبناء عصره من المقربين إليه، ولكن الكونجرس الأمريكي وكان في أول نشأته رفض أن يقام هذا النصب على حساب الحكومة، فأهمل المشروع أياماً وفي سنة ١٨٣٣م (١٢٤٩هـ) أنشأ أصدقاء الرئيس، جمعية باسم جمعية ذكرى واشنطن الوطنية، وقام أعضاء هذه الجمعية بالمشروع مرة أخرى، وجمعوا له تبرعات من أفراد الشعب بلغ مجموعها: (٨٧٠٠٠) دولار، ثم استأذنوا الحكومة في السماح لهم بإقامة هذا

النصب التذكارى باسم الرئيس جورج واشنطن، فسمح لهم .. ووضع الحجر الأساسي له يوم ٤/٧/١٨٤٨م (١٢٦٥هـ) ثم بدئ العمل فيه حتي بلغ ارتفاعه (١٥٦) قدماً، ثم نفد المبلغ، فتوقف العمل حتي جمع مبلغ آخر من أفراد الشعب يقدر بـ(٢٣٠/٠٠٠) دولار، واستؤنف العمل في إنجازه، واستمر سنوات، ثم توقف وبقى النصب غير كامل إلي سنة ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) ثم قررت الحكومة الأمريكية إتمام المشروع علي حساب الدولة، فبدئ فيه العمل بقوة ونشاط حتى انتهى يوم ٦/١٢/١٨٨٤م (١٣٠٢هـ) وبلغ جميع ما صرف على النصب التذكارى من الأموال هو (١٠,٥٠٠,٠٠٠) دولار.

٢ ــ أكاديمية العلوم: وهي عمارة كبيرة تجمع بين جميع الأقسام العلمية النظرية والمختبرات العلمية، والاكتشافات الحديثة وتطورها.

٣ ــ المكتب الوطنى للمعايير المختلفة ــ من الموازين والمقاييس والمسافات والمساحات وموازين الضغط علي اختلاف أقسامها.

٤ ــ عمارة بنتاجون، وهي من أكبر العمارات الحكومية المشهورة، وبها مقر وزارة الدفاع.

٥ ــ عمارة المحكمة العليا، وهي مشهورة بجمال هندستها وروعة أبهائها وغرفها.

٦ ــ عمارة الشئون الزراعية للولايات المتحدة، وهي في اتساعها وامتدادها تكاد تكون الفريدة من نوعها.

٧ ــ المكاتب الداخلية وتتبعها عشرة متاحف، وتكاد تكون مدينة مستقلة لامتدادها.

٨ ــ المركز الجوى التابع للبحرية الأمريكية ويشغل هذا مساحة واسعة تقدر بـ(٣١٣,٤) فداناً.

٩ ــ التل ورتون ، وهي أرض واسعة وكانت مقراً للرئيس جورج واشنطن وتبعد عن المدينة ١٥ ميلاً .

١٠ ــ عمارة شركة بان أمريكان وهي من العمارات الحديثة والغريبة في هندستها ، وتشترك في ملكيتها إحدى وعشرون مقاطعة من أمريكا الشمالية والجنوبية .

١١ ــ السد العظيم المشيد علي نهر كولومبيا .

١٢ ــ المستشفي البحرى . ويقع على شاطئ نهر بوتوماك جنوب واشنطن ، وعولج فيه في أثناء الحرب العالمية الثانية الآلاف من المصابين والجرحي من رجال البحرية وغيرهم .. وتمتاز مدينة واشنطن بكثرة مكتباتها وحدائقها العامة ومتاحفها ومصارفها ومعاملها .

منظر المدينة :

وكلما ارتفعنا وابتعدنا أخذ منظر المدينة وخطوطها المضاءة تتضاءل حتى غابت عن الأنظار، وبدأت أنوار أخرى ولم تكن المسافة بين واشنطن ونيويورك تزيد عن (٢٠٠) ميل .. ولم يكن هناك فرق كبير بين إشارة مضيفات الطائرة لفك الأحزمة ثم إشارتهم مرة أخرى للربط استعداداً للنزول ..

ونزلنا في مطار نيويورك المزدحم للمرة الثانية بسلام ، ولم يكن هناك أى إجراء رسمي للركاب غير النزول من الطائرة والذهاب إلى الدائرة الأتوماتيكية الناقلة للحقائب وأخذها ثم للخروج من المطار.

وكان الأستاذ عبدالعزيز المنقور الملحق الثقافي السعودى في الولايات المتحدة واقفاً أمامنا في المطار، وبعد تبادل التحيات معه أخبر فضيلة الشيخ محمد أنه حجزلنا غرفة في فندق (باركلى) الذى كنا فيه قبل مغادرتنا لنيويورك .

ثم ركبنا معه في سيارته فأوصل **الأخ جميل ياسين فطانى** إلي مسكنه، ثم ذهب بنا إلي فندق (باركلى)..

في السيارة :

وكان من أحاديث الأستاذ المنقور فى السيارة: أخبار احتلال الروس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا احتلالا عسكريا وأن هذه الأخبار أثارت استياء عاماً فى أمريكا. وكانت الإذاعات والبث التليفزيونى والجرائد والأخبار المضاءة المتحركة والتى تظهر على واجهة عمارة من عمارات شركات الأنباء ــ كلها كانت تعلن عن هذا الحادث الدولى الهام..

وعندما اقتربنا من الفندق عرض الأستاذ المنقور على فضيلة الشيخ أن يتناول العشاء معه فى مطعم عربى فتح حديثاً فى مدينة نيويورك.. وأنه سيكون معه سعادة الشيخ فهد الفيصل أمين بلدية مدينة الرياض سابقاً وابنه.. فوافق فضيلته شاكراً للأستاذ المنقور لطفه وكرم وفادته.. كما شكره على هذه الفرصة التى هيأها له للاجتماع بسعادة الشيخ فهد الفيصل، وضرب لذلك موعداً وهو الساعة السابعة بتوقيت نيويورك.

فى الفندق :

كانت الساعة حين وصولنا إلى الفندق ودخولنا الغرفة الخامسة والنصف أى بيننا وبين الموعد مايقرب من ساعة ونصف ساعة قضيناها فى الاستراحة وأداء الصلاة، ثم الاستعداد للخروج. عندما اقترب الموعد نزلنا إلى صالة الفندق العامة المزدحمة بالنزلاء الصادرين والورادين والعاكفين على الأرائك، والمزدحمين على نافذة تحويل النقود والعملات الأجنبية بالدولارات، وعلى قسم التحف والهدايا..

إلى مطعم بيروت :

وفى الموعد المحدد جاء الأستاذ عبد العزيز المنقور ومعه فى السيارة سعادة الشيخ فهد الفيصل وابنه، فركبنا معهم إلى مطعم بيروت (بيروت

رستورانت) الذى أنشأه لبنانى وجميع أطعمته عربية لبنانية أوسورية مع المأكولات الإفرنجية ، ورئيس العمل لبنانى أما بقية الخدم فمجموعة من البيض والسود .

وبعد أن شرب كل واحد منا عصير البرتقال أوالبيبسى كولا جاء دور الطعام ، وكان الأستاذ المنقور قد أخبر خدم المطعم بما يريد من أنواع الأطعمة ، فأخذوا ينقلون الصحون إثر الصحون وأبى كرم الأستاذ المنقور إلا أن يتخلى عن عادات القوم جانباً ويجمع أمام كل واحد منا أفخر مالدى المطعم مما لذ وطاب ، وكلما تريثنا قليلا جاء الخدم بأنواع جديدة ، وكان فضيلة الشيخ يخاطب الأستاذ المنقور ويقول له حسبنا حسبنا ، ولكن الأستاذ وكرم طبعه يأبى إلا أن يكمل القائمة التى اتفق عليها مع المطعم .. أنعم الله عليه بخيرى الدنيا والآخرة .

وكان سعادة الشيخ فهد يشنف آذاننا بأحاديثه الشيقة عن رحلاته ، وأنه إذا أراد السفر من نيويورك أى أراد الخروج إلى مطارها يأتى بسيارته إلى عمارة (بان أمريكان) فركب من سطحها ، والعمارة مكونة من ستين طبقة تقريباً ــ ويركب طائرة هليوكوبتر وينتقل بها فى دقائق إلى المطار ويرتاح من وقفات المرور وازدحام الشوارع ، وإضاعة مايقرب من ساعة أوأكثر فى الوصول إلى المطار .. كما شرح لفضيلة الشيخ محمد برنامج رحلاته فى الولايات المتحدة وأوربا .

مغادرة المطعم :

لقد استغرق جلوسنا على موائد الطعام أكثر من ساعة ، ثم قمنا شاكرين للأستاذ المنقور سماحة نفسه ، وطيب خلقه ، وكريم سجاياه .. وأوصلنا إلى الفندق وودعنا وهو يقول : سآتيكم غداً صباحاً ــ إن شاء الله ــ لترتاحوا عندى فى المكتب حتى يأتى موعد سفركم إلى أوربا .

وكان الأستاذ قد حجز لنا بطلب من فضيلة الشيخ محمد للسفر إلى مدريد فى طائرات شركة (تى . دبليو . أى)

— ٢٦ —

أصبحنا وأصبح الملك لله، أشرقت علينا شمس يوم الخميس ١٣٨٨/٥/٢٨ (١٩٦٨/٨/٢٢) ونحن فى فندق باركلى (Barkley) بمدينة نيويورك، وقد أعددنا الحقائب لمغادرة الولايات المتحدة.. حامدين الله على أن حفظنا من كل سوء، داعين أن يكلأنا بعين رعايته وعونه فى بقية الرحلة.

طعام الفطور :

وطلبنا طعام الفطور تليفونياً من الجهة المختصة، وحالما انتهينا من (الفطور) نزلنا إلى بهو الفندق حيث جاء الأستاذ عبد العزيز المنقور فى الموعد المحدد، وأخذنا إلى مكتبه. أما الحقائب فوضعناها بقسم الأمانات بالفندق على أن نأخذها بعد منتصف النهار.

. وما إن دخل الأستاذ المنقور مكتبه إلا إنهالت عليه المراجعات والمكالمات التليفونية بالعربية من جانب الطلبة السعوديين وباللغة الإنجليزية من جانب الرسميين الأمريكيين كما قدمت له السكرتيرة رزمة من المذكرات للتوقيع عليها.

القيام بجولة فى المدينة :

ولما كان النهار فى أوله استحسن فضيلة الشيخ محمد أن نقوم بجولة على بعض معالم المدينة بدلا من الجلوس فى المكتب، فطلب من الأستاذ المنقور أن يأمر سائق سيارته أن يذهب معنا إلى بعض معالم المدينة التى لم نرها، وأن يمر بنا ببعض الأنفاق التى تمر من تحت نهر هدسن الكبير.

فنفذ الأستاذ المنقور رغبة فضيلته بأن طلب السائق عنده، وأمره بأن يكون تحت طلبه كما قال للأستاذ جميل ياسين فطاني: أن يرافقنا كمرشد..

فخرجنا معه وبدأنا الجولة بدخول النفق الكبير المعروف باسم نفق لنكولن (Lincoln Tunnel) الذى يتمتد إلى (٨٠٠٠) قدم تحت مجرى نهر هدسن الذى يعتبر من أهم الأنهار فى الولايات المتحدة من ناحية المواصلات الداخلية النهرية، ويعرف لأهميته براين أمريكا (Rhine) لوجود شبه كبير بينه وبين نهر الراين فى ألمانيا. ويجرى نهر هدسن من الشمال إلى الجنوب ويصب فى المحيط الأطلسى.

ولا تحتاج السيارات المارة بهذا النفق إلى استعمال ضوء مصابيحها، فالسائر فى هذا النفق ليلا كان أونهاراً لا يشعر بأى نوع من الظلام، بل يسير وكأنه يسير فى أحد الشوارع فى ضوء النهار. وأهمية هذا النفق تعود إلى أن ألوفا من سكان نيويورك القاطنين فى الناحية الشرقية. يأتون يومياً لأعمالهم الرسمية أوالتجارية إلى وسط المدينة بسياراتهم صباحاً ثم يعودون إلى أماكنهم مساء، ولذلك يشتد ضغط حركة المواصلات صباحاً ومساء..

وانتقلنا بعدها إلى مدينة جرسى (Jersey) بواسطة الجسور المتراكبة بعضها فوق بعض ــ طبقة لمرور السيارات، وطبقة للقطارات، وتحتها البحر تمر به المراكب والقوارب البخارية والشراعية..

مدينة جرسى:

تعد (جرسى) مزرعة لنيويورك، فعظم أراضيها مخضرة بالمزارع والحقول والحدائق، وهى تابعة لولاية جرسى المصاقبة لولاية نيويورك ويسمى الناس ولاية نيوجرسى باسم (ولاية الحدائق) لكثرة ما فيها من المزارع والحدائق والمياه..

وكانت جولة لطيفة بالنسبة إلينا بين المزارع والأشجار وجداول المياه، والمرور من فوق الجسور الصغيرة وبها كثير من المصانع والمعامل..

ولاية نيوجرسى المجاورة لولاية نيويورك، مشهورة ببعض الاكتشافات الحديثة التى كان لها الأثر الكبير فى دفع عجلة الحضارة إلى الأمام، فلا تزال تحتفظ هذه الولاية بذكرى مخترع التلغراف صمويل مورس الذى ابتكر، واستخدم لأول مرة آلة إرسال الإشارات التلغرافية مع صديقه (الفرد ويل) إلى الجهات القريبة وذلك سنة ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) وتحتفظ كذلك بذكرى أول اختراع المصباح الكهربائى الذى اخترعه (إدسون) سنة ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ) واختراعاته الثانية كآلة عرض الصور المتحركة والكاميرا والحاكى..

ولاية نيوجرسى :

وفى مياه نهر باسيك من ولاية نيوجرسى : أنزل المهندس جون. ب. هولند أول غواصة وكان طولها ٣١ قدماً ووزنها ١٩ طناً، وذلك سنة (١٨٨١م) (١٢٩٩هـ) وكان يديرها شخصان..

وعلى العموم كانت جولة لطيفة وطويلة، قطعنا فيها مسافات طويلة باجتياز أطول جسر حديدى على شكل عقد، ثم العودة إلى مدينة نيوجرسى عن طريق النفق تحت نهر هدسن.

عند الاستاذ جميل فطانى:

وأخيرا عاد بنا الأستاذ جميل إلى ناحية المكتب، وفى أثناء ذلك عرض على فضيلة الشيخ محمد أن يرتاح قليلا عنده وفى شقته لتناول الشاى، وأخذ قسط من الراحة بعد هذه الجولة الطويلة وكنا فى حاجة إلى راحة كما كان فى الوقت فسحة ــ فوافق فضيلته ــ ودخلنا عند الأستاذ جميل فطانى وبمجرد ماجلسنا أقام أمامنا تلا من المجلات العربية والإفرنجية، ومن التحف النادرة التى عنده، فانصرفنا إليها وانهمكنا فى مطالعتها، أما هو فغاب عنا قليلا ثم عاد وهو يقول: تفضلوا لتناول الغداء. وأراد فضيلة الشيخ أن يعتذر، ولكن لم يكن هناك مجال للاعتذار فشكرناه على هذه المفاجأة اللطيفة

وقمنا معه إلى المائدة فإذا هى مزدحمة بأنواع من الأطعمة اللذيذة التى عهدنا بها ونحن فى منازلنا بالطائف، فتغذينا بشهية شاكرين للأخ جميل هذه الضيافة الكريمة فى بلاد الغربة.. ولم نخرج من عنده إلا بعد ساعتين وأكثر داعين له بالخلف والمزيد من الخير.

لا حارس للعمارة :

وعند خروجنا من العمارة التى فيها شقته شرح لنا الأستاذ الفطانى الطريقة المتبعة فى مثل هذه العمارات الضخمة التى تتكون فى الغالب من مائة شقة أوأكثر.. ومع ذلك لا تحتاج إلى أى حارس يحرس الباب الرئيسى.. فقال: إن الباب الرئيسى يبقى دوماً مغلقا وعلى جانب الباب لوحة فيها مفاتيح كمفاتيح الكهرباء على عدد الشقق الموجودة فى العمارة وعلى كل مفتاح رقم من أرقام (الشقق) وبجانب هذه اللوحة لوحة أخرى زجاجية بها مثل (شاشة التليفزيون) فالذى يريد أحداً من العمارة يضغط على زر شقته وهو واقف على الباب. فيسمع صاحبه الجرس ويأتى باب شقته ويسأل من فتحة صغيرة عند الباب (من الطارق؟) مثلاً وبجوار الفتحة زجاجة مربعة يرى فيها صورة الإنسان الطارق، فإذا عرفه وأحب أن يصعد إليه تكلم من الفتحة الصغيرة وقال له: (ادفع الباب) ويضغط على زر عنده فينفتح الباب الرئيسى ويدخل الإنسان. وبذلك لا تحتاج العمارة على ضخامتها وكثرة (شققها) إلى أى حارس يفتح الباب أويغلقه.

إلى مكتب الأستاذ المنقور :

ورجعنا إلى الأستاذ المنقور فى مكتبه وكان قد أنهى أعماله ودوامه الرسمى وجلس ينتظر عودتنا.. فقام معنا ومررنا على الفندق وأخذنا الحقائب، ثم ذهب بنا الأستاذ المنقور إلى شقته، فى عمارة شاهقة فى حى هادئ، أوأن وجود الشقة فى الدور الثانى عشر جعلها بعيداً عن ضوضاء المدينة والشوارع.. وقال لفضيلة الشيخ محمد: سنبقى هنا حتى يقترب موعد

قيام الطائرة فنذهب إلى المطار. وفى أثناء استراحتنا تناولنا الشاى وأسمعنا أخبار محطة لندن العربية وقال: إنه يسمع الإذاعة السعودية فى الليل بكل وضوح..

كانت أعيننا لا تفارق عقارب الساعة ونحن نتحدث مع بعض وتفكير السفر قد أبعد عنا كل أثر للنوم أو للسِّنَة لأن الوقت كان وقت القيلولة....

اقتراب موعد السفر:

وأخيراً اقترب موعد السفر فركبنا مع الأستاذين وأسرعنا إلى مقر شركة (تى. دبليو. أى) بمطار نيويورك حيث استقبلنا أحد موظفى الخطوط التابعين للشركة وفتح لنا (استراحة) خاصة وذلك نتيجة التوصيات التى زودهم بها الأستاذ المنقور ـ ثم قدم لكل واحد عصير الفواكه المثلج وقام فضيلة الشيخ محمد مع الأستاذين لأنهاء إجراءات التذاكر والجوازات..

غيم وبرق ورعد:

كان الوقت ليلا والسماء غائمة ولمعات البرق متتابعة. وكان ميعاد قيام الطائرة الساعة السابعة والدقيقة خمس وأربعين وأعلن تأجيله إلى (٨,٣٠). ثم أعلن للمرة الثانية تأجيله إلى (٩,٣٠).. وبقى الأستاذان المنقور والفطانى ـ جزاهما الله كل خير ـ معنا برغم تعدد التاخرات والتأجيلات.

وقد فهمنا فيما بعد أن هذه التأجيلات فى مواعيد قيام الطائرة كانت من جراء الحالة الجوية ونزول الأمطار الغزيرة، ووجود الرعود والبرق والصواعق..

واخيراً أعلن الموظف المختص عن إقلاع الطائرة فخرجنا إلى المخرج المخصص لنا، وودعنا الأستاذين شاكرين لهما لطفهما وأخلاقهما الكريمة، ومؤانستهما لنا مما جعلنا نشعر بأننا فى نزهة فى بلادنا.

ثم دخلنا الطائرة الضخمة متوكلين على الله، وكان المطر مازال مستمراً ولمعان البرق يضىء الكون، وهزيم الرعد يزداد ويشتد.. وجلسنا على مقعدين متجاورين ونحن نقرأ قوله تعالى: **(سبحان الذى سخر لنا هذا..)** وتحركت من موقفها الساعة (٩,٣٠) ثم وقفت ثم تحركت ثانية وثالثة.

وأخيراً وبعد جلسة استغرقت ساعتين ونحن فى جوف الطائرة النفاثة الجبارة.. تحركت آلاتها ــ ارتفع صفيرها وعندما كانت عقارب الساعة قد انطبقت فوق رقم (١٢) اندفعت إلى الأمام اندفاع الارتفاع عن الأرض، وأخذنا نرى أنوار المطار كخطوط من الضوء المبعثر لوجود المطر، ثم رأينا أنوار مدينة نيويورك فى شكل كتلة من ضوء منتشر.

وأخذت الطائرة اتجاهها نحو الجنوب الشرقى.. وسرعان ما كانت فوق مياه المحيط الأطلسى، وكأننا فى قبة احلولكت أطرافها وجوانبها فلا نرى شيئاً غير الظلام من كل جانب.. وإذا نظر الإنسان من النافذة إلى خارج الطائرة فلا يرى غير وجهه كالمرآة.

— ٢٧ —

إلى الأندلس :

إلى الأرض التى يقول فيها الشاعر ابن سفر المزينى :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطل نداء
وإنما أرج الندا استثاربها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت وجدابها أوتبدت وهى حسناء

العشاء :

وبالرغم من أن الوقت كان بعد نصف الليل ، قامت المضيفات بمهمة تقديم العشاء والشاى أوتقديم أى مشروب آخر يرغب فيه الركاب .. وكان كثير من الركاب قد استسلموا للنوم فأيقظنهم وقدمن لهم العشاء .

وبعد انتهاء دور الأكل والشرب مدت (شاشة) السينما فى مقدمة الطائرة ، وقدمت إحدى المضيفات على الركاب (على حسب رغبة كل إنسان) سماعات صغيرة مقابل دولارين ونصف دولار، ولكل سماعة (توصيلة) فى كل مقعد .. وذلك لمن شاء أن يجمع بين المشاهدة والاستماع للوصف . ثم بدأ العرض ، وكان الفيلم ملوناً وهو عبارة عن قصة قديمة من تاريخ إنجلترا عن ولد لأحد الملوك قليل الفهم ، بليد الإحساس وبذل أبوه

الملك أموالا لتثقيفه وتعليمه دون جدوى . والقصة وإن كانت جافة من حيث الحوادث ، ولكن مناظرها كانت جميلة جداً وخاصة المناظر الطبيعية كالغابات والأشجار والأكواخ والممرات الخضر والمروج الفيحاء ، والطيور الغربية ، والقصور الملكية وما بها من التحف والرياش الفاخر.. وقد شغلتنا هذه المناظر الملونة وصرفت تفكيرنا ولوحين وفى مياه المحيط المتلاطمة أمواجهه العاتية ، وأن طائرتنا على اتساعها وطولها وعرضها وكثرة ركابها ليست إلا كهباءة إذا قيست باتساع المحيط ، وإننا الآن نطير فوق ما كان يسميه الأولون (بحر الظلمات) .

ولم نكن نفكر فى مثل هذه الأفكار إلا إذا شعرنا بحركة أوميل ذات اليمين أواليسار.

ضوء الفجر :

ومع مشاهدتنا لمناظر العرض لم تكن أعيننا تفارق من حين لآخر الساعة وعقاربها .. لقد غادرنا نيويورك الساعة (١٢) أى عند منتصف الليل ، وكنا نظن أننا نقطع مسافتنا المقدرة بست ساعات بين نيويورك وعاصمة إسبانيا مدريد بإذن الله صباحاً ، ولكنا لم نشعر بعد الساعة الثالثة بتوقيت نيويورك — أى بعد قيامنا بثلاث ساعات إلا ونور الأسفار أضاء الكون ، وفى الساعة الرابعة استقبلنا أشعة الشمس يوم الجمعة ١٣٨٨/٥/٢٩ هـ الموافق ١٩٦٨/٨/٢٣ أى فى الوقت الذى يكون أهل نيويورك غارقين فى النوم العميق .

واستيقظ الركاب النائمون ، وبدأ المضيفات فى تقديم مقدمات الفطور ثم الفطور.. وكانت ذرات الرطوبة ونوع من الضباب يحول دون رؤية المحيط ومياهه .

ومكثنا فى الجو فوق مياه المحيط وفوق أراضى جزيرة ائبريا ست ساعات كاملة ، قطعنا فيها أكثر من (٣٥٠٠) ميلا تقريبا .

وشاهدنا مرتفعات مدينة مدريد أومدينة (مجريط) الأندلسية التى أنشأها محمد بن عبد الرحمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك الأموى .. ثم نزلت الطائرة بهدوء واتزان تام فى مطار مدريد، وحمدنا الله تعالى على انتهاء الرحلة فوق المحيط بسلام وأمان واطمئنان.

الأستاذ محمود شاولي :

وانتقلنا من موقف الطائرة إلى مكاتب المطار فى أتوبيس فخم تابع لشركة (تى . دبليو. أى) وعندما دخلنا إلى صالة المطار وجدنا شاباً سعودياً أمامنا، إنه الأستاذ السيد محمود شاولى القائم بأعمال السفارة الملكية السعودية فى مدريد، وكان الأستاذ السيد عبد الرحمن القاضى قد اتصل به من نيويورك وأخبره بتوجه فضيلة الشيخ محمد إلى مدريد، وبرقم الرحلة والطائرة.

وقد حضر الأستاذ السيد محمود إلى المطار فى الوقت المحدد لوصول الطائرة، ولم يدر عن التأخير الاضطرارى الذى تعرضت له طائرتنا فى نيويورك .. بذلك قضى ــ حفظه الله ــ فى انتظارنا أكثر من ساعة.

وتبادلنا التحية كما شكره فضيلة الشيخ محمد على لطفة وإضاعة وقته الثمين فى الانتظار.. وبوجوده فى المطار تمكنا من إنجاز معاملة الجوازات وإخراج الحقائب من بين الأمتعة فى دقائق، وقبل أى واحد من الركاب.. ثم أخذنا الأستاذ السيد محمود إلى مقر عمله، أى إلى السفارة السعودية حيث عرفنا بالإخوان الموجودِّين فى السفارة فى تلك اللحظة، وهم الأستاذ فيصل سمباوة، والأستاذ المترجم إياد الكيالى.

وبعد أن انتهينا من تناول الشاى والمرطبات سأل السيد الشاولى فضيلة الشيخ عن برنامج رحلته فى إسبانيا، فقال له فضيلته : إنه يريد زيارة بعض الأماكن التاريخية الأندلسية التى كانت فى يوم من الأيام مشعلاً للنور والعرفان، والحضارة الإسلامية والمجد العربى ــ وإنه سوف لا يقيم هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم يتوجه إلى باريس فى طريق العودة إلى المملكة السعودية.

وبناء على هذه الرغبة هيأ سيادته الأستاذ الشاولى سيارة خاصة ليتمكن من زيارة كل مايريده من الأماكن التاريخية كما سمح للأستاذ الكيالى المترجم بالسفارة لمرافقته فى الرحلات، فهو يتقن اللغة الإسبانية وخبير بالأماكن التاريخية، ثم رغب فضيلته أن يتصل سيادة الأستاذ محمود الشاولى بإحدى شركات الخطوط الجوية العالمية فيحجز للسفر إلى باريس بعد غد أى يوم الاثنين ١٣٨٨/٦/٢هـ، كما طلب منه أن يتصل بالسيد المستشار الثقافى السعودى بباريس ليحجز لنا غرفة فى أحد الفنادق هناك.

أما فى مدريد فكان الأستاذ السيد محمود شاولى قد حجز لنا غرفة كبيرة بفندق هلتون، وبعد انتهاء جلستنا فى السفارة أخذنا سيادته إلى الفندق، ولحرارة الجو لم يشأ أن يطيل فى الطريق، بل سلك بنا أخصر الطرق وأوصلنا ـ جزاه الله خيراً ـ إلى الفندق والغرفة، وودعنا قائلا: ترتاحون الآن وسآتيكم بعد المغرب عندما يبرد الجو وتتلطف الحرارة لنقوم بجولة فى المدينة.

وذكرتنا حرارة الجو فى مدريد نهاراً ببلادنا، ولم يكن ثمة مجال لأى عمل نصرف فيه وقتنا خيراً من النوم والراحة، فاستسلم كل منا للنوم العميق فى جو بارد مكيف.

إلى صالة الفندق:

واستيقظنا قبل موعد الأستاذ السيد الشاولى، فنزلنا إلى صالة الفندق، وكان الهدوء والسكون يخيمان عليها، فتذكرنا فنادق الولايات المتحدة وصالاتها وكيف تعج بالكتل البشرية وحركة الداخلين والخارجين.

ووجدنا الأستاذ فيصل سمباوة سكرتير السفارة فى انتظارنا، وجلسنا معه فحدثنا عن انتقاله من سفارة بنكوك السعودية إلى سفارة إسبانيا السعودية مدريد وأن الفرق شاسع بين الحياة هنا وهناك، وذكر لنا الأخ عن

انطباعاته فى إسبانيا وأهلها وميلهم إلى العرب أكثر من غيرهم من الأوربيين.

وفى هذه الأثناء حضر الأستاذ السيد محمود الشاولى وأخذنا معه فى سيارته للتجوال فى الشوارع الرئيسية لعاصمة إسبانيا (مدريد) ومناظرها لاتختلف عن أية عاصمة أوربية، بل وتمتاز بوجود قصور تاريخية على الجانبين فى معظم الشوارع.. كما أن حركة المرور فى الشوارع نشيطة، ثم أخذنا سيادة الأستاذ إلى منطقة الحدائق وهى منطقة واسعة جداً.

وقال سيادة الأستاذ الشاولى: إن مدريد من أكثر مدن أوربا ازدهاراً بالحدائق، وإن الإحصائيات أثبتت أن كل شخص من سكانها ــ برغم كثرتهم ــ فى وسعة أن يختص بمساحة معينة فى الحدائق التى كانت لملوك إسبانيا وأسرها الحاكمة التى عاشت فى منتهى البذخ والرفاهية. ولحرارة الجو كان كل اهتمامهم بإنشاء الحدائق، وغرس الأشجار، وتشييد النافورات والبرك والجداول. وأصبحت هذه الحدائق الآن حدائق عامة يخرج إليها أهل مدريد أيام عطلاتهم والسياح دوماً لقضاء يوم أويومين فى مرح وتنزه.. وبعض هذه الحدائق أصبحت جرداء إلا من الشجيرات التى تنمو فى الأحواض والممرات، وتحولت بعض الحدائق إلى غابة لوجود الدوحات.

ومما قاله الأستاذ الشاولى: إن العرب فى هذه البلاد يلاقون عطفاً كبيراً من أهلها، وقد حدث أن كثيراً من الطلاب الأردنيين والسوريين انقطعت عنهم الإعانة المالية التى كانت تأتيهم من حكوماتهم أوأهلهم فى أيام حرب اليهود مع العرب، فوقع هؤلاء الطلبة فى حرج من ناحية نفقاتهم وأجور سكنهم، فما كان من كل إسبانى يقطن عنده أحد من هؤلاء الطلبة إلا أن شمله بعطفه وقال له: لاتفكر فى شىء وابق فى محلك واعتبر نفسك واحداً من أسرتنا حتى تنتهى الأزمة.. ولم يضغط أهل الأملاك على أى طالب عربى بإخراجه من بيته أوحرمانه من التسهيلات التى كانت تقدم لهم وقت الرخاء.

وهى الدولة الوحيدة فى أوربا التى ليس لها تمثيل سياسى لدى عدو العرب والإسلام إسرائيل. كما أنها ــ أى إسبانيا ــ نشيطة فى مقاومة الحركات الشيوعية.

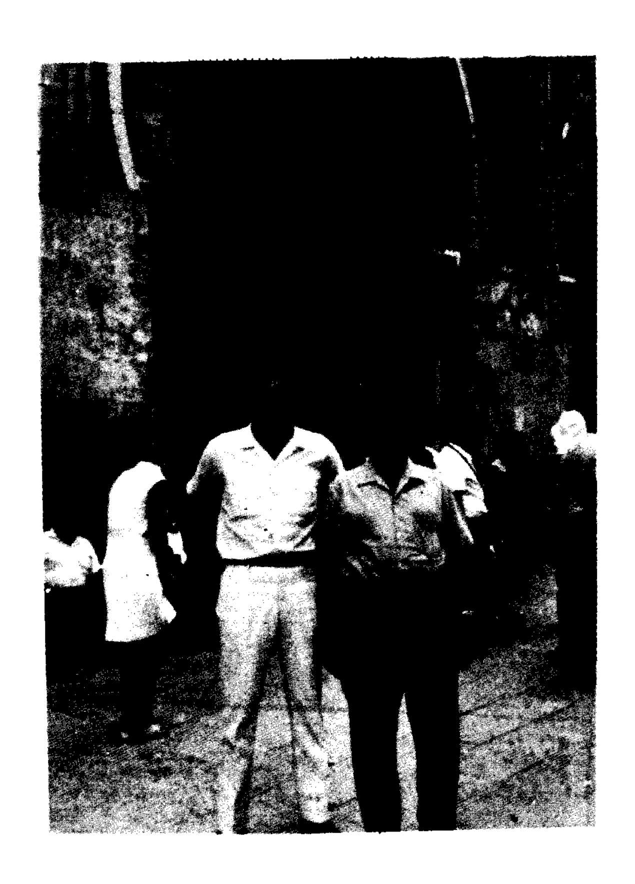
ومما أفادنا به السيد الشاولى: أنه أقيم منذ سنة احتفال أومهرجان للفيلسوف الإسلامى ابن رشيد وأزيح الستار عن تمثاله النصفى ــ ودعيت معظم الدول العربية للاشتراك فى هذا المهرجان.. وحضر مندوبو الدول، وتأخر مندوبنا، فقدمت السفارة السعودية لرئيس الاحتفال كسوة عربية فاخرة مكونة من عباءة وعقال وشال، ففرح بها الرئيس وفى يوم الاحتفال ظهر أمام الجميع فى تلك الكسوة العربية، ثم بدأ الاحتفال فتقدم إلى الحاضرين وهو مستشرق إسبانى وشكر أمامهم الحكومة العربية السعودية على هذه الهدية القيمة وقال: كنت أسمع من أقاربى أننى من أصل عربى، ولكننى لم أهتم بهذا الأمر إلا عندما قدمت لى السفارة السعودية هذه الكسوة العربية، ولبستها فوجدت نفسى فيها كأحد أبنائها ــ، وعندئذ تأكدت من أننى من أصل عربى، وأن هذا اللباس العربى ليس غريباً علىّ.

واستمرت جولتنا الليلية فى أنحاء مدريد وشوارعها الرئيسية مايقرب من ساعتين، ومناظر المدينة الليلية لا تختلف عن مناظر مدن أوربا من ناحية العمارات والأنوار وحركة المرور، وأخيراً وقبل نهاية الجولة. عرض سيادة الأستاذ محمود شاولى على فضيلة الشيخ محمد أن يوافق على تناول العشاء معه، فما وسع فضيلته إزاء مالمسه من الأستاذ الشاولى من الحفاوة البالغة، والإكرام واللطف، إلا أن يقبل ويستجيب لرغبته شاكراً، ومقدراً له هذه الأريحية.

إلى ضواحى مدريد:

واتجه الاستاذ الشاولى بنا إلى ضاحية من ضواحى مدريد الجميلة بها مطعم فخم مشهور فى العاصمة الإسبانية بأنه يقدم لرواده أطعمة عر بية،

وبالطريقة العربية، كالشواء والحنيذ. واتصل ــ بعد وصولنا إليه ــ برئيس المطعم وتكلم معه بالإسبانية.. فما كان منه إلا أن أصدر أمره إلى الخدم فهيئوا لنا موائد وكراسى فى أجمل بقعة وفى الهواء الطلق بعيداً عن بقية (زبائنه) ولم نشعر بعد دقائق إلا وكانت الموائد قد امتلأت بكل لذيذ شهى من الأطعمة العربية. وكانت أحاديث الأستاذ الشاولى تضفى على الجلسة والاجتماع روحاً كلها أنس وفرح وبشر وسرور..



ثم قمنا شاكرين لسيادته هذه الحفاوة والترحيب، وكان بود سيادته أن يأخذنا إلى نواح أخرى من المدينة التى لم نرها، ولكن فضيلة الشيخ محمد آثر الاكتفاء بما شاهد.. فرجعنا إلى الفندق حيث ودعنا سيادته متمنياً لنا رحلة سعيدة غداً مع الأستاذ إياد الكيالى إلى المدن التاريخية الأندلسية.. وبعد سهرة قصيرة مع التليفزيون نمنا مرتاحين والحمد لله.

وتجلى النهار:

وتجلى نهار السبت ١٣٨٨/٥/٣٠هـ ١٩٦٨/٨/٢٤م واستقبلنا أنوار الصباح ونفحات النسيم العليل، ونحن فى بهو الفندق فى انتظار الأستاذ الكيالى. وقد حضر فى الموعد المحدد وهو على أتم الاستعداد للرحلة..

إلى قرطبة:

وبدأنا الرحلة إلى مدينة (قرطبة) التى يقول فيها الشاعر:

دع عنك خضرة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قطر مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

أخذت السيارة تجتاز الشارع العام، وكان الهدوء والسكون يخيمان عليه لعدم خروج الناس إلى أعمالهم، ولولا أن إشارات المرور كانت (أتوماتيكية) لانطلق الأستاذ إياد بكل سرعة، ولكن الإشارات جعلته يقف من حين لآخر.. حتى خرجنا من شوارع المدينة إلى الضواحى والمزارع والحدائق، فأعطى الأستاذ للسيارة حقها من السرعة، وكان اتجاهنا نحو الجنوب، ومررنا بعدة جسور على نهر تاجوز (Tajos) وكانت الأرض إلى مدينة أرنجوز (Aranjuez) عبارة عن سهول خضر ومروج فيحاء، ثم تحولت إلى منطقة المرتفعات، وتعرف باسم (القلعة الجديدة) أونيو كاسل بالإنجليزية وبالإسبانية (كاستيلا لانيوا) وفى الناحية الغربية منها مدينة طليطلة الأندلسية. وتكثر فى هذه المنطقة التلال على امتداد الطريق، بعضها جرداء والبعض مغطاة بأشجار الزيتون لتكوين غابات فى تلك المرتفعات.. ولم تكن

الأراضى تخلو من قرى وأراض زراعية، وكل قرية أومركز أومدينة يجد الإنسان عندها جانب الطريق المعبد لوحة بها اسم تلك الأرض أوالمدينة، ومعظمها أسماء عربية محرفة مثل (بلد وليد) (فالادولد والقلعة الكالا) و(وادى الحجارة ــ جوادا لا جارا) وهلم جرا...

وكان الطريق لا يخلو من سيارات ذاهبة وآيبة تقصد مدريد.

مصيف الملوك ــ ومدينة دون كيشوت:

ومررنا بمدينة كلها حدائق ومزارع وحقول، قال الأستاذ إياد الكيالى: إنها كانت مصيفاً لملوك إسبانيا القدماء.. كما مررنا بعدها بمنطقة (مانش) أو(منجة) وقال الأستاذ الكيالى مشيراً إلى ربوة عليها بيت تعلوه مروحة هوائية من المراوح التى تدير الطواحين ــ هذه مدينة الكاتب العالمى الإسبانى ميخائيل سرفانتس صاحب القصة المشهور باسم (دون كيشوت) التى ترجمت إلى معظم لغات العالم الحية، وتخيل المؤلف عندما وصل إلى هذه المنطقة ورأى فيها ما يقرب من أربعين طاحونة هوائية، واعتبر مراوحها أنها جبابرة أنذال، وهجم عليها قائلا: تقهقروا أيها الجبناء... وأخذ يضرب أجنحة تلك المراوح برمحه.. إلخ القصة.. قال الأستاذ الكيالى إنها مشهورة، أى المدينة بالطواحين الهوائية. ومن بعد هذه المنطقة أخذنا نجتاز منطقة الوهاد والمرتفعات.

وقفة لتناول الفطور:

وفى مرورنا بمنطقة سهلة زراعية، وجدنا على شفا الطريق مقهى ومطعماً متواضعاً، فاستحسن فضيلة الشيخ محمد أن نرتاح فى هذا المكان، وفى الوقت نفسه نتناول الفطور.. والمسافرون فى هذه الناحية يأوون إلى هذا المقهى للاستراحة، ورأينا سيارات وصلت إليه من قبلنا وفى أثناء جلوسنا وقفت سيارات أخرى، وانتشر ركابها فى أطراف المقهى. وبعد ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة تحركنا، وكانت الشمس قد ارتفعت، ولكن الرياح

مازالت باردة والمناظر التى تقع أعيننا عليها تشبه كثيراً مناظر بلاد العرب وصحاريها ذات التلال والوهاد.

كنت أتخيل مدينة (قرطبة) (Cordoba) أنها مدينة أطلال وآثار وخرائب، ولكن عندما دنت السيارة منها وهى على مرتفع من الأرض بدت كإحدى المدن الأوربية، ودخلنا المدينة من شمالها فإذا شوارعها وعماراتها لا تختلف عن أحياء مدريد.. ثم تقدمنا إلى ناحية جامع قرطبة وهو الأثر الإسلامى الذى بقى بطابعه العربى الإسلامى إلى الآن.. ومررنا فى طريقنا إليه بأزقة ضيقة كثيرة المنعطفات، وبيوتها العالية لا تختلف عن البيوت القديمة فى مصر والشام والحجاز، ذات الرواشين الصغيرة كالتى كنا نشاهدها فى بيوت الأشراف القديمة بمكة وجدة. وكل بيت له باب كبير، من بعده دهليز وينتهى إلى فناء وسط الدار تتوسطه نافورة حولها شجيرات مزدهرة.

ويقول مؤلف كتاب قرطبة ريكارد مولينا (Recardo Molina) المترجم إلى الإنجليزية، عن أهل قرطبة: إنهم متأثرون بالطباع الشرقية القديمة كثيراً، فلا يقف الإنسان أمام دار أحد أوفى ساحة داره إلا ويخرج إليه صاحب الدار القريبة منه ويعرض عليه وهو يبتسم أن يتفضل إلى داخل الدار. وإذا سأله الواقف عن أحد أوعن محل ما لم يتأخر عن إرشاده إليه، أويسير معه ويوصله إلى ما يريد. وهذه الأزقة والطرق كان يسودها السكون.

جامع قرطبة :

أوقفنا السيارة فى ميدان ثم ترجلنا إلى الزقاق الذى فيه الجامع، وعندما اشتبهت الطرق على الأستاذ الكيالى سأل رجلا عن الطريق المؤدى إلى الجامع بالإسبانية فقال له الرجل: (تريد الكتدرائية)!! وقد حول الإسبان القدماء جزءاً كبيراً من الجامع ومساحات أخرى إلى كنائس وبيع، ولذلك لا يعرف الجامع عندهم إلا باسم الكتدارئية..

وأخيرا وصلنا إلى مدخل الجامع، وهو بوابة كبيرة ذات عقد كبير مزينة من أعلاها وأطرافها بنقوش عربية، وكتابات كوفية.. وقفنا أمام هذه البوابة التاريخية، وعيوننا كادت تذرف الدموع من شدة التأثر.. ولم نستطع من شدة التأثر الإطالة فى الوقوف، بل دخلنا الجامع فإذا التأثر يزداد.. وكان فضيلة الشيخ يذكرنى بازدهار الإسلام فى هذه المدينة، وكيف كانت هذا الأماكن مراكز علم ودعوة وإسلام.. وكيف تحولت إلى آثار...

إنه أى الجامع من آثار الخليفة عبد الرحمن الداخل الأموى، ثم زاد فيه الحكم الثانى، ثم زاد الخليفة منصور من الناحية الشرقية..

والأروقة والأعمدة كلها مزينة بألوان ثابتة ونقوش عربية وآيات قرآنية.. وفى ناحية من الجامع مدخل شبه مدرسة تتوسطها نخلة طويلة، تحيط بها أزهار بألوان مختلفة، وقرأت عند المحراب من كتابة طويلة متداخلة بالخط الكوفى البديع اسم الخليفة المنتصر بالله، وتحته سنة ١٥٤هـ.

وخرجنا ونحن متألمون نفسياً ولسان حالنا يردد مع أبى عبد الله بن الأبار قوله:

ياللجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمس جدها تعسا
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة	ماينسف النفس ومايزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما	جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
ياللمساجد عادت للعدى بيعاً	وللنداء غدا أثناءها جرسا

وخرجنا من الجامع إلى بعض معالم أخرى من قرطبة الحديثة، وبعد جولة قصيرة بين الشوارع الرئيسية وبعض الميادين، رغب فضيلة الشيخ محمد أن نرتاح فى مكان مناسب، ونتناول الغداء.. فذهب بنا الأستاذ الكيالى إلى مطعم جميل مزدهرة جوانبه بأشجار وزهور، بأشجار النخيل السامقة

والمياه الجارية، واختار محلا مناسبا ارتحنا فيه، وتناولنا الغداء والشاى والقهوة، ثم توكلنا على الحى القيوم وتوجهنا إلى :

مدينة غرناطة :

كانت غرناطة كما ـ يقول المرحوم كرد على ـ : قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها وخارجها، لا نظير لها فى بلاد الدنيا، وهى مسيرة أربعين ميلا يخترقها نهر شنِّيل (بالنون المشددة) وسواه من الأنهر الكبيرة... وكانت تسمى دمشق الأندلس لسكنى أهل دمشق بها.. وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار، وقد أطل عليها جبل الثلج كما أطل جبل الشيخ أوجبل حرمون على دمشق وفى ذلك يقول ابن جبير:

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها تحتك الأنهار تجرى وهى تنصب إليها

أى أن ابن جبير يشير فى قوله هذا إلى أن غرناطة فى مكان مشرف، وغوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار ودمشق فى وهدة تنصب إليها الأنهار..

ويصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

كانت السيارة تعلو وتهبط بين المرتفعات والمنحدرات التى ننزل منها إلى هذه المدينة الجميلة، وكأنها تردد مع الحجاج بن حسان قوله :

أحن إلى غرناطة كلما هفت نسيم الصبا تهدى الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل بمنهل سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها وأرض بها قلب الشجى مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبرى اللهائم الباكى إليك طريق ؟
وما شاقنى إلا نضارة منظر وبهجة دار للعيون تروق
وقد سل شنِّيل فرنداً مهنداً نمضى فوق در ذر فيه عقيق
إذا نم منه طيب نشر أراكه أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح فى الرياض أنيق

كان الطريق بين تلك المرتفعات ضيقا وذا حفرٍ، ولذلك اضطر الأستاذ الكيالى إلى التخفيف من سرعة السيارة.. والمرتفعات كانت جرداء إلا إذا مررنا بمدينة أوقرية، فالمرتفعات المجاورة لها مخضرة ولوحات أسماء الأماكن ترشد المسافر إلى أسماء القرى والمراكز، وهى منصوبة عند مبدأ الطريق المؤدى إلى تلك المراكز. ثم انحدرنا إلى أرض واسعة، وكانت الشمس قد اصفرت أشعتها لاقترابها من دائرة الأفق.

قال فضيلة الشيخ محمد للأستاذ الكيالى: من المستحسن الآن أن نأوى إلى فندق من الفنادق لقضاء الليل والاستراحة من هذا السير الطويل الذى استغرق النهار كله، ومن الصباح الباكر نقوم إلى مشاهدة المحلات الأثرية.. فوافق الأستاذ الكيالى على رأى فضيلة الشيخ وقال: هذا هو الرأى، لأن المحلات الذى جئنا من أجلها تكون كلها مقفلة لا يسمح لأحد بالوصول إليها.

البحث عن فندق مناسب:

وأخيراً وصلنا ضواحى مدينة غرناطة الجميلة، ثم دخلنا شوارعها الممتدة على استقامة واحدة، والمشجرة بدوحات عالية، ومن ورائها عمارات شاهقة.. وبعد أن توغل الأستاذ الكيالى إلى داخل المدينة، واقترب من قصر (الحمراء) التاريخى بدأ يبحث عن الفنادق، وكلما وجد شيئاً مناسباً من مظهره الخارجى وقف وسأل فيقال له بعدم وجود غرف شاغرة فيه، وكادت الشمس تغرب ونحن مازلنا فى البحث عن فندق، وعندئذ استعان الأستاذ الكيالى بجندى من جند المرور وسأله عن فندق ملائم للمبيت، فأرشده إلى فندق ليس بعيداً عن الشارع الذى كنا فيه.

وفى أقل من دقيقتين وقف الأستاذ الكيالى بالسيارة أمام فندق اسمه (فندق فرساى) واتفقنا مع مديره على المبيت، فاعتذر عن وجود غرفه كبيرة تسع ثلاثة أسرة ولذلك هيأ لكل منا غرفة، وكانت الغرف مؤثثة بأثاث من

الدرجة الوسطى.. فارتاح كل منا فى غرفته لحظات، ثم خرج فضيلة الشيخ محمد من غرفته ومر بالأستاذ الكيالى وبى قائلا: دعونا نخرج إلى بعض معالم (غرناطة) هذه لنمتع أنظارنا بمنظرها الليلى فوقتنا قصير ونؤجل الراحة لنوم الليل.

جولة مسائية وليلية:

خرجنا من الفندق والشمس على وشك المغيب نمشى الهوينا فى الشوارع التى أخذت تزدحم بالمشاة والسيارات، وأضيئت جوانبها والمعارض التجارية وأنواع الإعلانات على أشكال مختلفة ورأينا سلسلة من القمم المرتفعة تمتد من وراء العمارات ذكرتنا بجبال الحجاز.. وبقينا نسير سيراً هادئاً حتى وصلنا ميداناً مرتفعاً استهوانا فيه منظر النوافير ترتفع مياهها على شكل خيوط دقيقة، ثم تنحنى كالرذاذ إلى الأمام، وأمام هذه النوافير مقاعد من الرخام لجلوس الذين يحبون أن يستمتعوا بمناظرها الخلابة، فجلسنا مع الجالسين.. وقد عددت النوافير فإذا هى (١٥٠) نافورة على شكل نصف دائرة، ترتفع شآبيبها إلى الفضاء، ثم تنحدر فى شكل قبة من الرذاذ إلى حوض ضحل واسع.. سُلطت أنوار ملونة على هذه القبة الرذاذية، وعلى مياه الحوض فبدت صفراء وزرقاء وحمراء وبنفسجية وخضراء.. كما أخذت مياه الحوض الضحل يتلون بنفس الألوان.. منظر يشبه مناظر شلالات نياجرا بصورة مصغرة.. ولم نقم من هذا المكان إلا عندما شعرنا بمقدمات النوم أخذت تتسلل إلى الأجفان، فقمنا إلى فندق فرساى الذى ظهر لنا فيما بعد أن اسمه أكبر من جسمه.

وفى الطريق تناولنا العشاء ثم ذهبنا رأساً إلى الفندق، ودخل كل واحد إلى غرفته. كان الجو داخل الغرف يميل إلى الحرارة، فتركت نافذة (البلكونة) مفتوحة لتساعد على تبريد الغرفة لاسيما فى آخر الليل.. وقبل أن أغمض عينى للنوم سمعت فى الممر الذى بجوار غرفتى ضجة وصيحات

(وِدْقالا) من جانب النزلاء الذين بجوارى، وكانوا راجعين من سهرتم خارج الفندق وخشيت أن يكونوا فى حالة غير طبيعية، فيدخل عليّ أحدهم من باب البلكونة ظناً منه أنها غرفته، فقمت وأحكمت إغلاق الباب وآثرت أن أنام فى الجو الحار مرتاحاً مطمئناً على النوم المزعج فى الهواء البارد.. ثم ازدادت ضجة الجيران، وتحولت إلى أنواع من الإزعاج، فالبعض يضحك، والبعض يغنى، والبعض يرقص، واختلط حابلهم بنابلهم.. وبقيت وقتا طويلا يقظاً، ثم هدأت أصواتهم نوعاً مّا، وهجم عليّ النوم هجوماً لم أبال معه ببقية الضجة والأصوات.. واستيقظت فى الليل ظامئا فقمت إلى (البزبوز) لأشرب.. فوجدته يدور (على الفاضى) أى أن الماء انقطع عن الفندق، وحوقلت واسترجعت وتأكدت من أن الفندق مظهره غير مخبره، وأن اسمه أكبر من جسمه إن كان له جسم.. ورجعت إلى نومى..

واستيقظت يوم الأحد ١٣٨٨/٦/١ هـ مبكراً وحمدت الله إذ وجدت الماء قد عاد إلى (البزبوز) فشربت وتوضأت، وعدت إلى النوم بعد الصلاة.. حتى نادانى فضيلة الشيخ محمد بعد طلوع الشمس، وفتحت الباب وأخبرته بما فعله جيرانى من الإزعاج فقال فضيلته: لنحمد الله على أن عافانا.. ولولا ضيق الوقت عندما وصلنا لبحثنا عن فندق أحسن من هذا.. والحمد لله على أن انقضى الليل بخير، وتسجل ما شعرت به فى الليل من الانزعاج في ذكرياتك عن غرناطة...

وأخبرنا فضيلته بأنه لم يخل كذلك بشيء من مثل هذه الإزعاجات، ثم دخلنا مطعم الفندق وكان هادئاً لخلوه، ولأن نزلاء الفندق مازالوا فى سباتهم غارقين. تناولنا الفطور والشاى.. ثم ودعنا (فندق فرساى) وتوجهنا إلى حمراء غرناطة التى يقول عنها المرحوم شكيب أرسلان فى (الحلل الأندلسية): إنها مقصد المتفرجين من جميع الأقطار، يزورها فى دور السنة من سبعين إلى مائة ألف متفرج، وبعضهم يقيم الشهر والشهرين والثلاثة فى غرناطة، وقلما يمضى يوم إلا ويقصد فيه الحمراء حتى يمتعَ نظره بما فيها

من نفائس الصنعة، وبدائع الطبيعة لأن موقع الحمراء الطبيعى هو أيضاً نادر فى الدنيا، والحمراء مجموعة من المبانى التى شيدها ملوك بنى نصر، والذين كانوا يعرفون باسم بنى الأحمر فى أوائل القرن السابع الهجرى..

ـ ٢٨ ـ

قلعة الحمراء وقصر الحمراء :

كانت هذه الآثار الإسلامية المعروفة باسم (الحمراء) ويسميها الإفرنج (الهمبرا) (ALHAMBRA) كانت قبل ثمانية قرون تقريباً قصوراً وبلاطا لملوك بنى نصر أوبنى الأحمر، وتقع فى سفح جبال ومحاطة بسور عال كانت له أبواب متعددة، ولا يشعر الإنسان الذاهب إلى هذه الأماكن بأنه يصعد جبلا إلا بارتفاع الطريق المرصوف بالحجارة السود، وقد نبتت بعض الأعشاب بين حجر وآخر، وكذلك بين حجارة السور.

صعدنا إليها بالسيارة ومن بوابة كبيرة ذات مصراعين كبيرين دخلنا السور، ولا يسمح للسيارات إلا بالوصول إلى فسحة واسعة كأنها سطح جبل، وأرضها وجوانبها مخضرة بالأعشاب والشجيرات والأشجار. ومن هذه الفسحة يقطع كل زائر تذاكر للدخول إلى القصور والقلعة .. وتولى الأستاذ محمود إياد الكيالى مهمة قطع التذاكر.

ثم بدأنا فى التجوال، وعرض علينا الدللاء والمرشدون أن يرافقونا، ولكننا كعادتنا لم نر لهم أية حاجة ــ لاسيما والآثار إسلامية وعربية نفهمها أحسن من فهمهم لها، وبدأنا الجولة بدخول القلعة والصعود إلى أحد أبراجها الشامخة، وارتقينا بواسطة الدرج الحجرية الضيقة إلى سطحة المشرف على معظم بنايات الحمراء وبساينها، وجزء كبير من مدينة غرناطة .. ولم يصعد معنا إلى هذا السطح إلا رجل إنجليزى مع زوجته، أما بقية السياح فتوجهوا إلى القصور.. وقفنا على سطح البرج ننظر إلى الآثار التى تحتنا وأمامنا بعين العبرة والاتعاظ وفى حسرة وألم .. وأمامنا صومعة الكنيسة وناقوسها

الضخم يدق دقات متواصلة، إنه حل محل أصوات المؤذنين منذ خروج آخر ملوك بنى الأحمر أبى عبد الله من هذه القصور، خرج منها وهو يبكى ويتنهد، وأمه كانت ترافقه فتقول له: (لا تبك كالنساء مُلْكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال) وكان ذلك يوم ٣ يناير سنة ١٤٩٤م (٨٩٧/٣/٤ هـ)..

تذكرت هذا وأنا أنظر إلى تلك الآثار والصومعة صومعة الناقوس، فاغرورقت عيناى بالدموع.. فأسرعت فى النزول قبل رفاقى إلى ناحية القصور وانتظرتهم عند مدخلها..

ثم دخلنا مسجد القصر، وقد أحاله الإسبان القدماء إلى كنيسة إلا أن النقوش العربية والفن الإسلامى الأندلسى لازال محتفظاً بجماله وروعته ورونقه.. وأينما يوجه الإنسان نظره فى المسجد يجد من هذه النقوش والخطوط الكوفية فى شكل نقوش الشيء الكثير كما يرى كلمة (لا غالب إلا الله) فوق كل عقد وكل مشكاة..

قاعة الحكم:

ومن المسجد ذهبنا إلى القاعة التى كان يجلس فيها السلطان يوسف الأول ــ الملك السابع من ملوك بنى الأحمر للحكم والنظر فى قضايا الناس.

والقاعة على شكل مربع تقريباً، وبها حواجز خشبية فى الجوانب وهى عبارة عن تحف رائعة للفن الإسلامى الجميل، تتخللها آيات من القرآن الحكيم أو جمل الدعاء لخلفاء زمانه.

صحن الأسود ــ أو ــ حوش السباع:

ويخرج الإنسان من هذه القاعة إلى فناء واسع هو «صحن الأسود» فى وسطه نافورة من الرخام ينصب الماء منها إلى الحوض المدور اثنا عشر

تمثالا من الرخام على شكل السباع الصغار، يخرج الماء من فيها ويصور الشاعر ابن حمديس الصقلى ذلك بقوله :

وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
وكأنما غش النضار جسومها ... وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك ... فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا

وينزل الماء من أفواهها إلى حوض مستدير تتفرع منه أربعة جداول تجرى وسط أربعة ممرات على شكل صليب ، وكل ممر يتصل بقاعة من القاعات .



قاعة السفراء:

ومن أحد هذه الممرات دخلنا قاعة السفراء، وفى وسطها بركة مستطيلة من الرخام مليئة بالماء النمير، وقد استوى الماء فيها والأرض.

وكلما دخلنا قاعة أوجناحاً من هذه القصور وجدناه أحسن من الأول من حيث الروعة والزخرفة والنقوش. وإذا رفع الإنسان عينيه إلى سقف القاعات والمقصورات ظل مأخوذاً بما فيها من دقائق الفن الإسلامى الرفيع.. وإذا توجه إلى جدار القاعات أوحواجز المقصورات الخشبية وجدها فريدة فى زخرفتها وكتابتها الكوفية المتداخلة بعضها فى بعض كأنها أشكال هندسية.. ويتقدم الإنسان من مكانه إلى محل آخر فيجد هناك من الروائع الفنية العربية الإسلامية ماينسيه كلما تقدم، وكل ماشاهده من قبل ومن بعض العبارات التي عرفنا أن نقرأها من بين تلك النقوش والزخرفة جملة (عز لمولانا أبى عبد الله) (النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المسلمين) أما جملة (لاغالب إلا الله) فتقرأ فى كل مكان بأحرف صغيرة وكبيرة، ولكنها على طريقة واحدة كأنها (ماركة مسجلة) على حسب الاصطلاح التجارى الحديث ـ للفن الأندلسى القديم.

صور للخلفاء:

وفى سقف إحدى القاعات وهو على شكل قبة صور مكبرة لعشرة من ملوك أوخلفاء غرناطة وهم فى ثيابهم الرسمية وسيوفهم بأيديهم والعمائم على رءوسهم.. وكان أحد المرشدين يشرح لجماعة من الإنجليز هذه الصور فسمعته يقول: إنها صورة لمحمد وأصحابه. ولم أعلم هل كان يقصد بهذا الاسم الخليفة الأول أوالملك الأول من ملوك غرناطة محمد الغالب أم كان كما قال المثل العامى (من معرفته فى الصحابة يترضى عن عنتر)..

جناح الحمامات:

ثم دخلنا جناح الحمامات وهو لاينقص فى الروعة والجمال والفن عن

القاعات والمقصورات إذا لم يكن يزيد عليها من ناحية ألوان الفسيفساء الزاهية الجميلة التى تغطى الأرض والجدار..

قاعة الوزراء :

وكانت أمامنا قاعة الوزراء وهى التى حيكت حولها أساطير منها أسطورة حب إحدى بنات ملوك بنى الأحمر لشاب من الأسرة المالكة، وإن أباها الملك لما علم بالقصة أحضر الشاب وجميع أقاربه وقتلهم فى هذه القاعة.. وهذه الأسطورة مشهورة لدى الإسبان ــ كما يقول المؤرخون ــ ويعتبرها المحققون من المؤرخين العرب أسطورة من الأساطير.

واكتفينا من الجولة بين قصور الحمراء بهذا القدر، وخرجنا منها ولسان حالنا ينشد مع أبى البقاء صالح بن شريف الرندى وهو يخاطب بلاد الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثهلان
أصابها العين فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت من أقطار وبلدان
فاسأل (بلنشية) ما شان (مرسية) ... وأين (شاطبة) أم أين (جيان)
وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
قواعد كن أركان البلاد فما عسى ... البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحارب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان
يا عاقلا وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

* * * * *

عدنا إلى **موقف السيارة بعد مشاهدة آثار عظمة الإسلام** في هذه البلاد متأثرين، وفي شبه وجوم للتصورات التاريخية التي رجعت بنا إلى القرن السابع الهجري حيث كانت هذه الأراضي قواعد لملوك المسلمين وأركان حضارتهم، وأنها اليوم أصبحت آثاراً قديمة وتراثاً لأمة، وركب فضيلة الشيخ محمد السيارة وهو يقرأ قوله تعالى: **(كَم تركُوا مِنْ جنَّات وعُيونٍ * وزروعٍ ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين)**

العودة إلى مدريد:

وسلك الأستاذ إياد الكيالي طريقاً غير الذي جئنا منه فالأول يمر بمختلف القرى والمدن، أما هذا الطريق فيتجه رأسا إلى مدريد وكان الطريق إلى مسافة مائة كيلومتر تقريباً مخضر الجانبين، ثم بدأنا في منطقة المرتفعات وهي تلال قليلة الارتفاعات كثيرة التعاريج والمنعطفات، وكان الأستاذ الكيالي يسير بسرعة فائقة لنتمكن من الوصول إلى مدريد قبل غروب الشمس.

شرطة المرور:

كنا نشاهد أفراد شرطة المرور وهم على دراجاتهم البخارية مدججين بأسلحة كاملة، وأجهزة أخرى كالجهاز اللاسلكي والتليفون الأوتوماتيكي يقطعون تلك المرتفعات ذهاباً وإياباً، ومهمتهم الوحيدة هي مراقبة السواقين وتطبيق أنظمة المرور بكل دقة ومراعاة الإشارات المرسومة على اللوحات على جوانب الطريق.

وفي أحد المنعطفات خرج الأستاذ الكيالي بسيارته المسرعة عن منتصف الطريق، وكان أحد رجال المرور قادماً بدراجته البخارية من الناحية المقابلة.. فاقتربت السيارة من دراجته، فما كان منه إلا أن أوقف الأستاذ الكيالي واتصل بزميل له لاسلكياً فجاء، وسجل الاثنان مخالفة على الأستاذ إياد ولم يعبأ باعتذاره أوبكوننا غرباء وسياح.. وتأخرنا في تلك النقطة

مـايقرب من (٢٠) دقيقة، ثم واصلنا سيرنا، والأراضى التى كنا نمر بها إما جرداء أومكسوة بشجيرات الزيتون كمشروع لإقامة غابات منها أوكانت حقولا للحبوب..

وأخيراً وصلنا (مدريد) الساعة السابعة بتوقيت مدريد، أى بعد غروب الشمس، وكان الأستاذ محمود الشاولى قد حجز لنا فى فندق ممفيس فارتحنا فى الغرفة لحظات، ثم شجعنا فضيلة الشيخ محمد للقيام بجولة ختامية لمشاهدة (مدريد) فى حلة الأنوار الليلية.

وجاءنا الأستاذ إياد الكيالى رفيقنا فى الرحلة إلى الآثار العربية، وقنا معه بجولة ليلية فى الشوارع الرئيسية والميادين الكبيرة، ثم فكر الشيخ محمد فى تناول العشاء، وأبدى رغبته للأستاذ الكيالى أن يأخذنا إلى مطعم جميل فقال الأستاذ الكيالى: سآخذكم إلى مطعم تاريخى قديم أسسه صاحبه الأول قبل أكثر من قرن، ولازال اسمه باقياً إلى الآن، وكان فى أول الأمر نزلا يأوى إليه المسافرون ويجدون فيه السكن والطعام والشراب. ثم تطور مع مرور السنين فأصبح الآن من المطاعم الشهيرة بقدمها فى مدريد، ولم يكن بعيداً فوصلناه فى دقائق.. وكان مزدحماً بأجناس مختلفة من الأوربيين وبعض الشرقيين، وهيألنا الأستاذ بواسطة مدير المطعم مائدة خاصة فى أحد جوانب المطعم، وتناولنا العشاء وأحاديثنا على المائدة كلها تدور على مشاهداتنا فى غرناطة وقرطبة. وبعد العشاء رجعنا إلى الفندق حيث أخبرنا الأستاذ الكيالى أن الحجز للسفر إلى باريس قد تم فى إحدى طائرات شركة (ائبريا) الإسبانية الجوية، وستكون الرحلة غداً صباحاً، كما أفاد أن الأستاذ السيد محمود الشاولى قد اتصل تلفونياً بالسيد الملحق الثقافى بباريس ليكون فى انتظاركم. وبعد سهرة قصيرة على التليفزيون نمنا هادئين مرتاحين.

مغادرة مدريد :

ومن الصباح الباكر من يوم الاثنين ١٣٨٨/٦/٢هـ جاءنا الأستاذ السيد

محمود الشاولى بسيارته وأخذنا إلى المطار وقام الأستاذ الكيالى بإنجاز مهمة التذاكر والجوازات .. فجزاه الله خير الجزاء ...

وفى هذه الأثناء نودى على الركاب المتوجهين إلى باريس فودعنا الإخوان الكرام شاكرين لهم حسن الرعاية وكمال اللطف اللذين غمرونا بهما فى إقامتنا فى إسبانيا .

وقال لهما الشيخ محمد : إن السويعات التى قضيناها معكم سيبقى أثرها الطيب فى نفسه دوماً ويتجدد كلما تذكرناها وتذكرنا معها لطفكم وأخلاقكم الطيبة ..

ثم صعدنا إلى الطائرة وبعد خمس عشرة دقيقة من دخولنا ارتفعت عن الأرض وأخذت طريقها نحو الشمال الشرقى . وكان الضباب أوذرات الرطوبة حالت دوننا والنظر إلى الأرض ومشاهدة الأرض والجبال والمدن .

الوصول إلى باريس ومقابلة الأستاذين عبد الله الطويل وحمد الخويطر :

وبعد ساعة وأربعين دقيقة أشارت المضيفة بربط الأحزمة استعدادا للنزول فى مطار باريس ، وانخفضت الطائرة بعد تحليقها فوق أرض المطار ونزلت بكل هدوء ، وخرجنا من الطائرة إلى المطار ثم دخلنا على مأمور الجوازات فختم على جوازاتنا بسمة الدخول ، ونظرنا يمنه ويسره فإذا بالأستاذ عبد الله الطويل الملحق الثقافى السعودى فى باريس ، والأستاذ حمد العبد الله الخويطر مندوب الحكومة العربية السعودية الدائم لدى منظمة اليونسكو تقدما إلينا ورحبا ، ووقفنا معهما فى المطار فى تبادل التحايا والترحيبات ، ثم ركبنا معهما وسرنا نحو الشمال من شارع تشارلس إلى شارع شانزليزيه . حيث حجز الأستاذ الطويل غرفة فى فندق كلا ريج .. وشارع شانزليزيه (أى شارع مزرعة ليزيه) أهم وأجمل شارع فى باريس .

وبعد أن وصلنا الفندق واطمأن الإخوان على أننا والحمد لله ارتحنا، تركانا للراحة إلى الساعة الرابعة مساء ليأتينا لنخرج إلى بعض معالم باريس.. ووصف لى الأستاذ حمد الخويطر بعض الأماكن القريبة كالدكاكين والمعارض قائلاً لى: لقد سبق لك أن قدمت هذه المدينة، ولذلك أصف لك المحلات لتكون على علم فيما لوخرجتم.. فشكرته..

ثم طلبنا الشاى والقهوة. وكانت أحاديثنا كلها عن العودة وعن الطائف وعن المملكة العربية السعودية، وعما تتمتع به من نعمة الأمن والهدوء والاستقرار أما هنا فالدوائر الأوربية وجرائدها وأفكار ساساتها كانت مشغولة وقلقة من الاحتلال الروسى لتشيكوسلوفاكيا، وقال الشيخ محمد: سوف لانطيل المكث هنا أكثر من يومين، ثم نمر بالنمسا ليوم ومن ثم إلى بيروت فجدة ونكتفى الآن من أوربا بهذا القدر..

إلى المطعم التركى:

وبعد أن ارتحنا وغيرنا ملابسنا خرجنا إلى المطعم التركى، وكان كما وصفه لنا الأستاذ الخويطر قائلا: بأن معظم المسلمين الموجودين فى بار يس يأتون إلى هذا المطعم. فخرجنا إليه على الوصف، وكان مطعماً جميلا هادئاً تناولنا فيه الغذاء والشاى والقهوة.. وأراد الشيخ أن يقدم لمحاسب المطعم عملة إنجليزية فلم يقبلها، ثم قدم له دولارات أمريكية فلم يأخذها، بل أصر على (الفرنكات الفرنسية) ولم يكن لديه فرنكات فرنسية، فاضطر إلى أن يذهب معه إلى أقرب مركز للبريد حيث صرف بعض دولارات، فأخذ الرجل حسابه.. وعدنا إلى الفندق. وفى خروجنا وعودتنا إلى الفندق مررنا بكثير من المعارض والمقاهى المزدحمة بأنماط من الناس وسحناتهم تدل على أجناسهم، وكان عدد كبير منهم من شمال أفريقيا، والبعض من آسيا أوأفريقيا الغربية الوسطى، ولم يسترع الأنظار فى تلك الجموع بصورة غريبة أكثر من رؤية أسود مع شقراء أوشقراء مع أسود فاحم، وكانوا معظمهم من طلبة الجامعات على ما يظهر من الحقائب المدرسية التى يحملونها فى أيديهم..

إلى برج إيفل : (Tour Eiffal)

وفى الساعة الرابعة على حسب الموعد المحدد جاء الإخوان الأستاذ عبد الله الطويل، والأستاذ حمد الخويطر، وخرجنا معهما إلى مشاهدة برج إيفل من شارع نيويورك، وكان الزحام عند مدخله فى أول الأمر قليلا، ثم ازداد عدد من السياح الشرقيين والغربيين، وصعدنا رأسا إلى أعلى نقطة فى البرج حيث شاهدنا باريس إلى مدى ما ساعدنا البصر، وساعدنا كذلك الضباب، ولم يكن كثيفاً، وقد شرح لنا الإخوان مدينة باريس وكثيراً من معالمها، فهذا نهر السين (La Seine) يخترق المدينة من الجنوب الشرقى مكوناً فى مجراه قوسا أعلاه يصل إلى مسلة كونوكورد، وامتداد المدينة شمال النهر أكثر من الجنوب كما رأينا غابة بولونيا فى الغرب، ومحطات الإذاعة والتليفزيون وقوس النصر .. ولا إزدحام العمارات وكثرتها يظن الإنسان أن ليس هناك شوارع أو طرق بين تلك العمارات التى تبدو وكأنها متلاصقة مع بعضها..

ثم نزلنا إلى القسم الأوسط من البرج حيث توجد بعض محلات لبيع التحف والتذكارات عن باريس، كما بها صناديق لاستقبال الخطابات المرسلة. وقد أرسلت عدة بطاقات مصورة إلى الطائف وبعضها من فضيلة الشيخ كتذكار لوصولنا إلى هذا البرج..

إلى مسجد باريس والمركز الإسلامى:

ونزلنا من برج إيفل وتوجهنا إلى الجنوب الشرقى مارين بعمارة (بانثيون) (Panthéon) ـ الشامخة تعلوها قبة كبيرة، وكانت فى القديم كنيسة، واتخذت من سنة ١٧٩١م (١٢٠٦هـ) مدفنا لشخصيات فرنسا الشهيرة كفولتير Voltaire وفكتور هيجو Victor Hego وجان جاك رسو Jan Jacques R. وجان جوزيه. وقد أصبح هذا الاسم أى (بانثيون) يطلق على كل مقبرة تكون خاصة بالعظماء ومن شارع جيفروى دخلنا إلى ناحية مسجد باريس أو المركز الإسلامى، دخلنا المسجد ومساحته ليست كبيرة، ولكنه من حيث النقوش والهندسة العربية الرائعة يعتبر نموذجاً للفن العربى الأندلسى الجميل.

وبعد أن استمتعنا بمشاهدة جميع أجزائه خرجنا إلى المركز الإسلامى حيث جلسنا فى مقصف تابع للمركز يديره رجل مغربى كبير السن، وشربنا عنده الشاى الأخضر بالنعناع .. وبجوار المسجد قسم لتعليم أطفال العرب القراءة والكتابة العربية، والقرآن الكريم ومبادئ الدين واللغة العربية .. وثم مستوصف وحديقة أنيقة ومكتبة تابعة للمركز، وبالمكتبة قسم خاص لحفظ الوثائق الإسلامية التاريخية.

وفى النهاية دخلنا معرض المركز لمشاهدة المنتوجات العربية المعدنية والجلدية والخزفية والمنسوجات ..

وعند مدخل المسجد صندوق لجمع الإعانات للمسجد والمركز، وقال الإخوان: إن المسجد يزدحم بالمسلمين يوم الجمعة وفى صلاة العيدين، وتتصل الصفوف من المسجد إلى جزء كبير من الشارع.

ولا تنقطع زيارات إخواننا المغاربة المقيمين فى باريس لهذا المركز. وفى أثناء وجودنا رأينا جماعات منهم تدخل المركز، وكان القائم بشئون المركز يستقبلهم وكثير منهم يأتون لتناول الشاى الأخضر على الطريقة المغربية.

الحى اللاتينى : (Latin Quarter)

وبعد خروجنا من المركز الإسلامى، مربنا الإخوان بالحى اللاتينى الذى يسميه الدكتور زكى مبارك حى الشباب ويقول: إن أحد الأساتذة الفرنسيين وهو موسيو هوج ألقى مرة محاضرة فى الجامعة عن ذكرياته بهذا الحى، وأورد بعض نوادر الطلبة الساكنين فى هذا الحى وأهمها أنهم يغالطون أصحاب الأملاك فى أجور مساكنهم. وكانت شوارع الحى اللاتينى هادئة من الحركة والنشاط، وذلك للعطلة الصيفية وذهاب معظم الطلاب إلى بلادهم.

بناية جامعة السربون (Sorbonne)

ومر بنا الإخوان من ناحية بنايات جامعة سربون التى وضع أساسها سنة (١٢٠٠م) (٥٩٧هـ) أحد أغنياء (روبرت دوسربون) وكانت فى الأصل منزلا كبيراً يسكنه الطلبة الفقراء، ثم أخذت تتطور وتنمو حتى صارت من أشهر جامعات أوربا.

وأعيد بناؤها سنة ١٨٨٩م (١٣٠٧هـ) وسميت باسم سوربون الجديدة، وقبل الحرب العظمى الثانية كانت هذه الجامعة تستقبل سنويا (١٣٠٠٠) طالب من مختلف أقطار العالم..

وقال الأستاذ الخويطر: إن سبب إنشائها أن (روبرت دوسوربون) عندما رأى أن جامعة باريس جامعة لاهوتية تابعة للبابا فى روما فكر فى إنشاء جامعة مستقلة عن سلطة البابا، فوضع أساس هذه الجامعة وأول ما فتح فيها من الكليات كلية الوثائق، أى دراسة الأنظمة والقوانين التى كانت متبعة فى تلك الأيام، ولم يكن لها أساس مدون. وعندما تأسست هذه الكلية بدئ فيها فى دراسة الأنظمة والقوانين، ثم على مرور الزمن تحولت هذه الكلية إلى كلية الحقوق وإلى كليات أخرى.

— ٢٩ —

إلى جبل مارتر (مونت مارتر): (Mont Martre)

وسار الإخوان — الأستاذ حمد الخويطر والأستاذ عبد الله الطويل — بسيارتهما من الحى اللاتينى وجامعة سوربون إلى بناية — ساكرى كير (Sacré-Coeur) — الواقعة على جبل مونت مارتر — مارين بحديقة لكسمبرج (Luxembeurge) الفيحاء، ومن الشارع — بول ميشى — الواسع الممتد مررنا بعمارة بانثيون.. كما مررنا بكنيسة نوتردام (Notredam) المشهورة وفندق المدينة الكبير ومن ميدان النصب التذكارى للجمهورية إلى جبل مارتر.

وقال الاستاذ حمد الخويطر عن هذا الجبل: إنه كان مسكناً لطبقة الفقراء، ثم بنيت به كنيسة عام ١٩١٤م عرفت باسم ساكرى كير — أى القلب المقدس، وطرد جميع الفقراء من تلك المنطقة وحل محلهم الأغنياء الأرستقراطيون.. وأقيمت بالقرب من الكنيسة محلات ومقاه يجتمع فيها الوجوديون.. وثم ميدان مزدهر بدوحات شامخة يجلس تحتها وتحت مظلات أخرى نفر من المصورين والمصورات يرسمون من يتقدم إليهم بأجرة بواسطة ريشة الرسم — لا الكاميرا — بسرعة متناهية..

وكان المكان برغم اتساعه مزدحماً بهواه هذا النوع من الرسم من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم من الشرقيين والزنوج.. وكثير من الناس يصعدون إلى هذا المكان لمشاهدة باريس فهو يشرف على معظم أجزائها وفى عودتنا ونزولنا من الجبل، وقفنا عند نقطة بدت منها باريس أمامنا كأنها خريطة مجسمة ملونة..

مقبرة صغيرة :

وفي رجوعنا من الجبل مررنا بمقبرة صغيرة وسط أراض مخضرة، وقبورها متقاربة فقال الأستاذ الخويطر: لقد بيع المتر الواحد المربع في هذه المقبرة بما يساوي (٣٠) ألف ريال...

كانت السماء مكفهرة بالغيوم الداكنة والبرق يلمع والرعد يجلجل، ثم بدأت قطرات المطر تنزل وأخذ الناس يهربون من الطرق إلى المقاهي أو المظلات حتى وقف المطر وأسرعنا كذلك إلى السيارة.

قصر الأليزية :

وفي عودتنا من (مونت مارتر) مر بنا الإخوان على قصر الإليزية (Palais de L'Elysée) مقر رئاسة الجمهورية، وكانت الأنوار حوله خافتة لا تدل على أنه قصر رئاسة الجمهورية ورجال الحرس الجنود يقفون على مسافات بعيدة..

ثم مررنا بتمثال البطلة الفرنسية (جان دارك) التي حاربت الإنجليز حوالي سنة ١٤٢٩م - ٨٣٣هـ - ثم مررنا بقوس النصر بميدان النجمة والمسلة المصرية.. حتى وصلنا الفندق.

زيارة قصر فرساي :

وفي يوم الثلاثاء ١٣٨٨/٦/٣هـ جاء الأستاذ حمد الخويطر مع الأستاذ محمد علي قطان وخرجنا معهما إلى ناحية مدينة فرساي التي تبعد عن باريس مايقرب من ٢٢ كيلومتراً في الجنوب الغربي من باريس، واشتهار هذه المدينة أو هذه الناحية جاء عن طريق هذا القصر الذي نزوره مع الإخوان، وهو محاط من كل جهة بحدائق واسعة ممتدة إلى أكثر من مد البصر، وبها كثير من البحيرات والنافورات.

بـنـى هـذا الـقصر لـويـس الـثـالـث عشر، ولـويـس الـرابـع عشر (Louiss XIII & XIIII) ملوك فرنسا لقضاء أوقات فراغهما فى الصيد والترفيه، ويقول المطلعون: إن لويس الرابع عشر أنفق على بنائه وزخرفته ما يساوى مائة مليون دولار، وطوله يزيد على نصف ميل، وبه مئات من الغرف وأشهر غرفة تاريخية هى غرفة المرايا.. وذكر المؤرخون أن ما كان يجرى فيه من أعمال اللهو والفساد والخلاعة والإسراف كل ذلك كان سببا من أسباب قيام الثورة الفرنسية.

وهذا القصر معروف باسمه لدى كل مثقف، فقد اشتهرت معاهدة فرساى التى وقعت فى هذا القصر، ووضعت بموجبها الحرب العظمى الأولى أوزارها سنة ١٩١٩م ١٣٣٨هـ، وتم التوقيع على هذه المعاهدة فى غرفة المرايا من قبل ٣٢ مندوبا.

ودخلنا معظم الغرف الكبيرة والمشهورة بأسماء ملوك فرنسا وزوجاتهم، و جُدُر الغرف الكبيرة عبارة عن لوحات فنية تاريخية، رسمها أشهر الرسامين فى تلك الأيام.. وإذا وقف الإنسان أمام بعض هذه اللوحات والرسوم وأطال النظر إليها.. يتناسى أنه أمام رسم، بل يظن أنه أمام منظر حقيقى.

ودخلنا غرفة قال الأستاذ حمد الخويطر: إنها غرفة الملكة (مارى أنطوانيت) ثم أرانا النافذة التى أشرفت منها على الجموع المحتشدة تحت القصر من أفراد الشعب الفرنسى الجائع تطالب الدولة بما يقيمون به أودهم وهو الخبز، ليسدوا به جوعهم فسألت وصيفاتها عن سبب تجمعهم فقلن: إنهم يطلبون الخبز لأنهم لا يجدونه، فقالت لهن: ليأكلوا (الجاتو).

جميع الغرف مؤثثة بأثاثها القديم الفاخر الذى أصبح الآن نادر الوجود، وجميع النقوش على الجدار والأبواب والنوافذ مكسوة بطلاء الذهب، ولا يستطيع الإنسان أن يمر بجميع أجزاء القصر فى زيارة واحدة.

وأمام القصر فناء واسع مبلط بحجارة سود فى وسطه تمثال للويس الرابع عشر، وهو على جواده.

جولة فى الحديقة :

ثم قمنا بجولة فى الحديقة، أى الأقسام القريبة من القصر، استغرقت ساعة تقريباً ومررنا بأجزاء من الحديقة نسقت أحواضها وما فيها من الزهور على شكل سجاد ملون ومزين بأشكال هندسية بديعة. أى أنها تبدو لمن يراها من بعد كسجاد صينى من النوع الممتاز.. ومررنا ببحيرة وسط الحديقة على شكل صليب.. وأخيراً شعرنا بالتعب الذى اضطرنا إلى الجلوس فى كازينو جميل بين الأشجار والأعشاب، والمياه الجارية، والروائح الزكية المتصاعدة من الأزهار والأعشاب.. وتناولنا الشاى والقهوة، ثم عاد بنا الأستاذ الخويطر إلى الفندق. وقال: إنه سيعود إلينا فى المساء.

إلى غابة بولونيا :

وجاء الأستاذ الخويطر مع الأستاذ عبد الله الطويل على حسب الوعد فى المساء، وخرجنا معهما إلى غابة بولونيا، وهى المنطقة الخضراء الواسعة والممتدة طولا من منطقة نيلى شمالا إلى حدائق البرنس جنوبا.. وتتخلل الغابة شوارع وطرقات وممرات وبحيرات ونافورات.. وقد توغل الإخوان بالسيارة إلى مسافات شاسعة لاتقع الأعين فيها إلا على الأشجار الباسقة، والأرض المخضرة، والمياه الجارية أوالمتدفقه فى أشكال متنوعة، وألوف من الناس منتشرون ولكنهم لاتساع الأراضى لايرون إلا كأنهم جماعات صغيرة.. وبعد أن استمتعنا بمشاهدة ما قدرنا على مشاهدته، رجع بنا الإخوان إلى مقصف لطيف فى جز يرة صغيرة تعرف جزيرة الجزائر، ولا يصل الإنسان إلى المقصف إلا فى قارب بخارى جميل. فركبنا مع غيرنا من رواد هذا المقصف، ووصلنا إلى الكازينو فى هدوء وسكون، واختار الإخوان مجلساً تمتد فوقه فروع الدوحات السامقة، وأمامنا مياه البحيرة،

ومنظر القارب وهو ينقل الناس الذاهبين والقادمين مما يزيد المنظر بهجة وروعة، مكثنا في مجلسنا أكثر من نصف ساعة في تناول الشاي والقهوة والببسي.. ثم ركبنا الزورق ثانية إلى البر، ومن ثم ركبنا السيارة وأخذنا الأستاذ عبد الله الطويل إلى منتزه آخر حيث أعد لنا ـ حفظة الله ـ عشاء فاخراً، واستغرق تناولنا للعشاء أكثر من ساعتين بين الأشجار والأنوار والأزهار والورود والرياحين ولطف الداعي وأحاديثه الجميلة العذبة.. ثم قمنا شاكرين له أريحته وكرمه ورجعنا إلى الفندق.

أحاديث الجولات :

كان الإخوان الأستاذ حمد الخويطر والأستاذ عبد الله الطويل حريصين على أن يزودونا بكمية كبيرة من المعلومات العامة عن فرنسا وباريس خاصة.. ولو سجلتها في حينها لشغلت جزءاً كبيراً من الرحلة، ولكن تركتها للذاكرة فلم تحتفظ إلا بالنقاط الآتية:

مستوى المعيشة في باريس مرتفع جداً، وأجور المساكن المحترمة غالية، وأن كثيراً من الشائعات عن باريس لا حقيقة لها، إن القانون الفرنسي قاس جداً على كثير من المخالفات الأخلاقية. والضرائب باهظة على الإنتاج والاستيراد، وأن الحكومة الفرنسية بالاشتراك مع بريطانيا باذلة كل نشاطها في إخراج الطائرة الجديدة كونكورد التي تزيد سرعتها على سرعة الصوت بدرجات، وفي إمكانها أن تقطع المسافة بين نيويورك وباريس في ثلاث ساعات وتحمل مايقرب من مائتي راكب..

وأنه توجد في المكتبة العامة لباريس مئات المخطوطات العربية، ومئات الكتب التاريخية عن البلاد العربية من بينها كتاب قديم عن الحجاز لمؤلف أوربي في عدة أجزاء، وأحسن سيارة لدى الفرنسيين الآن هي (سترون) وأن غابة بولونيا ومنتزهاتها هي أكبر متنفس لأهالي باريس، وأن في طريق المطار نقطة حددت فيها سرعة السيارات، فإذا خالفت السيارة الأمر ومرت

بسرعة أكثر فهناك آلة إلكترونية تسجل رقم تلك السياة من تلقاء نفسها، ثم تطارد من قبل البوليس لتطبيق الجزاء على السائق.

إلى فينا :

وقد أنهى فضيلة الشيخ محمد آل الشيخ الحجز للسفر إلى فينا بواسطة الأستاذ عبد الله الطويل، وأن يكون السفر غداً يوم الأربعاء ١٣٨٨/٦/٤ هـ. ولم نتم هذه الليلة إلا والحقائب جاهزة للسفر.

— ٣٠ —

مغادرة باريس:

نظرنا إلي الساعة ــ يوم الأربعاء (٤/٦/١٣٨٨)م (٢٨/٨/١٩٦٨) فإذا هي تشير إلى السابعة صباحاً بتوقيت باريس، وهذا هو موعد مجيء الإخوان الأستاذ عبدالله الطويل، والأستاذ حمد الخويطر، فنزلنا من الغرفة إلي الإدارة وقام فضيلة الشيخ محمد بمحاسبة مدير الفندق علي الإقامة مع النفحة المعتادة.



وفي هذه الأثناء كان الأستاذان قد وصلا إلينا، فركبنا معهما إلي المطار مارين من النفق الممتد من وسط المدينة إلى خارجها، من ناحية المطار وذلك اختصاراً للوقت، لأن السير في الشوارع يعرض لوقفات المرور الاضطرارية .. أما السير في النفق فهو في اتجاه واحد ولا يتعرض للوقفات .. حالما وصلنا المطار. سجلنا الجوازات والتذاكر وسلمنا الحقائب لموظفة وضعتها مع بقية الحقائب فوق مايشبه المصطبة، فارتفعت وسارت إلي نقطة أخرى، ومنها إلي عربة المطار، ثم إلى الطائرة وكل ذلك انتهى في أقل من دقيقتين.

وكان في الوقت فسحة فأخذنا الإخوان إلي سطح المطار لمشاهدة حركة الطائرة المسافرة والقادمة، كما شاهدنا الطائرة الفرنسية (كونكورد) وهي جاثمة في الأرض وتشبه الجرادة التي يسميها الأطفال عندنا (حمار الشيطان).

اقتراب موعد الرحلة:

وعندما اقترب موعد قيام الطائرة نزلنا من سطح المطار إلى الصالة، حيث ودعنا الإخوان الكرام الأستاذ حمد الخويطر، والأستاذ عبدالله الطويل، شاكرين لهم حسن وفادتهما وحرصهما علي تزويدنا بأكبر قسط من المعرفة عن معالم مدينة باريس بواسطة المشاهدة والزيارة والمرور، وشرح الأوضاع والمجتمع والمشاكل التي قد يلاقيها العرب خاصة في هذه الأيام من قبل الدعاية الإسرائيلية ضدهم، فهي تبذل مجهودات كبيرة بواسطة الدعاية لتضليل الرأى الأوربي ضد العرب والدول العربية بمختلف الوسائل .. لقد شكرناهما ودعونا لهما بالتوفيق وسداد الخطى في جميع أعمالهم ..

إلي الطائرة:

وخرجنا من الباب الخاص برحلتنا إلي الأتوبيس الملتصق بالباب، ثم تقدمنا إلى الطائرة النفاثة الضخمة التابعة لشركة (ايرفرانس) ودخل ركاب

الدرجة الأولى من الباب الأمامي، وأهل الدرجة الثانية من الباب الخلفي. وبقينا في الطائرة مايقرب من عشرين دقيقة ثم تحركت وأخذت مناديل المودعين تلوح للمسافرين.. وارتفعت الطائرة في فضاء باريس..

ميدان النجمة وقوس النصر:

وشاهدنا من الفضاء ميدان النجمة المدور حول قوس النصر، والشوارع تتفرع من هذا الميدان إلى الجهات الأصلية والفرعية، وعددها (١٢) شارعاً أوسعها وأكثرها امتداداً شارع شانزليزيه المشهور، كما بدت غابة بولونيا بخضرتها والمدينة كلها ظهرت خضراء لكثرة حدائقها وأشجارها.. وما هي إلا ثوان معدودات حتى اختفت كل هذه المناظر وظهرت مناظر أخرى، مناظر الأنهار والأراضي الخضر.. وكانت الطائرة متجهة نحو الشرق مرة، والجنوب الشرقي تارة أخرى، فاجتازت ومرت من فوق سهول لوريان الغربية، وحوض نهر الرين والأراضي الألمانية ومرتفعاتها وأنهارها ثم دخلت حدود النمسا.. ولكن لم يكن شيء من المناظر تحتنا غير كتل من السحب الغبراء.

في مطار فينا:

استمرت الطائرة في طيرانها مايقرب من ساعة تناولنا فيها الفطور، وقدمت شركة (ايرافرانس) بعض هدايا صغيرة لركاب الدرجة الأولي ثم أعلنت المضيفات عن الوصول إلي سماء (فينا) وطلبن من الركاب ربط الأحزمة كالمتبع، وحلقت الطائرة فوق أجزاء من (فينا) لم نتبين منها غير نهر الدانوب وهو يخترق المدينة من شمالها الشرقي.. ثم نزلت الطائرة إلى الأرض بهدوء تام وسرعة فائقة وحمدنا الله على الوصول سالمين..

إلى مكتب الجوازات ومقابلة الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن ابراهيم:

خرجنا من الطائرة إلى الأتوبيس لأن الطائرة وقفت بعيدة عن المكاتب، ووقف الأتوبيس على مدخل مكاتب المطار، ودخلنا ممراً ضيقاً

لا يمر منه غير شخص واحد يعرض جوازه على مأمور الجوازات، ويأخذ منه سمة الدخول ويخرج إلى صالات واسعة.. وخرجنا إلى الصالة حيث كان الشيخ عبدالملك بن عبدالله بن إبراهيم الملحق الثقافي في فينا في انتظار الشيخ محمد بن حسن آل الشيخ فتقدم وسلم عليه وعلى كاتب السطور، وبعد انتهاء تبادل التحايا أخذنا الشيخ عبدالملك إلى حيث تأتي الحقائب وبمجرد ما وصلت أخذها إلى السيارة سائقها النمساوى.

الحجز إلي بيروت:

وأبدى الشيخ محمد رغبة للشيخ عبد الملك أن يحجزلنا من الآن إلى بيروت في إحدى الطائرات المتوجهة غداً أوبعد غد على أكثر تقدير.. ولم يشأ الشيخ عبدالملك أن يوافقه في رغبته هذه حباً من أن يمكث في (فينا) أسبوعاً أوخمسة أيام على أقل تقدير، ولكن الشيخ محمد أصر علي رغبته لعدم تمكنه من التأخر، وأخيراً وافق ودار مع سائق سيارته علي مكاتب الشركات الجوية باحثاً عن طائرة متوجهة إلي بيروت فلم يجد إلا طائرة واحدة تقوم بعد غد وهي تابعة لشركة الشرق الأوسط للخطوط الجوية، فحجز فيها وقطع تذكرتين في الحال. وقد عمل الشيخ محمد هنا بقول الشاعر:

وأحزم الناس من لومات من ظمأ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

فلم يخرج من مطار (فينا) إلا وقد حجز للخروج والمغادرة.

إلي فندق وندل:

ركبنا مع الشيخ عبد الملك آل الشيخ إلي فندق وندل في قلب فينا في شارع (بيترس بلاتز) حيث حجزلنا غرفة تطل علي الشارع.. وجلس الشيخ عبدالملك معنا لحظات يتحدث مع فضيلة الشيخ محمد، ويسأله عن الكبير والصغير من آل الشيخ في الرياض وفي مكة والطائف، وعن أخبار الرياض

وغير الرياض، وأخبار وزارة المعارف، ثم استأذن وخرج على آن يعود بعد ساعة ليأخذنا إلى تناول الغداء في أعلى مطعم في فينا فشكره فضيلة الشيخ علي ذلك.

وقضينا مايقرب من ساعة في الاستراحة والتحدث عن ماضى الرحلة، وأن الإنسان ــ كما يقولون ــ طير بلا جناح، فقد كنا قبل أيام ماوراء المحيطات في الدنيا الجديدة، وتذكرنا القلق الذى ساورنا ونحن في أرض تشبه الصحراء وراء جسر الباب الذهبي في مدينة سان فرانسسكو بعد أن عبرنا الجسر، ووقفنا في انتظار عودة الأتوبيس الذى نقلنا إلى هناك، وكانت الشمس على وشك الغروب والسيارات التي تمرنا كلها خصوصية، وتمربنا في سرعة البرق.. وقد أنقذنا الله من تلك الورطة بتاكسي كأنه مرسل إلينا، وعادبنا إلي فندقنا بسان فرانسسكو. وقد أصبحت كل هذه الحوادث ذكريات، والحمد لله على أن وقانا كل سوء، ونطلب الله أن يردنا إلي بلدنا وأهلنا سالمين معافين...

غداء دوّار علي ارتفاع ٢٥٢ مترا:

وجاء الشيخ عبد الملك آل الشيخ علي موعده، بل قبله وركبنا معه إلى برج الدانوب الذى يعرف عند القوم باسم (دوناى ترم) وهذا البرج مشيد على شكل مئذنة على الشاطىء الشرقي لنهر الدانوب وسط حديقة عامة، ممتدة إلى مسافات شاسعة... ويقدر ارتفاع البرج عن سطح البحر بـ(٢٥٢) متراً ويعتبر في أوربا كلها بالنسبة إلى علوه العمارة الثانية.

ويتكون من طابقين، وفي كلا الطابقين مطاعم ممتازة ومقاصف فخمة، وكلا الطابقين يدوران حول المحور الأوسط بهدوء وبطء لا يشعر به الجالسون. نوافذهما مغلقة بزجاج شفاف، ولا يشعر بدوران البرج إلا دقيق الملاحظة إذا دقق النظر إلي المناظر الخارجية لمنظر نهر الدانوب والحدائق الواسعة والشمس إذا كانت السماء صافية. ويصعد إليه الرواد بمصعد كبير في أقل من

ثانية .. وعندما جلسنا في إحدى صالاته كانت الشمس علي أيماننا ، وبعد دقائق رأيناها علي يسارنا .

وقد هيأ لنا الأستاذ الشيخ عبدالملك جناحاً خاصاً ، وبعد استراحة قصيرة في تناول القهوة والببسي أخذت أطباق الأطعمة المختلفة ترص فوق الموائد حتي ازدحمت ، وكان المكان والمناظر وتغيرها تباعاً ، ولطف الشيخ عبدالملك آل الشيخ كل ذلك جعلنا نطيل في تناول الطعام والشاى .. ثم قمنا داعين للشيخ عبدالملك بالخير المزيد والتوفيق والعون .. ونزلنا إلي الحديقة . ومشينا إلي مسافة طويلة على الأقدام ، مررنا فيها بجماعة من النمساويين يلعبون الشطرنج تحت دوحة عظيمة . ورقعة الشطرنج عبارة عن ساحة من الأرض مبلطة بمربعات مساحة كل بلاطة ربع متر مربع تقريباً .. والبياذق وغير البيادق كأنها أعمدة صغيرة من الخشب طول الواحد نصف متر تقريباً وللاعبين مساعدون يحركون مايراد تحريكه بإشارة من أحد اللاعبين ..

ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلي الفندق ..

— ٣١ —

جولة ليلية في فينا:

بقينا في الفندق إلى الساعة التاسعة بتوقيت فينا أى إلى ما بعد العشاء، ثم خرجنا مع الشيخ عبدالملك بن الشيخ من شارع سنجر إلى الحديقة العامة (ستادبارك) وهي حديقة واسعة جداً بها عدد من المقاصف، اختارلنا الشيخ مقصفاً ممتازاً لتناول العشاء والشاى، وقضاء سهرة قصيرة. وكانت أماكن الجلوس مهيأة في الهواء الطلق، وبين الأشجار والأزهار، ولألأة المصابيح الخافتة والوهاجة، فذهبنا إلى مقاعد بعيدة عن الناس.. وكان أمامنا بين الجالسين من هو سابح في خياله، وآخر يبدو عليه القلق كأنه في انتظار أحد، وجماعة مختلطة لا تسمع لهم غير القهقهات العالية المتواصلة، ونفر شغلهم الأكل والشرب في هدوء وبطء، وفريق عملهم الحملقة في الجالسين والداخلين والخارجين، والتعليق على حركاتهم وسكناتهم فيما بينهم، والبعض قدموا بأطفالهم فهم يلعبون ويمرحون بألاعيبهم، كل واحد



دائر في مداره، كما كانت الحركات التوقيعية قائمة على قدم وساق.. مكثنا في هذا الجو الهادى بالنسبة لما حولنا، والمصاخب الصارخ لمن هم على مسافة منا.. مايقرب من ساعة ونصف ساعة، ثم رجعنا إلي الفندق.

في مكتب الشيخ عبد الملك آل الشيخ:

وفي يوم الخميس الموافق ١٣٨٨/٦/٥ الموافق ١٩٦٨/٨/٢٩ زرنا مكتب الملحق الثقافي السعودى الشيخ عبدالملك بن عبدالله آل الشيخ، حيث اطلعنا على جرائدنا المحلية بعد زمن طويل، فسررنا جداً لها وقرأنا جريدة الندوة وجريدة المدينة وجريدة عكاظ، واطلعنا كذلك على المجلة التي يصدرها الأستاذ البواردى في بيروت.

الاتصال ببيروت:

واتصل الشيخ محمد آل الشيخ من المكتب بالملحق الثقافي في لبنان الأستاذ عبدالمحسن المنقور، وأخبره بساعة التوجه من فينا وأن يحجزلنا في فندق ريجنت ببيروت.

جولة صباحية:

كان الشيخ عبد الملك مشغولاً بأعمال المكتب الرسمية، فاضطر للبقاء وأرسل معنا الأخ عبدالرحمن بن موسى في سيارته ليرافقنا ويأخذنا إلى بعض معالم المدينة فبدأ الأخ عبدالرحمن بن موسى الجولة نحو الجنوب الغربي من المدينة، ثم دخل شارع (ماريا) التجارى الهام في فينا، ويمتد نحو الجنوب الغربي إلى مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً، وكان مزدحماً بالسيارات والدراجات النارية والعادية والأتوبيسات والمشاة، حتى وصلنا إلي قلب المدينة ووقفنا أمام قصر الإمبراطورة ماريا وهو من القصور التاريخية التي يؤمها السياح..

دخول القصر:

ودخلنا القصر بعد قطع تذاكر خاصة للدخول، وللقصر حديقة واسعة عند مدخلها عدة ممرات طويلة لها حواجز من الأشجار المشذبة على شكل جدار مرتفع، ممتد على جانبي الممرات، وعند المنعطفات تنعطف هذه الحواجز الشجرية السامقة في وضع رائع. ويستمتع المار من بين هذه الحواجز الشجرية بالنسيم العليل الذى يتخلل أوراقها وأماليدها، حاملاً معه روائح الأزهار والأعشاب. كما تبقى الممرات ــ لعلو الحواجزــ بعيدة عن وصول أشعة الشمس إليها. ثم صعدنا إلى الطابق الثاني حيث الإبهاء الفسيحة، والغرف الواسعة، والممرات الممتدة، وجميع هذه الأماكن بأرضها وجدرانها وسقوفها مكسوة بقطع من الرخام الأبيض الناصع، يبلغ طول القطعة الواحدة ثلاثة أمتار، وأكثر الغرف والأبهاء والممرات عبارة عن متاحف فنية لكثرة ما بها من النقوش الجميلة والرسوم البديعة النادرة، واللوحات الفنية التي تكاد تكون ناطقة من دقة رسمها وبراعة فنها.

متحف للآثار:

وخصص جناح من هذا القصر للآثار المصرية القديمة، وبعض الآثار الإفريقية، وأشياء أثرية أخرى من جنوب الجزيرة العربية. واستغرقت جولتنا في هذا القصر ما يقرب من ساعة ونصف ساعة.

إلي حديقة الحيوان:

كان بود الأخ عبد الرحمن بن موسى أن نزور قصراً آخر ومتحفاً قريباً من هذا القصر، ولكن الشيخ محمد آل الشيخ أحب الاكتفاء بما شاهد في هذا القصر وقال: (القصور والمتاحف يشبه بعضها بعضاً، فالذى لم نره نقيسه على ما رأيناه لأن رؤية جميع القصور والمتاحف يحتاج إلى وقت طويل).

وبناء عليه دخل بنا الأخ عبدالرحمن حديقة الحيوان، وكانت قريبة من القصر الذى دخلناه. وأول ما استوقف أنظارنا قسم الإبل الذى ذكرنا

بالجمل الذى ظل رفيق الحياة للعربي منذ وجوده في التاريخ، حتى نافسته الآلات البخارية وغير ذلك من وسائل النقل. وقد شرح لنا فضيلة الشيخ محمد الشيء الكثير عن الإبل وأقسامها وحصائصها، والجيد منها وغير الجيد، وأن المجموعة المعروضة من الإبل في هذا القسم هي من أحسن أنواع الإبل وأجودها سلالة وفصيلة. وبعد قسم الإبل مررنا بأنواع من (السعادين) وهي مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والأجناس، ثم مررنا بالحيوانات المتوحشة والطيور والزواحف والأسماك وحيوانات القطب الشمالي كالدببة والبطريق..

إلي مقصف الحديقة:

وعندما شعرنا بنوع من التعب من جراء (اللف والدوران) استرحنا في مقصف جميل وسط الحديقة، اجتمع فيه كثير ممن كانوا يتجولون معنا، وتناولنا الشاى مع شيء من الكعك.. ولم تخل الجلسة في هذا المقصف من متعة روحية برؤية الخضرة والأزهار والرياحين على امتداد البصر من كل جانب.

وقمنا من المقصف إلي أجزاء أخرى من الحديقة، حيث النوافير والمياه الجارية، والأراضي المقسمة بأنواع الزهور والورود في أشكال هندسية كأنها طنافس فخمة.. وثم روائع النحت لأشهر النحاتين.. وأخيراً عدنا إلى الشيخ عبدالملك في مكتبه.

وكان قد انتهى من إنجاز أعماله الرسمية مع الطلبة وغير الطلبة، كما أخذنا قسطاً من الراحة على الأرائك الوثيرة، وكنا على استعداد تام للخروج مع الشيخ عبدالملك إلى غابة فينا.

وهي تشمل المرتفعات الشمالية الغربية والجنوبية الغربية، ومنحدراتها، وكل هذه المناطق مكسوة بأشجار الصنوبر، وأراضيها مغطاة بالعشب، وتتصل هذه الغابة والأراضي المرتفعة بالمدينة بطريق معبد يخترق الغابة إلى مسافات بعيدة، ثم تتفرع الطرق إلي مختلف الجهات من هذه المرتفعات..

وأعلى قمة بين هذه القمم المكسوة بالأشجار قمة (سكوبفل) ارتفاعها عن سطح البحر (٨٩٠) متراً، وتزدحم هذه المرتفعات والمنحدرات في عطلات نهاية الأسبوع وغيرها بألوف من عشاق المناظر الطبيعية.. واخترقنا هذه الغابة بالسيارة حتى وصلنا مُرتفعاً جبلياً لا يرى فيه حجر ولا مدر، بل كله نجم وشجر، ودوحات عالية كالجبال.. وذهب بنا الشيخ عبدالملك إلى مطعم وسط تلك الأجمات لتناول الغداء، وكان القوم في المطعم يجلسون جماعات جماعات في الشمس متعرضين لأشعتها لتكسبهم نوعاً من السمرة، أما نحن فلم نكن بحاجة إلى الاسمرار.. ولذلك جلسنا تحت ظل ظليل في الطابق الثاني من المطعم، وكانت الصالة مكيفة الجو باردة، ونوافذها الواسعة مغلقة بالزجاج الشفاف، وتناولنا الغداء وأنظارنا تسرح وتمرح بين الأشجار، وبين القمم المكسوة بالنباتات، ولولا نوع من الضباب في الجو من ناحية المدينة لاستمتعنا برؤية المدينة أي فينا وعماراتها.

وبعد تناول الغداء رجعنا إلى الفندق وتمكنا من أخذ حظنا من القيلولة المتأخرة.

إلي حديقة القلعة:

وكان عشاؤنا في هذه الليلة في مطعم بحديقة القلعة في الهواء الطلق، والمطعم كبير يرتاده مئات الأسر لقضاء سهرتهم إلى ما بعد نصف الليل في الأكل والشرب، واستقبال النسمات الرقيقة من الهواء البارد، وقد أسر إلى السائق النمساوي في أثناء تناولنا للعشاء: أن القوم أي الجالسين حولنا مستغربون جداً لخلو كراسينا من حواء..؟ فقلت له سرا كذلك: دعهم يستغربون، نحن هذه طريقتنا.. فضحك.. وأرهف أذنيه إلى ما يدور بينهم من الكلام وعنا..

وعاد بنا الشيخ عبد الملك بعد تناول العشاء إلى الفندق، ونمنا مبكرين استعداداً للخروج إلي المطار صباح الغد الباكر للسفر إلى بيروت..

- ٣٢ -

جاء الشيخ عبد الملك آل الشيخ إلى الفندق صباح الجمعة ١٣٨٨/٦/٦هـ الموافق ١٩٦٨/٨/٣٠م بسيارته، وأخذنا إلي مطار فينا مارين بالشوارع المزدحمة والحدائق العامة والجسور، كما ألقينا النظرة الأخيرة علي مياه نهر الدانوب الذى يبلغ طوله ٢٨١٦ كيلو متراً تقريباً، ويعتبر ثاني الأنهار طولاً في أوربا، ويجرى من جنوب غربي ألمانيا نحو الجنوب الشرقي ماراً بألمانيا والنمسا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا، ويصب في البحر الأسود.

ووصلنا المطار الساعة ١٠ ١/٢ بالتوقيت المحلي وبمجرد ما دخلنا المطار ألقينا نظرنا على لوحة الرحلات للتأكد من رحلتنا ووقتها فلم نجد لها أى أثر. أى أننا لم نرا اسم (بيروت) في اللوحة، وقام سائق سيارة الشيخ عبد الملك بمهمة إحضار التذاكر وأخذ سمات الخروج على الجوازات، وجلسنا في صالة المسافرين أمام لوحة الرحلات.

واجتمع عدد كبير من الشبان العرب في الصالة، وقد أحالوا الصالة الهادئة إلي شبه مقهي بكثرة ضجيجهم وضحكاتهم ومناداة بعضهم علي بعض.

وعندما ظهر في لوحة الرحلات اسم (بيروت) زاد ضجيجهم ووقف الجميع استعداد للخروج، ولكننا فوجئنا بتغيير في ميعاد الرحلة من ١١,٤٥ إلي ١٢,٢٠ فعاد كل واحد إلى مكانه وكرسيه، حتي حل ميعاد الرحلة، وأعلن للركاب بالخروج إلي الطائرة. وهنا ودع فضيلة الشيخ محمد قريبه الشيخ عبد الملك آل الشيخ بأمان الله والشكر علي ما لقينا منه في فترة الإقامة

بفينا من اللطف والكرم والشهامة والضيافة والتسهيلات في المراجعات الرسمية وغير الرسمية.

ثم دخلنا الطائرة وكانت تابعة للخطوط الجوية الاوسترية وامتلأت مقاعدها وكانت أكثر من ٦٠ مقعداً.. وعندما ارتفعت فوق مدينة فينا كان منظر نهر الدانوب وخضرة الحدائق والغابات أبرز منظر يشاهد من الجو.

المجر وبلغاريا:

وبعد مضى نصف ساعة من قيامنا من مطار فينا قالت إحدى المضيفات من غرفة القيادة بالإنجليزية ما معناه: نحن الآن فوق أراضي المجر، وبعدها سنمر ببلغاريا،.. وبعد ساعتين من بدء الرحلة قالت المضيفة لقد اقتربنا من تركيا.

أحد الركاب:

كان بجوارى راكب لم أعرف جنسيته في أول الأمر، وعندما أعلنت المضيفة عن اقتراب الطائرة من الأجواء التركية؛ تكلم معي بالعربية، وعرفت لهجته أنه من العراق، فسألني: هل تقصد تركيا أم بيروت؟ فقلت له: أقصد (بيروت) فقال: وأنا كذلك أقصد بيروت مع أسرتي، ولكني الآن عدلت وسأنزل إستنبول لأركب طائرة أخرى إلى بيروت.

فسألته: ولماذا هذا العدول؟ فقال ما فحواه: إنه مرتاب من ناحية الشبان العرب الذين معنا في الطائرة، وخشي أن يكون بينهم من غيرالعرب، وأن تحدث منهم في أثناء الطريق أعمال الخطف أى خطف الطائرة وإنزالها بالقوة في أرض العدو... ولذلك قرر النزول في إستنبول.. وطلب مني أن أفعل مثله فقلت له: لست وحيداً بل أنا مع هذا الشيخ (وأشرت إلي فضيلة الشيخ محمد) وسنستمر في الرحلة متوكلين علي القوى الجبار.. فقال: ربنا يحفظكم.

وفي هذه الأثناء كانت الطائرة قد نزلت في مطار إستنبول وقادنا المضيفون والمضيفات إلى صالة عابرى سبيل ـــ (ترانزيت).

وسألت أحد ملاحي الطائرة كم نمكث هنا؟ فقال: أربعين دقيقة.. ولم تكن هذه الدقائق تشجع علي مغادرة الصالة إلي جهة ما من المدينة.. فبقينا في الصالة وتناولنا الشاى والقهوة واقفين لعدم وجود الكراسي اللازمة.. واضطربت الصالة بضجيج أولئك الشبان الذين اشتبه الأخ العراقي فيهم.

وبعد مضي أربعين دقيقة أعلن عن قيام الطائرة إلى بيروت، فدخل الجميع ماعدا الأخ العراقي وأولاده.. ومنذ أن قامت الطائرة من إستنبول وأنا أنظر إلى حركات هؤلاء الشبان وكثرة قيامهم، وعدم ثبوتهم في مقاعدهم، وقد أخبرت الشيخ محمد بما قال الأخ العراقي، وأنه تأخر في استنبول خوفاً من حركات هؤلاء الشبان، فوافق الشيخ على أن حركات هؤلاء الشبان حركات فوضوية، وأنه ليس غريباً من أمثال هؤلاء أن يحدث ما خشيه الأخ العراقي، ولكننا متوكلون على الله، وأن من حفظنا طول الرحلة يحفظنا كذلك في هذه المرحلة القصيرة من شر هؤلاء وغيرهم، وقد وقانا الله شرهم فوصلنا بعد ما يقرب من ساعتين مطار بيروت سالمين مشمولين بعناية الله ولطفه.

في مطار بيروت مقابلة معالي الشيخ حسن آل الشيخ:

كان معالي الشيخ حسن وزير المعارف سابقاً ووزير التعليم العالي حالياً مع عدد من كبار موظفي الوزارة في انتظار أخيه فضيلة الشيخ محمد.. الذى سر برؤية أخيه معالي الوزير سروراً عظيماً.. وكان الفرح والبشر باديين علي القادمين والمستقبلين.

وبعد تبادل العناقات والتحايا وعبارات الترحيب، وإنجاز مسألة الجوازات ركبنا مع معاليه ـــ حفظه الله ـــ إلى فندق ريجنت في ساحة

البرج، حيث نزلنا وقبل أن يغادر معاليه إلى مقره ــ بعالية ــ أخبر أخاه الشيخ محمد أن يكون غداؤنا عنده غداً.

الحجز إلي جدة:

وفي اليوم الثاني أراد الشيخ محمد أن يحجز إلى جدة في أية شركة من شركات الملاحة الجوية.. ولكثرة المتوجهين إلى جدة لم يجد أى طريق للحجز، فأخر الرحلة إلى يوم الثلاثاء ١٠/٦/١٣٨٨هـ أى مع أخيه معالي الشيخ حسن آل الشيخ.



موعد الغداء:

وفي الموعد المحدد للغداء أرسل معالي الشيخ حسن آل الشيخ سيارته مع أحد مرافقيه، فركبنا ووصلنا إلى الفندق (بوليفاج) حيث كان معاليه في انتظارنا، ومعه مدير مكتبه الأستاذ عبدالرحمن الحمدان، وبعد استراحة

قصيرة قام معاليه واستصحبنا إلي منزله بعالية في بقعة هادئة، ووسط حديقة تابعة للمنزل.

وفي بهو المنزل اجتمعنا بأنجال معاليه، وكانوا منهمكين في قراءة الصحف والمجلات الجديدة، كما كان علي مكتب معاليه عدد من الكتب العربية القيمة التي أصدرتها دور النشر في بيروت حديثاً، من بينها كتاب سمعت عنه كثيراً، وكنت في شوق عظيم إلي قراءته، فلما رأيته استأذنت معاليه في القراءة فيه، فتناول معاليه الكتاب وكتب عليه عبارة رقيقة بإهدائه إلىّ ـ كتب الله له السعادة والتوفيق والخير في حياته وجميع أعماله ـ فما وسعني إلا أن أشكر معاليه على تلك الهدية الغالية واحتفظت بها كرمز للفضل والرعاية واللطف والعطف ـ حفظه الله ورعاه.

وكانت هذه الهدية القيمة غذاء روحيا ـ بالنسبة إلىّ ـ ثم جاء دور الغداء فإذا المائدة قد جمعت فأوعت من الأطعمة العربية اللبنانية والنجدية والحجازية المتنوعة التي حرمنا منها طول رحلتنا.. وقد قمنا من المائدة بعد شبع ورى، والأطباق ملأى لوفرة ما بها من لذيذ الأطعمة.. زاد الله معاليه بكل أنواع الخير وأسبغ عليه من نعم الدنيا والآخرة ـ وبقينا مستمتعين بفيض من أحاديثه العلمية اللطيفة، ومكارم أخلاقه ونبله، وتواضع العلماء العاملين ما يقرب من ساعتين، ثم تفضل وأعادنا في سيارته إلى فندق (ريجنت) أكرمه الله وحفظه.

جولة مسائية:

أحب فضيلة الشيخ محمد أن يرتاح، فخرجت منفرداً للبحث عن بعض الكتب أوبعض التحف وغفلت أن يوم السبت ويوم الأحد يعتبران في بيروت من أيام العطلة الأسبوعية. وأبعدت في السير في ساحة البرج دون جدوى إذ كانت المعارض الكبيرة مغلقة، وما كنت أرى غير البقالات أو (أهل الورش) أوأهل الدكاكين الصغيرة.. وأخيراً رجعت إلي الفندق.

إلي بعض الجبال :

وفي اليوم الثاني يوم الأحد الموافق ٨/٦/١٣٨٨هـ قام الشيخ محمد آل الشيخ بجولة في ـ سيارة أجرة ـ إلى بعض الجبال بدأها بقرية بحمدون ـ التي تبعد عن بيروت ٢٣ كيلو متراً، وترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ متراً، فزحلة التي ترتفع عن سطح البحر ٩٧٥ متراً، فشاغور المرتفعة عن سطح البحر ١١٧٠ متراً. وكانت مقاهيها والمقاصف المحاطة بالأشجار والنوافير والشلالات الاصطناعية خالية، لأن معظم روادها يأتون مساء.. وارتحنا في أحد هذه المقاصف، وعند القيام دفع له فضيلة الشيخ ورقة من فئة خمس ليرات ـ لعدم وجود (فكتها) فلم يجد صاحب المقصف لديه مايصرف به هذه الورقة، فأخذ يدور بها على المحلات القريبة والكل يعتذر له لعدم وجود مايصرفها .. وفي النهاية أبعد المشي ووجد صرف تلك الخمس الليرات عند خباز.. وتأثرنا جداً لهذا الكساد، ولسوء الحالة الاقتصادية. وأعاد فضيلة الشيخ بقية (الفكة) إلي صاحب المقصف.

رحلة إلى صيدا والزهراني:

كان يوم الثلاثاء هو يوم السفر إلى جدة برفقة معالي الشيخ حسن آل الشيخ في المساء، فأحب فضيلة الشيخ محمد أن يقوم برحلة في أول النهار إلى مدينة صيدا ومنطقة الزهراني، المنطقة التي تنتهي إليها أنابيب شركة تابلاين.. وكان سائق التاكسي رجلاً لطيفاً سارينا نحو الجنوب مع ساحل البحر، وكأنه مرشد من المرشدين الذين يرافقون السياح، لا يمر بأرض أوبمكان إلا ويعرفنا به ونبذة تاريخية عنه أحياناً، فمررنا بمنطقة الاوزاعية وهي أرض رملية خالية قريبة من البحر.. وفي مرورنا السريع لمحت في أرض واسعة لوحة كبيرة كتب عليها ـ الدوحة ـ ونسيت أن أسأل الأخ السائق عنها، فسألت الأستاذ الفاضل الشيخ عبدالرحيم الصديقي المدرس بمدرسة عكاظ الثانوية بالطائف بصفته خبيراً بهذه الأسماء ـ وقد تقابلنا معه في بيروت ـ فقال ـ حفظه الله ـ إن الأرض التي رأينا اسم (الدوحة) هي

أرض اشتراها سمو الشيخ علي بن ثاني حاكم قطر السابق لإحيائها بالمزارع والبساتين، وبناء قصرله وسماها باسم عاصمة ملكه (الدوحة) فشكرناه علي هذه المعلومات.

وأخيراً وصلنا صيدا وهي تبعد عن بيروت ٤٧ كيلو متراً، من المدن القديمة في لبنان يعود تاريخها إلي عهد الفينيقيين والكنعانيين.. وزادت أهميتها بعد مد الأنابيب من العربية السعودية إليها.. وقد ارآنا الأخ السائق القطعة التاريخية وبعض معالمها.

وتناولنا الشاى والبارد في مقهى على ساحل البحر الأبيض، ويبدو على عمارات صيدا وبيوتها القدم، كما أن المواصلات بين بيروت وبينها ليست منتظمة، وكان لها شأن كبير قبل وجود العدوة إسرائيل، فقد كان الطريق الجنوبي يربط لبنان بفلسطين والمناطق الجنوبية، وأصبح هذا الطريق الآن في حكم المقطوع.. ثم عدنا إلى بيروت.

إلي جدة:

وفي المساء من هذا اليوم ذهبنا إلي مطار بيروت حيث اجتمع لتوديع معالي وزير التعليم العالي الشيخ حسن آل الشيخ الشخصيات السعودية وغير السعودية.. وركبنا الطائرة السعودية بعد المغرب، وكانت مزدحمة، وبقي مضيفو الطائرة ــ والطائرة في الجو ــ إلى وقت طويل ينظمون جلوس الركاب، وما هدأ الركاب في مقاعدهم إلا ووزعت بطاقات تسجيل الهويات، وكان بجوارى عدد من الأطفال وغيرهم لم يعرفوا ملء تلك البطاقات، فاشتغلت كاتباً لهم حتي قال الأخ المضيف للركاب : استعدوا للنزول في مطار جدة ــ.

وحمدنا الله تعالى على أن أعادنا إلى أرض الوطن سالمين مرتاحين في صحة وعافية.

ولا يسعني عند نهاية الرحلة التي كانت عبر الجبال والأنهار والأقاليم والمحيط ـ إلا أن أسجل أسمى عبارات الشكر، وأجمل ألفاظ الثناء، وأعمق كلمة الدعاء بالخير لصاحب الفضيلة الشيخ محمد آل الشيخ على ما شملني به من لطفه وسمو أخلاقه وكريم سجاياه وعظيم تواضعه في أثناء الرحلة من مبدئها إلى منتهاها ـ شمله الله بعين عنايته وكرمه وفضله.

(وأريد الآن) : أن يشمله برحمته ومغفرته وينزله فسيح جناته ...

دموع فى كلمات:

كان سروري جما بأني سوف أقدم هذه الرحلة ـ وقد ظهرت في شكل كتاب ـ بيدي إلى يد فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله بن حسن آل الشيخ، فيتناوله مسروراً ويقرأ فصوله مبتهجاً، لأنها تجدد له ذكريات رحلته، وتعرض عليه شريط وقائعها وحوادثها ومناظرها

وما كنت أدرى أن هذه الفصول ستخرج فى شكل كتاب ــ كرغبته ورغبتى ــ ويكون الشيخ محمد بن عبد الله بن حسن آل الشيخ قد فارق الدنيا الفانية إلى دار البقاء.. تاركاً جميع من كان يحبهم ويحبونه فى أعماق من الحزن، وبحار من الدموع، وكآبة الغم والأسى والأسف، وهم يرددون قوله تعالى: **(إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون)** امتثالاً لأمر الله فى هذه المواقف المؤلمة المحزنة، ولئلا يحرموا ــ بعد فقدهم لشخصه الكريم من أجر الصابرين الذين بشرهم الله تعالى بقوله: **(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)**.

ورحمك الله يابن الأكرمين، وأنزل شآبيب رحمته على جدثك، وجعل الفردوس مثواك ومنزلك ، وأكرمك بمغفرته وعفوه، وألهم جميع أفراد أسرته الكريمة ومحبيه الصبر والسلوان،

مكة المكرمة ١/٤/١٣٩٩

أحمد على

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة

الموضـــوع	صفحـة

الموضـوع	صفحة

الموضوع	صفحة


دار الثقافة للطباعة
DAR ALTHACAFA PRINTING PRESS
مكة المكرمة / الزاهر / هاتف ٥٤٢٥١٩٢ / ٥٤٤٨٥٤٦